


توالي المجلة سيرها الوئيد نحو تزويد القارئ العربي بنماذج من الأدب العالمي المعاصر ، بعيدة عن كل عقيدية وتحزب وانتماء آملة أن تحقق ذلك الاتصال الصميمي ، والممازجة النفسية ، والمسارقة الحرة بين نخبة من أعلام الآداب الأجنبية على اختلاف عقلياتهم وجنسياتهم وبين القراء على امتداد الوطن العربي . فيطلع هؤلاء على نماذج من التفكير ، وأنماط من الأساليب الكتابية ، وأمثلة من التعبير البياني قد تغني ، عاجلاً أو آجلاً ، العقلية العربية بمختلف المفاهيم والأخيلة والتصورات التي تشكل المواد الأساسية في البناء الأدبي .

بيد أن هيئة التحرير تشعر بأن هذا « التطعيم » لن يكون ناجعاً ولن يتم على الوجه الأكمل وفي السرعة المرجوة إذا لم يتصدّ نقاد وباحثون وعلماء أطّلعوا على الآداب الأجنبية وحذقوا لغاتها وسبروا أغوارها لوضع القارئ العربي في سياق تلك الآداب ومناخها الروحي وجوانبها الفكرية وتطورها التاريخي لكي تتم المتعة وتكبر الفائدة ، إذ لا يكفي أن يقرأ الإنسان المثقف بين وقت وآخر مقالاً مترجماً حتى تنشأ تلك الصلة المنشودة ولذا تدعو هيئة تحرير المجلة الأدباء والمفكرين بعامة وأساتذة الجامعات بخاصة للقيام بهذه العملية التبسيطية التعميمية متخذين من مجلة الآداب الأجنبية ميداناً لدراساتهم وصدراً رحباً لآرائهم .

رئيس التحرير

نحو
قوانين للتطوّر الأدبي

د. ديفيد كريج
ترجمة د. محمد عدنان حسين

« .. إن العنصر التاريخي هو الشيء الذي مايزال الافتقار إليه أوضح مايكون في الطريقة التي يعالج بها النقاد مهماتهم المعينة »

« النقد الأدبي الانكليزي »

ملحق التايمز الأدبي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٠

يبدو من المعقول أن نفترض أن الوسائل التي نجمعها تحت وصف « أدب » تتغير مع السنين تبعاً لقوانين – أن هنالك تعاقبات وأنواعاً متميزة من الوثبات الكيفية في العمليات التي نجمعها تحت تسمية تراث . إن أكثرنا لا يستطيع أن يتجنب اللجوء بين حين وآخر إلى بعض الأفكار التي تكون غالباً متشابكة ومصوغة صياغة أولية حول كيفية نمو الأدب ، أفكار تنسب الأدب عادة إلى خطوط نمو أخرى ولاسيما تاريخ الأفكار والتاريخ الاجتماعي . ومهما يكن فإنني لأشك فيما إذا كنا نستطيع أن ندرك الأدب بوضوح كاف كما هو – ودعك من تفسيره – إن لم نصبح أكثر وعياً وأكثر دقة في نظريتنا ، والتفسير هو فيما يبدو لي العمل الرئيسي الذي ينبغي الآن للنقد أن يعمله .

لقد تدفق النقد والأبحاث العلمية الأكاديمية بغزارة في نصف القرن الماضي ، وقد طبع الكثير ونشر في مجاميع ونوقش ، وقوّم حتى ليمكن القول إنه لم يبق إلا القليل مما يجب عمله في معظم مجالات الأدب الانكليزي .

إن الأدب يمكن أن يحلل ، أي توضح تفصيلاته وبنيته ، ويمكن أن يقوم ، أي تقدر قيمته ، بمحكات الشيء القيّم والجميل ، ويمكن أن يفسر ، أي تقص قصة ظهور الأشكال ، والأساليب والموضوعات والحوافز والمواهب الفردية من حيث توقيتها واستقرارها ونموّها . صحيح أن هذه المناهج الثلاثة – وهي وجوه لفهم الأدب بكونه نتاجاً انسانياً – لا تكاد تقبل الانفصام ، ولكن ما يدهشني كثيراً هو أن شدة الجهد النقدي أو وزنه في أيامنا لا يميلان إلا قليلاً جداً نحو الجانب التفسيري أي التاريخي . لقد تكهن كتاب مثل لو كاتش بجرأة حول بعض العلاقات المتبادلة مثلاً بين ذرى النشاط السياسي وظهور الرواية التاريخية أو ظهور الواقعية . ولكن العمل الفريد الذي يبدو لي واضحاً وهو مع ذلك مرن في خطوطه النظرية وغني بتفصيلات الحقائق التاريخية هو في حقل بعيد عن مكاننا وزماننا . ذلك هو عمل جورج تومسون عن الأدب اليوناني والمجتمع (١) . ربما كان نوع صنيع تومسون الذي هو في آن واحد تجريبي ومبين نظرياً – إنه في الواقع فصول معينة في التاريخ الأدبي – هو الذي يستطيع أن يدفع إلى الأمام ما أدعوه تفسير الأدب ،

---

١ – الدكتور ديفيد كريج كاتب المقال هو محاضر في الادب الإنكليزي في جامعة لانكاستر في بريطانيا والمقال منشور في العدد الثاني من Mosaic وهي مجلة تعنى بالدراسة المقارنة للادب والافكار وتصدر عن جامعة مانيتوبا في كندا .

وربما كان البحث عن أي شيء يشبه « القوانين » مقضياً عليه مسبقا . على الأقل يمكن جـلاء بعض المفهومات الخاطئـة والأوهـام إذا نظرنـا في نوع الأسئلة التي يمكن أن يجاب عنها عندما نكون أوضح في نظريتنا عن التاريخ الأدبي : ما هي الجهود التي بذلت حتى الآن للتفسير ؟ وما هي الاعتراضات التي أثيرت على المنهج التفسيري أو التاريخي ؟ .

إن في خاطري نوعاً من السؤال التالي : هل نتفق – وإذا اتفقنا كيف سنفسر– انه لم يكتب شعر حب بالصراحة والغنى اللذين تحوزهما مثلا قصيدة دون التاسعة عشرة بين خمسينات القرن السابع عشر وثمانينات القرن الثامن عشر ، وأن الجنسية البشرية لم يعبر عنها حقا أو على نحو كامل من الفترة المبكرة في القرن السابع عشر حتى وقت مبكر من القرن العشرين ؟ هل نتفق وإذا اتفقنا كيف نفسر أن جزءاً كبيراً من أفضل الأدب القصصي البريطاني منذ أوائل هذا القرن قد جعل مسرحه في ما وراء البحار؟ وثمة أيضاً أسئلة لا يستطيع المرء أن يطرحها بدون أن يضع فيها عنصراً من عناصر التقويم : لماذا ليس لدينا قصة نثرية بالانكليزية نتحدث عنها قبل عشرينات القرن الثامن عشر ؟ ولماذا تبقى الروايات بدائيـة من الناحيـة النفسية وخليطة وغير مستقرة من حيث الشكل حتى سنة ١٨١٨ (عندما نشرت رواية جين أوستن (الاقناع) ؟ ومن هذا مباشرة ينتج السؤال : هل نتفق وإذا اتفقنا كيف نفسر أن العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر هي فترة خمول مجدبة في تراثنا أعقبتها على الأثر من حوالي ١٨٤٨ إلى ١٨٦٥ دفقة شبت فيها عن الطوق الروايةُ أرفع شكل حديث ؟

إن مسائل مركزية مثل هذه هي ما علينا تفسيره ، ولقد اقتنعت بأنها أسئلة

حقيقية وملحة بكون طلاب المرء وزملائه يبدون عادة غير دارين دراية متميزة . بفترات الخمول والذرى تلك ، وأنهم عندما ينتبهون إليها يلوذون بكل نوع من التفصيلات العبقرية والاستثناءات الصغيرة أو الفذة بدلا من أن يقروا ثم يحاولوا تفسير هذه الوجوه البارزة في التاريخ الأدبي .

أن يُسأل كيف تفسر مثل هذه المسائل يرقى إلى السؤال : كيف يمكن أن تكون بدهيات التطور الأدبي ، وإذا ما أوجزت تفسيري أنا لواحد من هذه الوجوه أي ظهور القصة بالشكل والزمن اللذين ظهرت بهما فإننا نستطيع عندئذ أن نرى ما هي الدلالات الرئيسية التي يمكن أن تنجم عنه .

بالطبع لقد وجدت القصة الطويلة منذ ما قبل التاريخ (بقدر ما يمكن أن نستنتج بالاستدلال من أساطير شعوب « العصر الحجري » الباقية كشعب أوستراليا الأصلي) . إن العنصر الأسلوبي الضروري لتحويل القصة الطويلة إلى رواية بالمعنى الصحيح – أي نثر واقعي منغمس في تفصيلات الحياة المعاصرة – نجم عن انكلترة المهزوزة والمعبأة بثورة القرن السابع عشر . وقد أدى هذا مباشرة إلى ظهور الكلام المطبوع ، والجريدة ، والتراجم المفصلة لناس كانوا في عين الرأي العام ، والتواريخ بمعنى قص الأحداث القريبة العهد التي دخلت بإحكام في الدوافع الاجتماعية والشخصية ؛ فحوالي ١٧٠٠ أو بعدها بقليل كانت ثقافتنا قد طورت شيئاً جديداً : قصصا وتعليقا مؤسسا في الحاضر ، مشيراً إليه مباشرة وليس بالمجاز أو التشبيه الملتوي ومصبوباً في شكل يروق لأكبر عدد من الناس بصرف النظر عن الطبقة أو التدريب الإخصائي . بالطبع كان ثمة قبل ذلك بقرون سوابق لمثل هذه الوسائل . ولكن

المقالات ، والأهاجي ، والروايات التي تحتشد في عصر ديفو ، وسويفت ، ، ودرايدن ، وأديسون ، وبوب ، وفيلدينغ ، وجونسون تكاد تكون موجة جديدة في نمو وسائلنا التثقيفية ، ونستطيع أن نبين أن الدافع يأتي من الأحداث الرئيسية للثورة الانكليزية .

إن البدهية التي ينطوي عليها هذا هي ما يلي : إن الأشكال الأدبية والأعمال المحددة لاينبغي أن يفكر فيها كما لو كانت لآلىء أودعها أفراد خاصون ، وإن كان هذا يدخل فيها ، أو كما لو كانت تجسيدات لروح العصر . وإن كان هذا أيضاً يدخل فيها ، بل على أنها أجزاء عاملة في الثقافة ، أشكال يجد الناس أنها ضرورية بسبب الشروط التي يعيش فيها الناس حياتهم .

إذا كان هذا مقبولاً فستكون القضية القائمة على الانطباع الأول حينئذ هي أن مجرى التطور الأدبي ــ فترات الخمول والذرى والأغصان المائتة والفروع الجديدة ــ يقرره المجرى الرئيسي للتاريخ ، ومع ذلك فان الرأي الأدبي ذا الخبرة عندما يكون عليه أن يدخل إلى بساط التاريخ يميل إلى أن يضع جانباً بعجالة أو يتحدى هذا الاعتماد من الأدبي على التاريخي . يعلق سينتزبري بدعابة في تاريخه الذي تكرر طبعه أن « خير تفسير لعدم وجود شاعر في الانكليزية يضاهي تشوسر بين تشوسر نفسه وبين سري هو أنه لم يظهر في الحقيقة شاعر كهذا » . ببساطة إن مثل هذا المنهج يجعل كتابة التاريخ على الوجه الصحيح ــ أي التفسير التعاقبي للظواهر ــ مستحيلاً . لا أحد يبالي بسينتزبري الآن ، ولكنه ليس إلا حديثاً أن قال مرجع قيادي رفيع جداً منهياً استعراضه لنثر القرن السابع عشر : « إنه لاشك أبعد من فطنة أي انسان أن

يقول لماذا ولدت الرواية في القرن الثامن عشر وليس قبل . فإذا كان لمثل هذا المنهج أن يسود فإن الأدب سيكون الظاهرة الوحيدة في الكون التي ليس لها سبب أو تطور لاحق قابل للتفسير. وربما كان هذا ما يريده ذوو الخبرة ، فإحدى النظرات العامة تمثلها هذه الفقرة من كتاب جراهام هاف عن الحداثة :

« إن الأدب لحسن الحظ لا يعكس بدقة بالغة تشنجات النظام الاجتماعي . إن ثوراته تسبق أحياناً الثورات الاجتماعية ، وأحياناً تعقبها ، وأحياناً فيما يبدو تتداخل معها دونما هدف . . .ولكن حالما نبدأ بالنظر الممعن في رقعة معينة من الأدب فإن من المحتمل أن نراها تتطور تبعاً لمبادئها الخاصة التي لها اهتمامها الخاص بها ، ويحتمل أن تكون على الأقل جزئياً ، عرضية في علاقاتها بالحروب والتكنولوجيات وحركات الطبقات التي هي مصاحبات زمنية لها . إنه حسن حظ لأنها حالة سعيدة لما نعنيه بحرية الروح .

. . . باختصار ، إن ثورة أدبية يجب أن تكون ثورة أدبية إذا كان لها أن تكون أي شيء إنها يمكن أن ترافق أو ترافق بأي نوع تقريباً من أنواع الثورات وعلى أي مسافة تقريباً . . . ولكن ما لم ننظر إلى الأدب بوصفه عرضاً لشيء آخر - (قد يكون هذا شغلا محترماً ولكن ليس للناقد الأدبي) فان ما يجب أن نعنى به هو سلوك الأدب نفسه » .

في هذا المناخ المعادي للتاريخية - تؤيده كما نرى عند هاف الأبهة الطاغية لأفكار مثل « حرية الروح الإنسانية » أصبحت المحاولات لتفسير الأدب تفسيراً متماسكا نادرةنوعاً ما .وتبرز هنا ثلاثة أنواع هي : يلاحظ الناقد تشابها عجيباً بين أعمال من عصر واحد ولكنه يقف قاصراً عن تفسير ظهورها معاً . يقدم الناقد

نموذجاً من التطور الأدبي حسن الوقع كاستعارة ولكنه ليس إلا شبه تفسيري ، يقترح الناقد تخطيط نظرية للتطور الأدبي ولكنها معرضة لئلا تنتهي إلى أي شيء حتى توضع موضع الاستعمال ـ محققةً ـ في مجالات أدبية معينة .

وكمثال على النوع الأول قامت مساع متنوعة لتفسير ظهور الحداثة ـ تلك الدفقة الغريبة من الاختراع التي تكشف عن مشابهات عائلية (ملصقة . معارضة استعارات من الفن « البدائي » . تشويه بتعمد للجميل) حتى بين فنون مختلفة اختلاف القصص والموسيقا والرسم ، فقد جمع المؤرخ آلان بولوك في أحد المقالات الحديثة عدداً من هذه المخترعات في العلم والآلات والفنون منذ حوالي ١٩٠٠ وحاول أن يصوغها في وثبة نوعية في نمو الحضارة ولكن استنتاجه كان هبوطاً مفاجئاً مصدره هوى النفس « حقاً أن انبثاق النماذج القديمة في هذا العدد الكبير من المجالات المختلفة حوالي الزمن نفسه لا يمكن أن يكون عرضياً » وتقف المسألة هنا . من الممكن ألا يكون مؤرخ محدث مترجم لحياتي هتلر وارنست بفين في وضع مريح وهو يكتب في تاريخ الفن ، ومع ذلك فأي عون يمكن أن نكون قد تلقينا من زملائه الأدبيين ؟ لقد كانت لدي آمال في التصنيف الضخم الذي أخرجه المان وفيدلسُن بعنوان (التراث الحديث) (١٩٦٥) وبعنوانه الفرعي خلفيات الأدب الحديث ، ولكنه كتاب نصوص آخر في الفلسفات ، وفي انتشار الكلام على الكلمات . إن عنواناته الرئيسية هي : الرمزية . الواقعية الطبيعة . التاريخ الثقافي . اللاوعي . الأسطورة . الوعي الذاتي . إنني أفتقد هنا بين المجالات المتاخمة للأدب (التاريخ الاجتماعي والعلوم ، وأفتقد ضمن نطاق الأدب نفسه فكرة الوظيفة والنوع الوثائقي . والنتيجة الفعلية هي أن يعالج الأدبُ

كنوع من التكاثف الذي يحدث من قلب الجو للمناك الغاز القديم ، روح العصر . في فصل « الفنان والمجتمع » أفتقد الفن كمُقْنِع ، الفن كصوت مجموعة ، الفن كناقل للمعلومات . ومن بين سلسلة المصطلحات الاجتماعية للكاتبين التي تتضمن « الأخلاق » . « الطبقة » .«الحقيقة » أفتقد المدينة والحزب والحزبية والعمل . . . وباختصار إن عضلة الحياة وعظمها قد جرّدا مما يترك – فرضا – الروح . في كتاب آخر كثير الاستعمال الآن هو (التراث والحلم) لمؤلفه وولتر آلن يقدم الناقد إلى حد كبير عنقود المخترعات الحديثة نفسه الذي يقدمه مقال بولوك ؛ فهو يثير بايجاز السؤال عما إذا كانت هذه المخترعات قد ظهرت من خميرة الحرب العظمى ، ويستنتج من التواريخ أن ليس من الممكن أن تكون هي الحرب -- سترافينسكى ، وبيكاسو ، وتشيخوف ، وجويس ، وفرويد ، كلهم انطلقوا على طريقهم قبل حرب ١٩١٤ بزمن طويل ، وهكذا فهو يسقط راجعا القهقرى على حكمة فيرجينيا وولف « في كانون الأول ١٩١٠ أو حواليه تغيرت الطبيعة البشرية » . ومرة أخرى يعجز ناقد في براءته النظرية عن أن يأخذ الخطوات التالية من المحاكمة العقلية : إذا كانت الاضطرابات أو القفزات النوعية تحدث تقريباً في آن واحد في الأدب وفي الحياة الاجتماعية فإنه لأكثر احتمالا أنها مترابطة سببيا ولكن الواحد منها لا يمكن أن يكون انعكاساً » للآخر . إذ كيف يستطيع الفنانون أن يحولوا صيغهم وأساليبهم بسرعة يتمكنون بها من التقاط جوهر طريقة حياة جديدة ليس إلا أشهراً أوسنين قلائل بعد أن بزغ فجر هذه الحياة ؟ فالاحتمال إذن هو أنها مرتبطة بجذر مشترك من الواضح أنه ينبغي البحث عنه في الأجيال التي تسبق التغيير نفسه مباشرة . قد يبدو هذا الاستنتاج بدهية ، ومع ذلك فهو ضروري لكي ندحض فكرة أن الأدب هو « انعكاس » لعصره بدون أن تقتلع

جذوره كلية من التاريخ . ما يجب الاعتراف به هو أن التطورات البيئة القريبى على بساط التاريخ والأدب تكون على الأرجح متواشجة .

ثانياً : لقد حاول النقاد أن يجعلوا معنى للتطور الأدبي بوساطة نماذج أو استعارات ولسنوات كان أكثرها رواجاً هو النواس : يسأم الكتاب والجمهور النموذج القائم مثلاً « الشكلية » الأوغسطية فينوس النواس إلى الطرف الآخر من قوسه : في هذه الحالة اللغة الطبيعية والعاطفية التلقائية عند الرومانتيكيين . هذا ما أفترض أن كازاميان يعني « بنوسات الايقاع الخلقي للروح القومية الانكليزية » صحيح أن النماذج تشعر الآن بأنها بالية وبأن الفن يجب أن يتجدد ، ولكن نموذج النواس عاجز عن بيان سبب اختيار الجيل الجديد من الفنانين لطائفة ما من النماذج من بين السلسلة غير المحدودة تحت تصرفهم . إنها تبدو كأنها تشترط أزواجاً من الصفات المتضادة ، فإذا اتجه عصر (١) إلى س فان عصر (٢) سيميل بالضرورة إلى (ـــس) . وهذا سيجعل التنبؤ سهلاً ومع ذلك فالحقيقة هي أننا لا تكون لدينا في العادة فكرة عن الشكل الذي ستأخذه الموجه الجديدة . حتى إذا نظرنا القهقرى فإن مثال النواس يخفق في العمل . ولنعتبر مستهل كتاب توبرفيل « الانكليز وأخلاقهم في القرن الثامن عشر » (إنني آخذ كتاباً فات أوانه مثل هذا الكتاب لأن آثار أنصاف الحقائق فيه ما تزال ترى على كل جانب سواء بالافتراضات التي يتخذها الطلاب الشبان وفي العمل الأكاديمي حول الموضوع مثل كتاب سذرلاند « مقدمة لشعر القرن الثامن عشر » :

« . . . إن كل عصر في تطويره لعبقريته المتميزة الخاصة يقوم إلى حد ما برد فعل على سالفه مثل هذا هو تفسير المدرسة الأدبية التي تسود الجزء الأول من الفترة

ـ مدرسة بوب . كان عملها عفيفاً في التعبير على نحو غير عادي ، وكثير الصقل؛ وكان أيضاً خالياً من الحماسة خلواً بيّناً . كان هذا بسبب أنه مقت ورفض تماماً للغة الزخرفية المسرفة والأفكار والصور البلاغية المعقدة المقتسرة التي شوهت بعض ما يسمى بالأدب الاليزابيثي المتأخر الذي هو في الواقع يعقوبي . لقد نددت المدرسة الكلاسيكية بذلك الأسلوب على أنه غير طبيعي وسيء الذوق وطالبت بقدر أكبر من الضبط وصحة العبارة ونقائها . لقد جعلت الأدب « مهذباً » واتجهت إلى طبقة مثقفة صغيرة مؤلفة من مجتمع لندن » .

هنا تستدعي كل الأسئلة. إن أسباب مقت «الحماسة» التي كانت في الأصل خوفاً من الانتفاض الشعبي ، ومن الطوائف الديمقراطية وأمثالها من القوى التي برزت في ثورة القرن السابع عشر ، قد جُعلت أسلوبية حصراً: مقت للغة الزخرفية المسرفة ولا يمكن أن يكون هذا صحيحاً لأن شعر العصر كان متأثراً (أكاد أقول مشلولا) جداً بالفخامة التي تعلمها من ملتون . ثم أنه يُفترض أن تكون نوسة النواس الأسلوبي قد « جعلت الأدب مهذباً » فانظر وتأمل ! هنالك كان السادة الظرفاء يتطرون الأدب . إن هذا ببساطة يوقف العملية على رأسها ، والأسوأ أنه يعزل تطور الطبقة وتطور الوسيلة الواحد من الآخر وسيكون أصح للتفاعل الحقيقي بين القوى الثقافية لو أن توبرفيل استطاع أن يرى الشيئين متواشجين : أسلوب حضري واعتماد الطبقة الوسطى ـ العليا الحضرية المرفهة ، طبقة الملكية والارستقراطية على مدينة لندن .

والبدهية التي يتضمنها هذا هي ما يلي : إنه لمن الصحيح حقاً أن تفترض ، درجة من الاستقلال الذاتي للأشكال الأدبية ، فمنذ أن يوجد المقال أو الأهجية

أو الرواية فان الفنانين سوف يسعون لتطوير الشكل إلى قصاراه ، والأشكال المبتدلة ستحتاج إلى أن يستبدل بها شيء آخر طازج ومختلف ، ولكن ظهورها بالدرجة الأولى والأشكال المحددة التي يتخذها نموها اللاحق وما يتطور ليحل محلها هي أمور لا يمكن تفسيرها بمعزل عن وسطها .

ثالثاً : غالباً ما حاول النقاد خطوطاً عريضة طموحاً لنظرية في التطور الأدبي وذلك بتبني لغة علم ذي مساس به: منذ خمسين سنة كانت تلك لغة دارون وقد أصبحت مؤخراً لغة كارل ما نهيم حوالي دورة القرن ظهرت أشياء مثل كتاب برونيتير (تطور الانواع الأدبية) وكتاب جون أدينغتون سيموندز (حول تطبيق مبادىء التطور على الفن والأدب) وغالباً ما كان هذا العمل لا يتجاوز بدهية أن أشكال الفن تنمو وتضمحل وعوامل التغير لم تكن لتشخص ، ولكن هنالك قطعة واحدة من تلك الفترة حول أصل الدراما في انكلترا ، تنفذ بعمق إلى التغير الأدبي إلى حد القول إن فيها – بالقياس ، شيئاً مما نحتاجه من أجل الأشكال والعصور الأخرى . يقول مانلي كاتب القطعة إنه لم ينطلق ليكون داروياً في الأدب ولكن حقائق اختصاصه جعلته يرى أن « من المستحيل عملياً التكلم أو التفكير في أي مجموعة موحدة من الحقائق التي تظهر تغيراً مستمراً كما كان الناس عادة يتكلمون ويفكرون قبل ١٨٦٠ . إنه لمن غير المرغوب ألا نزال نتكلم ونفكر كما لو كان بالامكان أن تُلبى حاجات الفكر لانساني بمحض سجل التعاقب الزمني » . ومن ثم يناقش مانلي الأشكال المتنوعة الجنينية في الظاهر للدراما وقد عجزت كلها عن أن تتطور إلى الدراما الحق – طقوس القداس عنصر الحوار في الملحمة وفي المواعظ – وهو يبين كيف أن الانطلاقة جاءت

مع التغيرات الموسيقية واللفظية غير الرسمية ، تلك التي زحفت إلى طقس القربان المقدس . لقد نمت هذه المحازات من كل سمة هامة في القداس وكانت احداها غنائية تجاوبية يغنيها نصفا الكورس أثناء صلاة القداس الافتتاحية في عيد الفصح. كانت صيغة السؤال والجواب فيها ذات حاقة درامية وقد أصبحت كذلك تماماً وشكلياً عندما بدأ يغنيها كاهنان يمثلان الملكين على القبر وثلاثة كهنة آخرون يمثلون المريمات الثلاث (ص ٥ ، ٧–٨) .

إن هذا لعميق الإيحاء ويحتاج أن يطبق على كل الأشكال الرئيسية وتغيرات الأشكال في التاريخ الأدبي . وأما كنظرية فإنه لا يزال غير تام . إن تصور المحار إلى الدراما ، واعترافات مجرم نيوكيت إلى الرواية هو المعادل الأدبي للتغيير الذي يقوم به البيولوجي انه يحدث تحت عزم العصرية . ولكن ماذا يمكن أن يكون المعادل في الأدب للانتخاب الطبيعي الذي يقوم به البيولوجي ، أي العملية التي تمر بها بعض الأشكال فتزدهر بينما تموت أشكال أخرى ؟ يقول مانلي .

« تبدو أنواع معينة كأنها ذات فترات تغيير خاصة ، فأثناء هذه الفترات تنتج تنوعات وتغيرات كثيرة تنتهي إلى أنواع جديدة . . . . وفي كل حالة يمكن أن نجد سبباً محتملاً لفترة الإنتاجية والتنوع في حقيقة أن كل واحدة تعقب على الأثر – وهي جزء من – حركة عقلية أو فنية كبرى » (ص ١٧–١٨) .

ولكن ما هو سبب هذه الحركات الكبرى؟ إن مناقشة مانلي هنا هي لسوء الحظ دائرية فهي تلتف على نفسها ولا تفسر شيئاً، ويبدو هذا نموذجياً تبعاً للنظريات التي تعالج الحركات العقلية أو تاريخ الأفكار بكونها محركات رئيسية في النمو الثقافي .

فأحد النقد ممن يستعملون مانهيم يكتب حول مسألة تفسير فترة ثقافية :

أختر أولاً فترة الدراسة و نتخب المسألة التي ستعالج مقيماً المفهوم الرئيسي وضده . ثانياً · حلل على المستوى الأولي للعزو كل الأعمال المشمولة . استقصها إلى الفكرة المشتركة المركزية ؛ الإعلائية مثلاً ،واصنع النموذج البنوي الذي يجعل النظرة العالمية في تفسير التاريخ واضحة . ثالثاً حلل الأعمال وانظر إلى أي مدى تلائم البنية .

ولكن الدورانية القاتلة قد دخلت من قبل لأن من الطبيعي أن تلائم الأعمال البنية » منذ أن اختيرت بحسب المفهوم المركزي » أو«الفكرة المشتركة المركزية» التي بدأ التحقيق منها ! ويتابع كرن : رابعاً : على مستوى العزو الاجتماعي ويتحاور النظرة العالمية في تفسير التاريخ أسع لاستنباط بنية أسلوب التفكير واتجاهاته من تركيب المجموعات أو الطبقات أو الأجيال أو الأشغال أو الطوائف أو الأحزاب أو الأقاليم أو العصب أو المدارس التي تعبر عن نفسها في تلك الصيغة

والآن نحن بالتأكيد نشعر أنه كان من الأفضل لو أن النظرة العالمية لم تكن موجودة منذ البدء لنتلمس الطريق خلالها أو نعبرها ، ونشعر بالقدر نفسه أنه ربما كان خاطئاً أن نفكر في الدافع الرئيسي لفترة ما على أنه شيء مجرد مثل «الإعلائية » . إن الأفكار لسوء الحظ تعالج تكرارا بهذه الطريقة على أنها محركات رئيسية - والطالب المدعو إلى قراءة شيء أكثر من النص وحده وناقد أو ناقدين فيرجح انه سيرجع إلى التواريخ المعلبة للفلسفة الانكليزية من تأليف باسيل ويلي ، وهذا كما سبق أن رأينا يعود بنا إلى السؤال السابق : ما الذي سبب الأفكار

لأن من المفروض أنها لم تأت إلى الوجود بنوع من ولادة العذرة . ولننظر في حالتين ربما بدت فيهما الايديولوجية سابقة للتطورات الأدبية . ان نصير النظرة العالمية سوف يعتبر فرضا أن النفعية هي رئيسية بالنسبة إلى فترة ١٨٠٠—١٨٦٠ والوجودية رئيسية لفترة ١٩٤٠—١٩٦٠ . فأما بشأن الأولى فيبدو لي أنه لولم يكن بنثام ، وجيمس ميل قد كتبا كلمة ، وان تشادويك لم يعمل قط من أجل (لحنة قانون الفقر) فإن أحسن أعمال وردزورث وشلي وديكنز كانت ستكون كما هي بالرغم من ذلك لأن ما واجهوه في أيامهم كان ضغط نظُم جامدة : المحرمات والمحظورات لارستقراطية ، والحظائر والمعامل والمشاغل والمدن ذات المحطات الكهربائية المتصلة . من هذه البيئة انبثقت الثورة الرومانتكية والروايات التي تعالج ظروف انكلترا ومنها أيضاً انبثقت الفلسفة النفعية . إن نوعي التأليف هذين هما متواشحان . إن الايديولوجيا ليست سابقة بأي معنى من المعاني . ولكن يبدو أن قضية الوجودية تؤكد نتيجة معاكسة . وهذا يظهر مدى حاجتنا إلى ألا نكون متحجري العقيدة في صوغ القوانين الأدبية . إذ يبدو أن لقضية لن تكون هي أن ثلاثية سارتر ، و غريب كامو ، وانتظار جودو لبيكيت كانت ستكون هي نفسها حتى ولو لم يكتب ماركس الشاب ونيتشه وهيدجر والآخرون كلمة واحدة . لقد قرب إلى أذهان الناس أن الإنسان هو في حالة انقذاف إلى داخله : لقد قُذِف بنا إلى الوجود بعملية فيريائية لم نختَرها وعلينا منذئذ أن نملأ حياتنا بمشروعات يوهنها أبداً وعبثا أنها آنية حقاً أن فكرة كون الانسان معذباً بحريته لأنه ليس له أي مكان يتجه إليه وهو يقوم بالاختيار قد غاصت في الأعماق حديثاً لأن الكتّاب ،مع سائر الناس ، كان عليهم مواجهة لعمل الذي تقوم به على نطاق يكاد يعم لعالم . تلك القوى الحمية :

قوى تدار من مئات الأميال وآلافها ، وقد أدت إلى ظهور الانسان المشتت ، والوطن المحتل والرجال والنساء الذين يسلبون في أبشع غايات القهر كل صفاتهم وأنفسهم تقريباً . ولكن يبدو من المحتمل أن هذه التجربة قد عولجت كثيراً في شكل وهم أو خرافة تتناول المسألة منفصلة عن ظروف اجتماعية : مسرحيات بيكيت وباينتر ، وروايات كامو ، وقصائد الغراب لتيد هيوز ، لأن الفلاسفة قد عالجوها – أي التجربة – معالجة مجردة إلى حد كبير .

فالفكر والأدب في هذه الحالة الثانية اذن غير متواشجين . أي فرعين اثنين من بين كثير من فروع جذر واحد . ان الفكر قد ساعد على الصياغة المسبقة لكيفية أخذ الكتاب للتجربة عندما تأتي ولكن أمثال هذه الحالات حسب معرفتي تفوقها عدداً تلك التي يكون التطور الأدبي فيها جزءاً من عملية ثقافية كاملة مسبية تاريخياً وفيها لنظرة العالمية عامل واحد من بين عوامل كثيرة ، وليست محركاً رئيسياً أو رأس نبع .

طبيعي أن الافتقار إلى نظرية تاريخية مرضية لا يمنع من العمل البالغ القيمة الذي يفسر كيف أن الأدب تطور في مراحل معينة . ويمكن اختصار هذه النقطة إلى أقصى حد بالقول ان كتاب ليفيز « إعادة تقويم » هو التاريخ الوحيد للشعر الانكليزي الذي أجده مفيداً عندما احتاج إلى شيء أكثر من الحقائق والاشارات. في هذا الحقل نفسه ثمة كتاب آخر هو « الصراع الرومانتيكي » تأليف رودوي وهو يوضح جيداً كيف يستطيع ناقد أن يبين بجرأة الأسباب التاريخية للتطور في لأدب بدون أن ينتقص من تمييزه ناقداً . ان الفصل الافتتاحي من الكتاب

هو سرد تاريخي متصل لسبب ظهور الشعر الرومانتيكي بالشكل والزمن اللذين ظهر بهما ، ومنذ البداية يتضح أن هذا الناقد هو على دراية تامة بنوع التفسير الذي يقدمه :

« لانكاد المصادفة تقضي أن كل أولئك الذين كانوا بالغي الرشد في انكلترا بين ١٧٨٩ و ١٨٣٠ وذوي عبقرية شعرية سوف يولدون بمزاج رومانتيكي بينما عبقرية ١٦٨٩ إلى ١٧٣٠ ولدت أوغسطية . نحن مضطرون إلى الاستنتاج أن الوسط ربما شجع نوعاً من العبقرية وحال دون آخر . إن الشكل الفني غير قابل للانفصام عن ظروف العصر » .

بوصفها بهذا الوضوح قد تبدو المسألة مبتذلة « مجرد فطرةسليمة » ومع ذلك فهي غير كثيرة العموم : ففي الحين الذي يلخص فيه ليفيز مثلا تلخيصاً معجباً الشروط المسؤولة عن الفرق بين الشعر قبل عودة الملكية ، والشعر بعدها يصمت عن الأسباب المعادلة لظهور الرومانتيكيين حتى إنه ليستطيع أن يعد أحسن مالدى شلي تلك القصائد الشديدة الثورية ، قصائد ١٨١٩ ، حتى بدون أن يشير إلى أن الأزمة السياسية في سنة حادث بتيرلو هي التي أنضجت أخيراً فنه .

وحين يأتي رودوي إلى الشعر نفسه نراه غير معرض لخطر الوقوع في التبسيط المفرط لكي يوافق أطروحة ، فهو يعرف الرومانتيكية بأنها شعر حرر حالات نفسية من بينها بعض حالات اللاشعور باعطائها من ثم منزلة الحقيقة » (ص ٣) ، وهو يوضح هذه الظاهرة كما يلي :

« لقد عمت الرومانتيكية حينما أخذ الإصلاح يبدو مرغوباً أكثر من الاستقرار

. . . كانت الثورة الأدبية عرضاً لصراع اجتماعي واسع الانتشار ولصراع نفسي عميق القرار متعلق به . ويبدو أن زيادة مفاجئة في الضغوط الاجتماعية قد أنتجت زيادة موافقة في قوة الشعر . لقد تمرد الكتاب الرومانتيكيون المتأخرون (أي المتأخرون عن تشاترتون ، وسمارث ، وكاوبر) بتطرف على مجتمعهم لأنهم اشمأزوا منه . وقد أثار هذا صراعاً جريئاً متفحصاً للقلب أعمق وأكثر مباشرة من أي شيء أدخله أسلافهم على الشعر » (ص ١٣ - ١٤)

وهذا ينطوي على فكرة حيوية للمنهج التاريخي هي أنه لا ينبغي أن يظن أن الاجتماعي والنفسي هما كيانان منغلقان أحدهما عن الآخر . إنهما وجهان لحالة إنسانية واحدة ، والانتباه المرن نفسه إلى الوجهين « الاثنين » يعمل أيضاً في وصف رودوي لفترة ما قبل الرومانتيكية ، فترة الحساسية ، التي يفسرها بأنها « عاطفة عير هادفة تبدو بلغة علم النفس وكأنها دليل على الذنب وبديل للإصلاحية» (ص ٢٢) . ومن ثم تحدد الفترات أو الموجات داخل الفترة الرومانتيكية بوضوح هو تاريخي وأدبي على السواء ، فسنة ١٧٨٩ تقف بصفتها تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ أشعار بليك (أغاني التجربة) ، و ١٨٢٤ تاريخ موت بايرون وتاريخ الغاء قوانين التجمع ، والسنوات بين ١٨٠٤-١٨١٥ يراها سنوات سكون : زمناً للإحياء الديني وبعض الآمال في الاصلاح وإطلاق العاطفة ضد العدو المكشوف الآن أي فرنسا ، وبالمصطلح الأدبي يسمي رودوي هذه الفترة « فترة أشباه الرومانتيكيين » مثل مور ، وكامبل ، وسكوت « التقليدي » ، وكن من الممكن أن يزيد على ذلك أنها ميزت أيضاً في الواقع نهاية وردزورث كقوة خلاقة ، وهو يرى طغيان الحكومة المتجدد ومناضلته من ١٨١٥ إلى ١٨٢٤

فترة « حرية لم تُنَلْ » تميزت بشعراء « الرؤية الأوربية » – بايرون وشلي اللذين خنقا الآن كولريدج وور دزورث كموهبتين قادرتين على صنع إبداعات في الفن رفعت من استجابته لتغيرات في التجربة المعاصرة .

إن هذا يبدو لي نموذجاً يحتذى في كيفية تفسير فترة ما ، وهكذا ينبغي أن يكون (وهو بالتأكيد ليس كذلك) ذلك النوع من الأشياء الذي يجب أن يضعه الرأي الأدبي أمام رؤوس أصابعه ، والمراد بالرأي الأدبي هو الطلاب والمعلمون والنقد والقراء المعنيون بصورة عامة . إنما ثمة شيئان اثنان فقط يجعلانني أخشى أن أعمالاً تفسيرية فذة كهذا قد تخفق في تحقيق التقدم الذي تستحقه : أولهما ميل رودوي أحياناً إلى فقدان رؤيته ، الواضحة في العادة ، كيف أن التاريخ يقرر الأدب فهو مثلاً يجادل أن الفترة من ١٧٦٠ إلى ١٧٩٠ « تجعل الرومانتيكية ضرورة نفسية ولكنها فيما عدا ذلك لاتذهب بتعبيرها أبعد » فقد كانت ثمة قوى علاجية هدهدت الناس – المتنفس الذي قدمته المنهجية Methodism وبروز حكومة مجلس الوزراء التي بدت وكان من الممكن أن تكون كبحاً لاوليغاركية مُلاّك الأرض ولكنه من ثم يُعشي هذا باستطراد فيقول . « مهما يكن فإن أهم هذه الأسباب هو حقيقة أنه ليس لدى الشعراء نظرية فلنقل لذلك إنهم لايعرفون أنهم رومانتيكيون » (ص ٢١ – ٢ ، ٣١) . وهنا يتضخم خطأ جعل الايديولوجية سابقة لأنه يستدعي السؤال : لماذا لم تكن لديهم نظرية أي وعي متطور بأنهم « كانوا يتكلمون من أجل قضايا كبيرة » (كما يقول رودوي فيما بعد) ؟ بالتأكيد لأن الأسباب نفسها كانت لاتزال كامنة ، بذورا قريبة من السطح . ان انعدام النظرية لدى الشعراء – حقيقة أن مقدمة (القصائد

الغنائية) لما تكن قد كتبت – هو نفسه عرَض مرضي لمجتمع لايزال يهدهده الإحساس بأن التغيرات الجزئية تكفي .

والسبب الثاني لرغبتي في أن تكون قوانين التطور الأدبي أوضح مما هي عليه حتى لدى رودوي (أو بفيز) هو أنه إذا لم تعط هذه المسألة مكانة جدية في الرأي الأدبي فسيستطيع الناس دائماً لقول : « حسناً ! بلى ! بالطبع إن هذه المدارس تتكون من حين إلى آخر من الكتّاب الذين يندمجون في الحركات الاجتماعية حتى ليمكن تفسير عملهم تاريخياً » وتشطب التاريخية كأنها جدل دائري في أحسن الحالات ، وحتى في هذه الحالة فهي ذات تطبيق محدود . إذا كان ثمة من أرثوذكسية في الدرسات الأدبية فإنها هي هذا التعصب اللاتاريخي أو المعادي للتاريخية وكما يصوغ المسألة ويليك ، و . وارن ، ثمة نوعان من المؤرخ الأدبي : أولئك الذين « يعالجون الأدب كمحض وثائق من أجل إيضاح التاريخ القومي أو الاجتماعي » وأولئك الذين يعالجونه بصفته فناً ولكن « يبدون غير قادرين على كتابة التاريخ . . يعوزهم كل مفهوم للتطور التاريخي الحقيقي » .

يبدو في الحقيقة أن هذه الحالة منتشرة تماماً خارج الأدب ففي مقال كارل مانهيم « استطراد حول تاريخ الفن » يقرر أنه في حين أن مؤرخي الفن المحدثين قد انتقلوا إلى مفهوم أوسع لتاريخ الفن بصفته وجهاً من وجوه الترنيم الديني والفلسفي للأفكار » فإنهم لما « يتقدموا بعد إلى المسائل الرئيسية لتاريخ الفن » –

« من هو الذي سُجّلت عقبيته بأعمال فنية معينة ؟ . . . ماهوالعمل والمواقف وماهي الاختيارات الضمنية التي تهيء آفاقاً يدرك بها الفانون ويمثلون وجهاً ما

من وجوه الواقعية ؟ إذا كانت الأعمال الفنية تعكس وجهات نظر ومعتقدات وتأكيدات فمن هم الشخصيات ومن هم الخصوم ؟ ومن هم الذين تنعكس إعادة توجيههم في تغيرات الأسلوب ؟ إن أمثال هذه الأسئلة لاتبرز ضمن النظرة التجزيئية للأعمال الفنية ، والفراغ المفهومي بينها سيغطى فقط ، ولكن ليس بجسر ، بهذه المفهومات التقليدية مثل روح العصر »

في حقل الأدب نرى أن أكثر الأعمال المحكمة الجدل التي تثار فيها مسألة التطور الأدبي إما أن تفسره من خلال نفسه كُلِّيَّةً – فهي تُبسطُ وإما أن تعالج المنهج التاريخي مماحكة بطريقة الرافض له . ولدينا هنا مجال لمناقشة تعصبية لواحد من كل من النوعين : جوزفين مايلز حول تطور الشعر ، ودايانا سبيرمان حول تطور القصة .

وللسهولة يجب أن يمثل كتاب مايلز الذي هو بالغ الفوضى بعض الأوساط على الأقل بمقال واحد منه هو « العصور في الشعر الانكليزي » وفيه تستخدم الكاتبة طريقة قريبة من طريقتها في أعمال أخرى لها مثل (العصور والأساليب) و (استمرار اللغة الشعرية) . في بداية المقال تلاحظ أنه « لاالعبارة ولا الوزن وحدهما فيما يبدو يوفران نموذجاً منتظماً انتظاماً يكفي لتحديد تغير » ولكن بنية الجملة « تكشف فعلاً عن نموذج تعاقبي » وأنماط الجملة عندها هي : اسمية أو نعتية : فيها نعوت أكثر من الأفعال ؛ فعلية : الأفعال أكثر من النعوت ؛ ومتوازنة بمعدل فعل واحد لكل نعت في السطر الواحد ، وبتطبيق هذه المعايير في إحصائها الدقيق . لاشك، للكلمات عند الشعراء البريطانيين والأميركيين بين

١٥٠٠ ـ ١٩٠٠ تجد سلسلة من أربع مجموعات ، واحدة في كل قرن « كل منها بدئت بتطرف وانتهت بتوازن » (ص ـ ٨٥٤ ـ ٨٥٨) ، وما يكاد هذا يحوّل إلى دقائق معينة حتى تظهر الشكوك ، فمثلاً تقول : « إن بعض الحس الشعري للقرن يبدو غير قابل للإنكار » ومع ذلك تقول عن القرن الثامن عشر إنه بدأ ببراير ، وتومسون (ص ٨٥٥) ، ونحن نعلم أن تومسون شاعر الفصول لم يكن قوة في الشعر (إذا كانت « القوة » هي الكلمة الملائمة لعمل يضعفه التكلف إلى حد كبير) حتى سنة ١٧٣٠ . ولما كان بليك وبيرنز قد أصبحا معدودين في الشعر مع سنة ١٧٩٠ ، وأصبح بيرنز بسرعة ذا نفوذ واسع فإن هذا يختصر القرن الثامن عشر إلى ستين سنة وهي سنوات ليست إطلاقاً لتدخل بدقه في القرن إياه . ومرة أخرى يفترض أن مرحلة التوازن عندها ـ ماتدعوه «التسوية والتأليف والتحويل الكلاسيكي لما جرى من قبل » ـ تأتي في نهاية كل قرن ، ومثلُها على القرن السادس عشر هو سونيتات شكسبير ، ولابأس بهذا من حيث التواريخ (مع أنه لايكاد يكون عينةً من أعمال شكسبير الرئيسية) ولكن مثلها على القرن التاسع عشر هو سوينبرن الذي ازدهر خلال جيل كامل قبل نهاية ذلك القرن ، فالقرون لذلك لاتنتهي كما يتوقع المرء بأن تكون مراحل فعلية في تطور الشعر .

والاعتراض الثاني يبدأ بخلق شكوك حول المبدأ وحول التفصيل . فهي تشير إلى « الطرف النعتي الذي يتألف من صفات هي ضعف الأفعال في منتصف القرن الثامن عشر » (ص ٨٥٩) : إنني أرى أن منتصف القرن الثامن عشر الذي يمثلنا هو The Dunciad الكاملة والأهاجي بعنوان « حول فائدة الثروة » ، وعمل جونسون (غرور) . ولما كانت هذه الأعمال لا تعطينا اطلاقاً الانطباع بأنها

نعتية فمن يمكن أن تكون الكاتبة نعني ؟ إن جداولها تبين أنها تعي جون داير كاتب (الصوف المجزوز) بإحصاء نموذجي ذي ١٣ نعتاً ــ ٢٠ ــ اسماً ــ ٨ أفعال وتومسون بإحصاء ١٥ ــ ١٨ ــ ٧ ــ ، وإحصاء بوب هو ١١ ــ ٢٠ ــ ١١ وجونسون هو ١٠ ــ ٢١ ــ ١١ (ص ٨٧٢) . ويبدأ الأمر يلوح كمالو كان شعراء « التوازن » في هذه العينة هم أحسن الشعراء وأن اشعراء النعتيين هم أقل دينامية وتنوع مواهب ، وتدقيق بقية الجداول يؤكد هذا ؛ فالشعراء الذين هم متوازنون أو فعليون هم : دون ، وهربرت ، ويات ، وجونسون (Jonson) ، وتشوسر ، وبوب ، وجولسون (Jolson) ، وبيرنز ودرايدن ، وهوبكنز ، وييتس ، وت . س . اليوت ، والشعراء النعتيون هم داير ، وتومسون ، وسبنسر ، وملتون ، وشلي ، وكيتس ، وتينيسون . وأما ضمن الشعراء الأفراد فأغاني (بليك) هي فعلية ، بينما (كتب النبوءات) نعتية . وهكذا فإن قصارى مافعل هو أن نتنج تأكيداً مضنياً بالإحصائيات لما أنا واثق أنه كان ممكناً قبل أن نفعل ذلك : إن اشعر الجيد يبدو حياً بالنشاط ، والتجربة تفرض نفسها في الكلمات بينما يكدّ الشعر الغثّ وراء أثره بتطبيق صفات تشبه اللصائق ، بوساطة نعوت ، على رؤية هي في جوهرها راكدة أو قاصرة ذاتياً .

فإذا تفحص المرء إذن طريقة جوزفين مايلز في التصنيف فإنها ستنتهي بأن تظهر مدى الحاجة إلى إبقاء الوجه التقويمي حياً مهما كان نمط التحليل الذي نقوم به . ولما كانت تعد تكرار كلمات رئيسية فإن صحة اكتشافاتها تتوقف على الشعر الذي تتناوله بالإحصاء .

يسمح للشاعر أن يدخل في شق واحد : فمثلاً يعد شكسبير من أجل سنوات ١٥٧٠ ــ ١٦٠٠ مما يترك القدر الأكبر من العمل الذي نتذكره به . ودون ينتمي إلى ماقبل ١٦٠٠ فقط مما يترك جانباً شعره الديني ، وأما مارفل فهو بين ١٦٧٠ ١٧٠٠ فقط من أجل قصائد (حول شؤون الدولة) : تلك القصائد التي هي بالضبط أقل شعره حظاً من القراءة ، ووردزورث هو بين ١٧٧٠ ــ ١٨٠٠ فقط أي إنه يمثل (بالقصائد الغنائية) وليس « بما يكل » « والأخوة » و « المقدمة » وأم ساسون ، وأودين ، وروزنبرغ فلا يدخلون البتة بالرغم من أن إدناسانت فينسنت ميلي ، وايديث سيتويل تدخلان . كليفلاند يدخل وأما بتلر فلا . روسكومون بلى ! وأما روتشستر فلا . وباختصار إن حكمها على القيمة ــ على الشعراء الذين يمكن أن يتخذوا التمثيل فترتهم ــ مقطوع الصلة بإجماع الرأي الأدبي المعاصر ، ومعيارها الآن في تنظيم قوائم الكلمات المفضلة المستعملة في كل فترة هو تكرر وقوعها في أربعة شعراء أو أكثر (ص ٨٦٨) . ولما كنا قد رأينا قبل قليل أنها لاتختار الشعراء تبعاً لمبيعاتهم ــ وهو معيار موضوعي ولكن التثبت منه مستحيل في مجالات واسعة من الحقل ــ ولاتبعاً لمنزلتهم بحسب تقويم النقاد المعاصرين لهم ، ولما كان الشعراء الضعاف يقاسون على قدم المساواة مع الشعراء الكبار يتبع ذلك أنها في الحقيقة لاتقيس وقوع الكلمة في مساحة ثقافية ذات معنى . إن شاعرا رديئاً ، أو شاعراً جيداً لم يبقيا لسبب مارواجاً كبيراً سوف يقدمان حالات قليلة نسبياً قرئت فيها كلماتهم أو نطقت أو اقتبست أو أعيد طبعها وذلك بالقياس إلى الاستعمال الإجمالي في مجتمعهما في زمن معين ، وإن شاعراً ممتازاً واكبت سمعته منزلته ، أو شاعراً ضعيفاً نجح لسبب ما سوف يقدمان بالطبع حالات أكثر بكثير وعلى ذلك لم تقس جوزفين مايلز تكرر الكلمات الرئيسة

المستعملة في الشعر القيم من تراثنا ولا تكرر الكلمات الرئيسية في كل الشعر ، ولذلك يبدو أن من الواجب على الناقد أن يعمل بالطريقة المعتادة للتطور على أساس ذوقه هو ونظرته هو إلى التراث ومن ثم يقدم ذلك إلى القراء للاستخدام والاهتمام وإلا فينبغي له أن يصبح إحصائياً دقيقاً ولايقوم بمعالجة شيء أقل من جميع المعلومات في الوسيلة المعنية .

والجانب المتبقي من طريقة جوزفين مايلز حاسم لمناقشتي لأنه يتصل بتعريف العصور أي تحديد الخطوط الزمنية ، فلما كان الشاعر لايدخل إلا في شو واحد فهي لاتستطيع أن تأخذ بالحسبان آثاره الممكنة سواء بكونه شخصية انتقالية أو قوة تأثير معاصر تفرض نفسها على أكثر من جيل واحد من الكتاب ، وهي تقول أيضاً « يبدو أن الشعراء يستعملون بنية جملة واحدة . . . تسود خلال عملهم » (ص ٨٥٨ ـ ٩) ؛ وهكذا إذا كان وردزورث متوازناً بعد ١٨٠٠) كما كان قبلها (ولو أدخلت أفضل قصائده حتى ١٨٠٥ ، فقد كان من الممكن أن يفوق عدد الشعراء المتوازنين للمرحلة الأولى من القرن التاسع عشر عدد الشعراء الفعليين بمعدل ٢ ـــ ١ ، ومع ذلك فهي تعد هذه المرحلة فعلية . فهاردي هو بين ١٨٧٠ ـ ـ ١٩٠٠ فقط غير أن سمعته في ذلك الزمن كانت بصفته روائياً إن أفضل قصائده في الغالب ذات تواريخ ، وهذه التواريخ هي في الغالب بين ١٩٠٠ و ١٩١٢ . ولما كان هاردي فعلياً فإن وضعه في ١٩٠٠ ـــ ١٩٤٠ كان يمكن أن ينتج عدداً متساوياً من الشعراء الفعليين والشعراء المتوازنين في تلك المرحلة . ومع ذلك فقد أخبرتنا أن قرناً ما يكون على نحو نموذجي « مبدوءاً بطرف » فيصبح من الواضح أن العصور لايمكن أن تحدد ـــ ودعك من تفسيرها ـــ

بمثل هذه المعطيت أو مثل هذا التحليل لها أكثر من استطاعة شهود يهوه أن يبتوا بنهاية العالم عن طريق الشعوذة في الأرقام في سفر حزقيال .

كيف يمكن لكاتبة مدققة وكادة كهذه أن تخرج بنتائج سليمة بهذا القدر ؟ يبدو أن سبب ذلك هو أن نوع منهجها هذا يقودها على نحو لايقاوم إلى ايجاد منتظمات . كان ذلك سيسبب لها إزعاجاً فكرياً لو لم تفعل . ولكن كل ماعليها أن تصنع به النماذج هو لغة الشعر . ويبدو أن ليس ثمة من سبب أصيل في لغة الشعر يحتم أن تتجلى فيها النماذج طالما أنها تعالَج بمعزل عن أي شيء آخر . إنها ليست مادة متجانسة مثل الجليد أو الحامض النووي اللذين لايمكن أن يوجدا لولا النماذج المنتظمة . إن « الشعر » هو وحدة كثيرة الاختلاط إنه مصطلح يطلق على أشياء مختلفة في عصور ومجموعات ثقافية مختلفة . يمكن أن يستخدم ليشمل أشكالاً من الفلسفة والدعاوة والصلاة وجملة من أشكال ذات وظيفة مباشرة تتضمن ترنيمات الأطفال وأغاني العمل ، وأناشيد الحالة الجوية والنتف التي ترد في أعمدة « في ذكرى الأموات » في الصحف . ولما كان مختلطاً هذا الاختلاط أو هجيناً هذه الهجنة فلا ينبغي أن نتوقع أن تكون ثمة طائفة من القوانين التي تطبق عيه وحده أو يمكن أن تشتق مه وحده .

ولما كانت طبيعته الهجينة تنجم عن التقاطع مع الوسائل والمواد الأخرى من نوع « غير فني » أو ذي وظيفة اجتماعية مباشرة فلنتيجة هي أنه مهما تكن القوانين التي نستطيع أن نجدها للتطور الشعري أو التطورات الأدبية الأخرى فينبغي لها أن تعترف بهذا بتضمين عناصر تمثل الكيان المتكامل للأدبي ، والتاريخي

الاجتماعي (انظر نهاية المقال هنا من أجل « القوانين » التي اقترحها .) وكما يقول مانهيم : « إن المجتمع وحده كمتحول ذي بنية هو الذي له تاريخ وفي هذا الثابت الاجتماعي فحسب يمكن للفن أن يفهم على الوجه الصحيح بصفته كياناً تاريخياً » .

وأما كتاب دايانا سبيرمان « الرواية والمجتمع » (لندن ١٩٦٦) فهو تحدٍ أشد للمنهج التاريخي إذ يكاد يكون مرجعاً لكل تلك الطرق والنقاط المعنية التي يجب على المرء أن يواجه أو يدحض إذا كان يريد أن يحافظ على موقف من يرى أن قوانين التطور الأدبي تشمل بالضرورة التاريخ . وخطوتها الأولى هي أن تتمم معاً من عدة نقد شكلاً مبسطاً — ومن هنا ضعفه — من النظرية التاريخية للرواية المبكرة في بريطانيا حتى إنه ليبدو « نوعاً من البيان الطبقي » (ص ٤٩) . ثم تحاول أن تبين أن روايات ديفو ، وفيلدينغ ، وريتشاردسون لم تكن بصورة خاصة من أجل الطبقة الوسطى ولا عنها ، ولا كان يوم محدهم يوم مجد أيضاً للطبقة الوسطى . وقبل الدخول في تفصيل هذا ثمة نقطتان من بين الافتراضات التي تطلقها في المقدمة تحتاجان إلى معالجة . أولاً : قولها أن « التأكيد أن الأسلوب والمحتوى يتقررن بالسياق التاريخي..يخفق في أن يفسرلماذا يجد الناس..متعة بقراءة كتاب يتحدثون عن عالم مختلف إلى الحد الذي يجعل من غير الضروري أنندخلهم في المجال السياسي » وهي تستشهد بنوع التجربة الشخصية مثل Deja Vu الذي كان معروفاً في يابان القرن الثاني عشر كما هو معروف في مكاننا وزماننا نحن (ص ٣ — ١٢ — ١٣) . ليس عسيراً إيجاد التفسير ولست أدعي أنه تاريخي بحت . إن مايوجد في المجتمع هو عضوية ، حيوان ، نوع يدعى الإنسان

الأول الذي لم يكد يتغير عبر ملايين الناس ، وهكذا نستطيع أن نستجيب بمتعة أو دهشة إلى ثيران لاسكو أو بيكاسو أو قصص هومر أو لورانس . إن مايقرره « السياق الاجتماعي » هو تأكيد أنسجة معينة و نتخابها من تلك الطبيعة الكلية ، وإبرازها من خلال أساليب أو أشكال لغوية معينة . ثم تكتب السيدة سبيرمان أيضاً : « إذا كان الأدب مقيداً إلى وسط اجتماعي معين فكيف لايوجد أدب غير مفهوم لنا ؟ » (ص ٥) . إن التفسير الجزئي وللمرة الثانية ، هو أن نماذج نوعنا السلوكية وبيئاته لاتختلف تماماً عبر السنين ، كما نفسر هذا جزئياً أيضاً بأن فهم قطعة أدبية هو جزئياً أن نتعلم حقائق عن شرط – ربما مزاج وربما أسلوب حياة اجتماعي يختلف عن شرطنا نحن . إن المعلومات التي نحتجها لنجعل للعمل معنى تأتينا في العمل التخيلي نفسه من الواضح أن هذا لاينفي الاجتماعي لأننا بتكييف استجاباتنا لما يبدو في القراءة الأولى تقليداً غريباً ننفذ برؤيتنا ، في الوقت نفسه وبهذه العملية نفسها ، إلى المجتمع الذي كان قد احتاج في البدء إلى خلق هذه الوسيلة الفنية . وأخيراً تكتب : « إن استمرار موضوعات معينة يبدو أيضاً صعباً على الفهم » (ص ٥) أي إذا كان الأدب نتاجاً لمجتمعات معينة . إن استمرار الدوافع والموضوعات (ومثلها هو الأساطير الآرثرية) يمكن أن يفسر بالاستمرار النسبي للطبيعة البشرية بينما اختلاف المعالجة الذي يجعل مالوري وتينسون فنانين شديدي الاختلاف يعود فرضاً إلى نوعي الجمهور المتباينين تماماً ، وإلى دور الفنان الذي اقتضته ثقافتا أواخر العصور الوسطى وبداية الفترة الصناعية .

فالشكل المحدد لأطروحتها المعادية للتاريخية هو إذن أن تدحض الفكرة

المقولة عموماً فكرة أن مجتمع القرن الثامن عشر في انكلترا قد أنتج أو صاغ بطريقة ما رواية القرن الثامن عشر (ص ٧) فهي أولاً تجد ما هي حالات واضحة حقاً من الروايات قبل القرن الثامن عشر بزمن مثلاً دونكيشوت ، ومن ثم تجادل بأن الرواية النثرية الطويلة لايمكن أن تكون نمواً متميزاً لعصر ديفو بالطبع كانت ثمة سوابق ـ ودائماً ثمة سوابق ـ منذ أن كان مجمل التطور الإنساني كامناً أو محتملاً في بدايات النوع ، ومهما تكن السمات الثقافية التي تختارها فإننا نجد حالات من النتاج « الحديث » زمناً طويلاً قبل عصرنا ، فقدوجد نظام المجارير البلدية والبيوت المؤلفة من طابقين مع حمامات في وادي المندوس منذ قرابة خمسة آلاف سنة . وكذلك في الأدب : لقد كان في كريت في العصر البرونزي وفي يابان العصور الوسطى قصص واقعي ، ومع ذلك فلم تكن تلك عصوراً للرواية لأن القصص النثري للحوادث اليومية لما يكن قد أصبح عاماً بينما تأخذ الرواية قرابة ـ ٥٠٠٠ ـ من أصل ـ ٢٢٠٠٠ ـ عنوان تنشر سنوياً في بريطانيا . وهذه النقطة هي في الحقيقة لب المناقشة بين التقدميين والمحافظين وهذا يعني أيضاً التاريخيين والتجريبيين . فالدفاع العام ، مثلاً ، عن الثورة الصناعية رداً على تنديد أنجلر وماركس والهاموندين وغيرهم هو أن آثارها لم تكن في الواقع رهيبة جداً ، وعلى أي حال لم تكن هنالك ثورة صناعية . ويأتي ج . ي نيف مؤرخ صناعة الفحم بأرقام ليبين أن استخراج المعادن كان صناعة أكثر إنتاجية ورأسمالية في أيام تيودور مما كان يعتقد . لاشك . ولكن ما لم يفعله نيف قط ولن يفعله البتة هو أن يبرهن أن العمل الآلي كان في أي وقت قبل ١٨٠٠ على المقياس الذي استطاع أن يحول في كاملة حياة الأسرة وعادات العمل والمستوطنات وتوزيع

السكان . ان السوابق الرئيسية في انكلترا التي تحاول سيرمان أن تبرهن بها أن الرواية لم تكن بالتخصيص شيئاً ينتمي إلى القرن الثامن عشر هي القصص الغرامية النثرية ولاسيما (موت آرثر) لمالوري بوسطها الواقعي نسبياً وحوارها وتفصيلات السلوك ، ولكن كان عليها نفسها أن تلاحظ أنه ! « لم تجتذب أي من القصص الغرامية الواقعية جمهوراً كبيراً » وأنه لا مالوري ولادي لاسال (كاتب القصة الغراميـــة الفرنسية الرئيسيـــة Petit Jehan De Saintre) حظي بجمهور كبير » (ص ٨٤،١٠٠) . وباختصار كان الوضع حوالي ١٥٠٠ كما يلي : لقد سبق للناس أن كانوا ميالين إلى إيلاء بعض الانتباه إلى قصص ذات تجارب محتملة أو ممكنة ، ولكن افتتانهم بالوهم سواء في الشكل الديني أو الرومانتيكي أو البطولي كان لايزال يطغى على هذا الميل .

وأما طبيعة القرن الثامن عشر بصفته عصرا فان على سيرمان أن تشق على نفسها لتستنتج أنه لم يكن « بورجوارياً » بالتحديد (والتعبير لها) ؛ وهي تعني أن الأسس القديمة تبقى قليلة التغير في السياسة ، وليست هذه نظرة الثقات القياديين الذين يرون الفترة المتأخرة من القرن السابع عشر حداً فاصلاً . ، وأما عن عمل الأمة فبالطبع مازال القمح والصوف أكثرها في تجارتنا ولكن أصحاب المعامل (حتى بحسب أرقامها هي) كانوا يتوسعون على نحو أسرع ، وما يهم ثقافياً هنا هو . كما يحدث غالباً ، اندفاعة العامل الجديد الذي يبدأ بتغيير حس الناس بالإمكانات المفتوحة لهم . ويجب أن يكون هذا هو السبب في أن أرقى شعر أواخر القرن السابع عشر (ميدال) و (ابسالوم واكيتوفيل) لدرايدن يبلغ نقاطه المتوترة ، وعاقيد تصويره العضوي ، حينما

كانت لدى الشاعر رؤى الفوضى التي ولّدها الطين الغني من شريان لندن التجاري أي نهر التايمز . لذلك يبغ بوب بعد جيل الذروة في هجائه مساوىء الترف . ولذلك فإن « الإشارات إلى الشروط الاقتصادية . . . إلى المال أو الافتقار إليه، كانت تجد طريقها إلى كل مكان » في الأغنية الشعبية مع حلول الربع الأخير من القرن السابع عشر . ولذلك فإن الوسيلة الرائحة الجديدة أي المقالة تطلق في أهازيج عن الثروة عندما يستحضر اديسون (في عدد ١٩ أيار ١٧١١ من المتفرج « سبيكتيتر ») نوعاً من رقص السلع تكريماً لسوق الأوراق المالية .

إذن إذا كان حقيقةً أن العصر يتلون ويصاغ بالتجارة ، والناس يؤخذون بها فماذا كان الموقع الطبقي للروائيين أنفسهم ؟ وإليك طريقة سيرمن بالتعبير عما تعده النظرة التاريخية :

« من إشارات النقاد الأدبيين المستمرة إلى تفاؤل الطبقة الوسطى الصاعدة والأخلاق البيورتانية التجارية يمكن الفرض أن ديفو كان نموذجاً ناجحاً وصادقاً لرجل الأعمال . إن ديفو لم يكن في الواقع مخفقاً في العمل بل ان حياته كانت غير عادية إلى الحد الذي يجعل من المستحيل عده ممثلاً لأي طبقة » (ص ٢٩) .

وهذا يرتكب الخطأ الأولي ، خطأ إنقاص النموذجي إلى الوسطي لأننا بالتأكيد حينما نقول أن فلاناً هو « امريكي نموذجي » أو لندني حقيقي » فإننا نعني أنه يحوز بعض ما هو معدود سمات للمجموعة المعنية . ان ما ينتصب بارزاً في مثل ديفو والروائيين المبكرين الآخرين هو أنهم لم ينحدروا من قطاعات الشعب الأغنى أو الأقوى (النبلاء والأشراف) بل من تلك التي هي أقل ثروة من أولئك

وعادةً من الطبقة الوسطى . وفي فرنسا (كما تقول سبيرمان نفسها) كان النوعان الأولان للرواية هما الرواية الكوميدية والرواية البورجوازية اللتان « تعالجان حياة الطبقة الوسطى » . كذلك كان الروائي الألماني الأول جريميل شوسن مرتزقا (ص ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٨) ، ومن حيث أهداف الروائيين الواعية في بريطانيا اعترض فيلد ينغ وريتشاردسن على « المنزلة العالية للشخصيات » في الرواية الشعبية قبل عصرهما (ص ١٠٧) . وأما عن أصول الكتاب – التجارب التي كانوا قادرين على استيعابها خلال سنوات تكوينهم فإن الحالة المتغيرة للأمور تصبح واضحة إذا درس المرء ظروفهم الاجتماعية عبر الأجيال . إن جُلّ الكتاب « النموذجيين » المولودين بين ١٦٣٠ و ١٦٨٠ كانوا من النبلاء والأشراف والقسم الأعظم منهم دخلوا اوكسفورد وكمبريدج . وفي الجيل التالي الذي يشمل الروائيين الأوائل جاءت الأكثرية من أسر حرفية ذات أصل طبقي متوسط بصورة رئيسية ، وللمرة الأولى (في زمن قياسي يمتد راجعاً إلى سنة ١٤٨٠) دخل أقل من نصفهم أوكسفورد وكمبريدج .

وهكذا فالدليل من كلا التاريخ الاجتماعي والأدبي يوحي بأن رؤية القرن الثامن عشر فترة مجد للطبقة المتوسطة ليست تزييفاً بل هي الحقيقة . لقد كانت الثقافة التي انبثقت من هذا ثقافة أصبح فيها من الطبيعي بتزايد مطرد ألا يُنظر إلى التجربة تحت وجه الأزل ، بل على أرض الحياة الواقعية للمرء . وأما بمصطلحات التقاليد والوسائل الإعلامية فالاحتفال والغيبي والموروث والطقوس أخذ حظها يقل باطراد ان المقدس والنائي – كل ما كان حكراً للنخبة أو أصحاب الامتياز – صار أقل وهذا هو نمط التبدل في الأخلاق والنظم والوسائل الأعلامية الذي

يعنى به المؤرخ فهو لايقيد نفسه بعوامل معزولة عرلا اصطناعياً كالتجارة في ذاتها أو السياسة في ذاتها . إنه يعتقد مع ماركس أن القوة الأعمق الدافعة إلى التغير في التاريخ هي الصراع بين قطاعات من الشعب من أجل وسائل الحياة . وهذا مما يغيّر الثقافة ككل ، ونعني بالثقافة شيئاً ما مثله من جمهور الناس الحقيقيين المعنيين إلى حد كبير مثل شخصية المرء من جسده . ومن هذه الثقافة هذا لإطار الحديد للعقل ولعقود العادات – تبرز أعمال معينة هي على هذا النحو ممثلة لعصرها .

إن هذا – لاممنوحة – عام حتى لقد يبدو انه ليس إلا مجموعة من الكلمات التي يمكن بها للمنظر أن يلوي أي معطيات كيما تلائم انحيازه وهو بحاجة إلى أن يتحقق منه بعرضه بازاء أعمال معينة وأساليب معينة . وأما فيما يخص الأسلوب عند سبيرمان فان رواية القرن الثمن عشر تمثل عصر « البورجوازية » إذا عالجت تكرارا مسائل النقود والسير التجارية الوسطية وما يشبه ذلك فحسب . هذا هو مرة ثانية تكتيكها المبسط ولكنها في هذه الحال تثير نقطة لاحاجة إلى رفضها مباشرة . ولننظر في المسألة من كلتا الناحيتين العامة والخاصة . فبصورة عامة كان القرن السابع عشر بارزا في الشعر والنثر اللذين عالجا على نحو دقيق ، التمائي عالياً ، الموضوعات الأزلية – بل بدقة أكثر الموضوعات القديمة العهد للانسان في الكون ، وكان الكتّاب يميلون إلى أخذ ما دنهم من أي مكان وزمان ، وفي أواخر القرن السابع عشر ، وبوضوح أكبر مع حلول القرن الثامن عشر ، كان الكتاب ينزعون إلى خلق صورة من الحياة واقعية أو سهلة التعرف كما كانت هنالك وآنئذ ، لكي يلقوا ضوءا على المشكلات والمخاطر والأذواق

المتميزة لسلوكنا اليومي . ثم لننظر في المسألة بالتخصيص : قليل من النقاد من ينكر أن (مول فلاندرز) هو الكتاب الذي يستهل أو يضع الصيغة واللهجة الأوليين للرواية في ذلك القرن . ويبدو لي على السواء أنه لا مجال لإنكار أن (مول فلاندرز) يلخص أخلاقاً عملية في كل خيط من نسيجه سواء التشديد المستمر على الحافز الارتزاقي (مع استبعاد جميع الحوافز الإنسانية الأخرى) . والحركة المبتذلة من حدث إلى حدث (وهذا نموذجي من منتج التمثيلات المتسلسلة التي تعالج المشكلات المنزلية في أي عصر) ، وطريقته الصحفية في التوثيق بوساطة ظروف صغيرة . وإنه لعلى أساس مثل هذا النوع من الدليل الأدبي أن رأى نقاد من ذوي أذوق لإدراك في ديفو كاتباً « بورجوازياً » نموذجياً . وكما يقول ليزلي ستيفن : « يعالج ديفو في الأكثر موضوعات ملموسة جيدة يستطيع أن يزنها ويقيسها وينقصها إلى مويدورات و بيستولات » أو كما يقول ك . د. ليفيز :

« ان الجمهور الذي كتبت (روكسانا) له كان مغمراً في حلم يعطه مسبوك بعناية بحسب أهواء قلبه ، لكنه حلم يقظة سيطرت فيه الاهتمامات غير الرومانتيكية الصلدة ، ومن هنا التشديد في جميع الروايات على « المتاع المنقول » وقوائم البضائع المسروقة والغنائم ، والممتلكات بصورة عامة ، والتوازن المضني بين ما للمرء وما عليه في كل وضع ممكن ، والجرد العقلي الذي هو بديل لكل من النفسية والعاطفة ، ومثل هذا أيضاً التعليق الخلقي السائر . إن القارىء لايهتم إلا بما يمس حياته اليومية هو ، ومع كل الفرص لتوافر جاذبيات الكونت دي مونتيكريستو لايلاحظ المرء شيئاً من هذا القبيل في (روكسانا) ان المحطة المتوسطة في أيام ديفو كانت راضية . بطريقة حياتها هي ، وكان لديها من احترام

النفس ما يكفيها فلاترى سبباً للطمع في أبهات حياة أرقى » .

إن هذا أشد تركيزاً على الرواية نفسها من أي فقرة في كتاب (الرواية والمجتمع) وهذا هو السبب في قدرته في الآن نفسه على فهم الكتاب كوحدة قائمة في التاريخ .

وأما أنه يمكن أن تصاغ بالاعتماد على المنهج التاريخي قوانين مكتملة محققة باتقان وذات قيمة تنبئية فهو أمر لن نعرفه إلا بعد قدر كبير جداً من العمل يفضل أن يقوم به فريق ، فريق يضم مؤرخين اجتماعيين ونقادا إعلاميين مدربين في علم الاجتماع إلى جانب نقاد أدبيين . لقد استعملت في هذه المقالة كلمة « بدهية » بدلا من كلمة « قانون » التي هي أكثر مهابة ، ولكن هنالك ستة قوانين افتراضية صعتها بعد أن عملت بصورة رئيسية في الأدب البريطاني من القرن السادس عشر إلى الزمن الحاضر . وقد تستطيع الثبات لاختبار التطبيق العملي في مجالات مختلفة . وهذه هي :

ــ ان بزوغ نوع أدبي يحتمل أن يحدث إلى جانب بزوغ طبقة (مثلا في الثروة الوسطية ، في النسبة من السكان الذين ينتمون إليها) .

ــ ان أفول نوع (مثلا اضمحلال أسلوب وانحطاطه ، تقلص عدد الكتّاب الكبار الذين يعبرون عن أنفسهم من خلاله) يحتمل أن يحدث مع أفول طبقة (أي واحدة تحل محلها أخرى في نفوذها في الحكم)

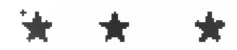
انه لمن المحتمل أن يلمّ نوع جديد أجزاءه من دوافع وأساليب ووسائط

اعلام كانت تخص وسيلة ما لم تكن لتؤحد على أنها فن بالمعنى الصحيح .

ـ يحتمل أن يقع مثل هذا الظهور في وقت اضطراب اجتماعي وتغير سريع .

ـ إذا تشابه تغير في الأدب وتغير في التاريخ (مثلاً التشديد على التحكم ، السعي وراء العفوية) فمن المحتمل أن تكون لأحدهما علاقة بالآخر ليس مباشرة بل بالتفرع من السبب نفسه بعيداً في التاريخ إلى الوراء

ـ ان مجموعات المؤلفات التي تنطوي على مشابه عائلية ، غير أن كتابها يختلفون في المنزلة والنظرة الاجتماعيتين إلخ . . هي مؤشرات ذات حساسية خاصة لتلمس ثقافتهم واتجاهها .



من الأدب المجري

الصّحافي والموت

قصة : غيولا كرودي
ترجمة : جورج صدقني

من هو غيولا كرودي ؟

غيولا كرودي (١٨٧٨ ــ ١٩٣٣) كاتب مجري آخر من الكتاب المجريين الذين كانوا، على ما يبدو ، جميعا صحفيين قبل الحرب العالمية الثانية . وكان ، مثلهم يتطلع الى باريس ، ويجد فيها البيئة الثقافية المثلى. كتب عن نفسه في سيرته الذاتية : « هربت من منزل والدي لاصبح صحافيا ، تدلهت بحب ممثلة من ممثلات الارياف ، وكنت سعيدا . كنت فنانا ، شربت، ولهوت ، واحببت ، وماذا حدث لي ايضا ؟ بشرفي، لست ادري ! »

وفي عام ١٩٦١ علمت « اللجنة الوطنية المجرية للاونسكو » على هذا ، فكتبت تقول :

« كانت هذه هي قصة حياته في الواقع . انه يتحدر في الاصل من طبقة النبلاء ، ولكنه كان ريفيا ، رغم انه قضى حقبة طويلة من حياته في (بست). ولكن ثمة في اعماله مكان .. لشعر الريف المجري ، وكذلك لصخب المدينة ، للشبان القرانين ، للنساء الجميلات اللواتي يدرن رؤوس الرجال ، للمقاهي الادبية ، لحمامات البخار وسباقات الخيل ولعب الورق ومواعيد

الغرام .. كان هائما على وجهه دائما ، تملؤه الاشواق والرغبات ، يطوف بالنساء وبالطعام رجلا يبشر بتفاهة الحياة !

« أطلق عليه أسم «بروست المجر» ، ربما لانه كان يبرز من حول ابطاله ... اختلاط بين الماضي والمستقبل ، هو السر المميز للكاتب الفرنسي الكبير ، ولان غيولا كرودي كان ـ هو ايضا ـ طول حياته ، وفي جميع أعماله يبحث عن زمان ضائع ، هارب ، يفلت من بين الاصابع .

« كتب كثيراً . وعندما كان يخسر في اللعب» أو في سباق الخيل ، كان يجلس في أحد المقاهي ، فيخلد بكتابات مرهفة مغامرات فرسان السباق ، والنساء الصغيرات ، والصحفيين الذين يشتبكون في مبارزات مع الضباط . ويوجد متعصبون لكرودي لديهم ما يتراوح بين مائة وعشرين ومائة وثلاثين كتابا من مؤلفاته .. من رواياته : ... العربة الحمراء ، البومتان ، زمان المرحوم شبابي ، ثمن النساء ، حياة كارمر ريزيدا الجميلة، رفيق السفر. واهم مجموعات قصصه القصيرة : سندباد ، الساقان المرفوعتان في الهواء ، الحلم والحياة ، قدح من العرق » .

واذا كانت قصة «النبيذ» لغيزا غاردونيي تتناول بالوصف حياة الفلاحين، فان هذه القصة (الصحافي والموت) تعطينا فكرة واضحة تكاد تكون تفصيلية ودقيقة عن حياة طبقة المثقفين ، أو الانتليجنتسيا المجرية ، من أوائل القرن العشرين الى ما قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية .

الصحافي والموت

حكمت إدارة (النادي) بالإعدام على الصحافي تيتوس سلاكي في القاعة التي اعتاد أعضاء النادي أن يعقدوا فيها اجتماعاتهم السرّية ، ومحاكماتهم الشرفية ، وجلسات هيئة المحلفين لشؤون المبارزات ، منذ أن تقاذف هؤلاء السادة ، في سالف الزمان ، في هذه القاعة ، وفي ختام حملة ترويحية أقيمت على شرف ألبير برنس دوغال ، زجاجات (الشمبانيا) ، وزعوا آلات الكمان و (الفلوت) من أيدي الغجر لكي يتضاربوا بها . في هذه القاعة ذات الذكرى المشؤومة لم يعربد أحد بعد ذلك أبداً ، بالعكس ، لقد وضعت القاعة في خدمة الشرف . هكذا تتحول حياة القاعات ، تماماً كما تتحول حياة الرجال الذين يقيمون فيها . وما من أحد يفوق القاعات في قلة الفطنة إلا النساء .

• • •

كان سيلاكي قد كتب عن (النادي) مقالة مقذعة : هوذا السبب الذي يجب أن يموت من أجله . اختاروا (ب. أو. ج.) من بين أعضاء النادي لتنفيذ الحكم ، وهو عقيد من سلاح الفرسان ، محال على الاستيداع ، ومعروف بأنه أحسن رامٍ في المجر . ولهذا كان مصير الصحافي مقرراً سلفاً . فلم يعد أمامه إلا أن يهب ممتلكاته الأرضية بهدوء – هذا إذا كان يملك أي شيء من الأشياء – فلن يعود بحاجة إليها في هذه الحياة .

تصرّف سيلاكي على مألوف عادته في ماسات المصائب العائلية التي كان يختلقها اختلاقاً : فأول مخطر بباله أن يطلب سلفة من جريدته . إن السلفة تصالح الصحافي مع الحياة ومع الموت .

وبعد أن قبض الصحافي سلفته ، غادر بخطى سريعة شارع (البيلسان) ، حيث ظل سنوات طويلة ، وهو يجلس إلى مكتب معادٍ ، يتصارع ، بأقلام سيئة وحبر ممزوج بماء ، مع جمل أكثر عداءً أيضاً ، جملٍ لم تكن تريد أن تأتي ، ولاسيما عندما كان سبلاكي يريد أن يكتب أحسن مقالاته . قرر سبلاكي ، وسلفته في جيبه ، أن يموت ميتة رجل من رجال المجتمع . فنرَ الآن كيف تحوّل سبلاكي أمام الموت — الذي كان يمكن أن يتمناه — إلى رجل من رجال المجتمع .

* * *

ينبغي ، قبل كل شيء ، أن يتزوّد بقبعة لائقة للمناسبة ، لأن قبعة صاحبنا الصحافي ، بسبب حياته ، التي هي حياة إنسان « ليلي » — طالما أن أحداً لم ير هذه القبعة على كل حال — بدأت (أي قبعته) تصير إلى حال معظم تلك القبعات ، التي اعتاد الناس أن ينسوها في المقاهي تسديداً للحساب . ينجو الزبون بجلده ، وتشيخ القبعة في انتظاره . ونادراً جداً أن يعود أحد في طلب قبعته ، بعد أن يبتعد بحجة « مشوار » قريب . كان سبلاكي يتزوّد بقبعاته ومظلاته وعصيّه من المقهى دائماً — لابطريقة تمسّ الشرف ، أبداً ! — بل ، بكل بساطة ، بواسطة أولغا ، محاسبة الصندوق في المقهى ، الذي كان سبلاكي يتخذ منه مقرّاً له كل ليلةٍ . لا يذهبن بكم الأمر إلى سوء الظن بصداقة أولغا وسبلاكي . كل ما في الأمر أن الصحافي كان يقف إلى جانب الصندوق ، شأنه في ذلك شأن هؤلاء « الليليين » الآخرين ، الذين

يقضون حياتهم في المقهى . كان يبقى واقفاً ، يروي لأولغا كل ألوان الأقاويل ، التي سمعها في إدارة التحرير . وهذه المحاضرات جعلت أولغا تعرف عالم السياسة كله ، كما تعرف عالم الأدب على حدٍ سواء . وبالمقابل ، لم تكن أولغا تعرب عن أي اهتمام خاص بهذه الشخصية أو تلك من الشخصيات ، التي كان سبلاكي يروي عنها حكاياتٍ لاتنفد . كذلك لم تكن أولغا تدهش عندما تضطر ، في بعض المواقف التي لامفر منها ، إلى أن تكفل هذا الصحافي أو ذاك — وتكفل سبلاكي كذلك — وتجعل الخادم ذا اللحية الامبراطورية يقدّم لهم — عند الاقتضاء — العجّة ، والجامبون ، والنخاع بالخل ، والسردين ، والمقانق بالخردل ، وأقراص سجق السلامي ، والشطائر بالزبدة ، وسمك الرنكة بالبصل ، واللحم والسجق المدخّن ، وجميع أنواع الأطعمة ، التي تعوّد الصحفيون المفلسون أن يتغذوا بها .

كذلك لم تدهش أولغا عندما أخبرها سبلاكي برزانة شهيدٍ من الشهداء ، وهو يضغط قبعته تحت إبطه هزيلاً شاحباً ، بأن سوء حظه أصبح أمراً لامفرّ منه ، وأنه مضطر أن يموت شاباً تملؤه الآمال ، دون أن يتمكن من إنجاز العمل العظيم ، الذي لم يفتأ يحلم به — شأن الصحفيين العريقين — في أوقات الشدّة ، والذي كان يأمل في أن يؤدي إلى تحسين حظه ، وهو العمل الذي لم يكن قد بدأ به بعد على كل حال ، رغم الإشاعة التي روّجها ، وهي أنه يعمل فيه إلى ساعة متأخرة من الليل . توقف سبلاكي بلحيةٍ غير حليقة ، وشفتين بنفسجيتين ، وعينين غائمتين ، إلى جانب عرش أولغا ، كان ينتظر من أولغا نوعاً من المعجزة ، كما يتشبث الغريق بقشة . مع ذلك ظلت أولغا غير مكترثة أبداً ، نشاها ومعطفها وقبعتها ، التي كانت كلها مدلاة هناك ، في متناول يدها ، احتياطاً

للحلات التي قدتُضطر فيها إلى الفرار أمامزبن سكارى. أية صداقة فائقة كانت هذه المرأة — مع ذلك — تعرف كيف تديها في ظروف أخرى ، وفي أمور صغيرة ، بشأن تأمين السجائر التي تمس الحاجة إليها ، أو (البخشيش) الذي ينبغي أن يُدفع للبواب ! وعندما أمعنت النظر في الموقف ، الموقف المميت الذي كان تيتوس سبلاكي يتخبط فيه ، لم تخفِ — مع هذا كله — ابتسامة خشنة ، أرفقتها بحكمٍ مرّ أطلقته على حظها هي نفسها . قالت :

— لابدّ من الموت بطريقة أو بأخرى .

فقال المحكوم بالاعدام ساخطاً : — ولكن ليس بقبعةٍ مثقوبة كهذه !

كانت أولغا امرأة من الجنوب ، ذات مزاجٍ سريع التقلب ، فلم تلبث أن غلبت عليها طيبتها الطبيعية ، وهي تتفحص قبعة سبلاكي . قالت ، وهي تقلّب القبعة في يديها بانتباه أنثوي . « إنها غير صالحة للاستعمال حقاً ! حتى إنه لا يمكن كيّها ! » ثم غادرت عرشها ، واتجهت نحو ركن صغير يضع العاملون في المقهى أشياء متنوعة فيه .

عادت أولغا من الركن بقبعة صيد خضراء ، وبنوعٍ من « المظلة —العصا» . وأخذت تنفض الغبار عن القبعة . كانت مزينّة بصدفة وبقنزعة من « الشاموا ».

— لقد تركها ربون وعد بأن يمضي إلى نهر الدانوب لايلوي على شيء . جرّبها ياتيتوس .

لبس سبلاكي القبعة ، وتفحّص نفسه في المرآة بضع لحظات . أمعن النظر

في نفسه بدقة . أعجبته القبعة . لكنه لم يكن يستطيع أن يعترف لأولغا بذلك ؛ ولهذا أعرب عما في نفسه كما يلي :

– هذا غريب ! تذكّرني هذه القبعة بمدينة صغيرة في الريف ، قضيت فيها ردحاً من الزمن في طفولتي . كان الرجال الذين يلبسون قبعات من هذا النوع ، بوجه عام ، يلبسون سراويل خضراء . يمشون مثنى مثنى ، وعلى ظهورهم جميع أنواع الأسلاك الحديدية ، والسكاكين التي تطقطق .وكانت الكلاب تأخذ في النباح كالمسعورة،عندما تراهم وتشم رائحتهم . ذلك أنها تكون قد شمّت رائحة دم الحيوان التي تفوح منهم .

صاحت أولغا : – الخصّاؤون !

ونظرت بدورها إلى القبعة نظرة ساحرة ، لأنها ، هي الريفية ، تعرف هؤلاء الجوّالين الذين يحرمون الحيوانات قدرتها الجنسية . وقالت :

– أضمن لك يابيتوس أنه ليس لدى أي واحد من زملائك قبعة تضارعها. ستمتلئ وجوههم بالبثور حسداً عندما يرونك بهذه القبعة سبق أن طلبها رئيس تحرير (الكونكورد) مني ، لكنني لم أعطه إياها . كان بودّي أن أتوج بها هامة شاعر جديد شاب يتفجر موهبة ، ولكن لايوجد في أيامنا شعراء موهوبون .

لم يخلع سبلاكي قبعة الصيد ، لأنه ظن أن هذا يضفي عليه هيئة نبيل ريفي . كان واقفاً هناك وقفة مرحة ، وكأنما تلاشت من قلبه في تلك اللحظة الوطأة التي يشعر ، منذ ساعات ، بثقلها إلى حد الاختناق .

ومدّت أولغا المظلة نحوه ، وقالت :

– قل لي بانيتوس ، هل رأيت في حياتك صحافياً في بودابست يملك مظلة مثل هذه ، تستخدم عصا في الوقت نفسه ؟

والواقع أن سبلاكي بقي مذهلاً تماماً أمام العصا العجيبة ، التي يمكن أن تتحول إلى مظلة في حال تبدل الطقس . وعلى الفور جرّب المظلة ، وحملها فوق القبعة .

– المهندسون الزراعيون القدامى هم الذين تقدّم إليهم ، في العادة ، مظلات من هذا النوع على سبيل الذكرى ، بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على خدمتهم . . .

أجابت أولغا : – بودّي أن أصدّق ذلك .

– أو كذلك هؤلاء الأزواج البورجوازيون ، الذين يكونون قد تلقوا ، بعد سنوات طويلة من الزواج ، مجموعة كبيرة من الهدايا الصغيرة من زوجاتهم ، في أعيادهم أو أعياد ميلادهم ، حتى أصبح لديهم ، في نهاية المطاف ، كل مايلزمهم ، حتى مجموعة من أدوات التدخين . إن كيسي ، أنا مملوء بالتبغ طبعاً .

لم يكن تيتوس ، وهو يقلّب هذا الشيء الثمين بين يديه ، يتكلم دون انفعال . كان وجهه متجهماً ، ولكن بارقة من الأمل أخذت تلمع في عينيه ، لأنه استشف احتمال بقائه بالمصادفة على قيد الحياة بعد المبارزة ، ووصوله أيضاً إلى تحقيق شيء من الأشياء ، بعد أن أصبح يملك القبعة الخضراء العظيمة و « العصا – المظلة » .

• • •

عندما خرج تيتوس من مقهى (فيرنتس) قال في نفسه : « إن أولغا هذه امرأة طيبة ، مع ذلك » . كان على بعد مائة فرسخ من الرغبة في توجيه خطاه نحو إدارة التحرير في شارع (البيلسان) ، رغم أنه كان من الممكن أن يحدث هناك أثراً عميقاً بهذا الزي الجديد . فقد كان يمكن أن يتعرض ، بالمقابل ، لخطر أن يجد نفسه وقد عهد إليه رئيس التحرير النكد أمر العناية بترتيب أخبار وكالات الأنباء عشية وفاته على وجه التحديد . الموت أفضل من رؤية أخبار الوكالات هذا المساء بالذات . فقدان الوظيفة أفضل من العمل في هذا المساء ، وهو يملك القبعة الجديدةو «العصا – المظلة » . مثل عبد شقي ! سيكون نوعاً من الانحدار أن يأخذ مكانه ، في مثل هذه اللحظة ، في إدارة التحرير العفنة هذه ، فيطلب شغلاً ، وينهمك ويصطنع مظهر سيد في عجلة من أمره ، يريد أن يجد شيئاً يعمله ، ويحاول أن يكون نافعاً بأي ثمن ! تلك كانت عادة من عادات أولئك الصحفيين البلهاء ، الذين لم يجربوا شيئاً في الحياة – بل الذين لم يشتبكوا قط في مبارزة بالمسدس ، في مكان ما في الضواحي ، على ضفاف الدانوب قرب (لادعيمنيوش) ، حيث تتابع الطلقة . على كل حال ، طريقها إلى الدانوب – هذا إذا كانت المسدسات محشوة على ما كان يرويه شهود المبارزات في الماضي .

كانت دقات الساعة تعلن العاشرة في ساحة (الكابوسين) ، عندما انجسبلاكي – بضغط دافع داخلي لايقاوَم – بخطاه نحو (النادي الوطني) ، حيث كانت هيئة محلفي الشرف قد نطقت حكمها عليه بالإعدام .

لم يخاطر من قبل بتفحص هذا البناء المؤلف من طابق واحد من طراز

القصور الإقطاعية ، إلا من الجانب الآخر ، من شارع (هتفان) . كانت العربات تدخل من الباب الخارجي المفتوح على مصراعيه ؛ وتتوقف دواليب العربات ، وهي ترتج ارتجاجاً ، أمام السلم المغطى بالمخمل الأحمر ، ثم تدخل العربات إلى نهاية الساحة . وما أن يهبط هؤلاء اسادة منها ؛ حتى يصفق حاجب المدخل دو الملابس الحمراء الكرزية باب العربة . ويتأرجح المصباح الكبير المدلى من القبة ، وتدور العربات حول نافورة الماء في الساحة ، ثم تخرج من الباب الجاني المؤدي إلى شارع (بلرو) . كانت نوافذ النادي مظلمة ومغلقة ، فكأن أحداً فيه لايحتاج إلى الهواء . ومع ذلك فقد كانت ليلة دافئة من ليالي مطلع الخريف ، حيث الهواء مشحون بغبارٍ كالنجوم .

لبد صاحبنا تيتوس تحت أحد أبواب الخروج زائغ البصر يتأمل البناء الكالح ، حيث لاحساب للحياة ولا للموت ، فكأن السادة البارزين ، الذين يرتادون هذه الأمكنة المغلقة ، يعرفون كيف يعيشون ويموتون على نحوٍ مغاير للآخرين ! ماذا يمكن أن يحدث ، مثلاً ، لو اجتاز صاحبنا سيلاكي الشارع ، ومضى يستعلم من الحاجب ذي الملابس الحمراء الكرزية عن (ب . أو ج) عقيد الفرسان المحال على الاستيداع ، حتى يتمكن من الحديث مع هذا السيد . الذي سيطلق في اليوم التالي الرصاص على رأسه ؟ من المحتمل جداً أن لايرضى الحاجب حتى أن يكلمه ، أو أن يزجره إذا عرفه ، لأن هؤلاء الخدم القدماء في الأندية يعرفون قواعد المبارزات . وهذه القواعد تقول إن الخصمين لاينبغي أن يجري اتصال بينهما قبل المبارزة ، وهكذا يعرّض سيلاكي نفسه لمهانة فظيعة . لعله كان يمكن أن يخاطر بذلك بقبعته القديمة ، لكن قبعة « الخصّاء » ، كما سماها

من قبل ، منحته نوعاً من الشعور بالعزّة . فعادر مرصده . وعلى مستوى شارع (كيريبيش) بلغ ذلك الجانب من شارع (هنفان) الذي يوجد النادي فيه ، فقفل على أعقابه ، ولدى مروره أمام الباب الخارجي المفتوح على مصراعيه لم يرفع عينيه نحو القصر ، فكأنه متسكع غير مكترث . كان يؤرجح مظلته ببساطة في يده ، لأن هذه المظلة مزوّدة بمقبضٍ منحنٍ يسمح بتعليقها بالمعصم . فتتأرجح المظلة وترتطم ، بين الهنية والهنية ، بركبة سلاكي ، فكأنها تشجعه . عندما يملك المرء مظلة كهذه ، لايستطيع في الحقيقة أن ينحطّ ، فيمضي إلى طلب العفو عن حياةٍ بائسة . و ستدار تيتوس في شارع (بلرو) الأنيق ، وكأن لديه عملاً بالفعل في تلك الناحية ، لكي يوهم بواب النادي ذا الملابس الحمراء الكررية ، الذي – على ماخيّل إليه – تابعه منذ الباب بنظرة ساخرة ممتعضة . فكأن هذا الحجيب الوقح قد حزر لماذا يتسكع الصحافي قرب النادي . . . استدار تيتوس في شارع (بلرو) ، وابتعد عن النوافذ المظلمة ، التي كان هؤلاء السادة يمكنهم خلفها بالتأكيد في تناول عشائهم ، منذهلين أمام العقيد ذهولهم أمام حيوان نادرٍ من فصيلة القشريات .

* * *

انتهى سبلاكي في تسكعه في الشوارع المظلمة الضيقة الواقعة في مركز المدينة إلى ساحة (الفرنسيسكان) ، مسوقاً إلى هذا المكان بعادةٍ ترجع إلى عدة سنوات . كان يفكر ، في الواقع ، بأنه يكون أشد البلهاء بلاهة إذا لم يدخل الآن إلى مطعم عصري ، طالما أن « المدينة بأسرها » على علمٍ بالمبارزة المميتة التي ستجري

غداً ، ليتباهى على الملأ ، طالما أن كل واحد يتحدث عن مغامرته ، فيبرز جرأته وجسارته وشجاعته ، وهذا هيِّن عليه ، ولا سيما أن لديه القبعة والمظلة المناسبتين للظهور . ويتذوق مباهج الإعلان الباهظة الثمن بالتأكيد ، طالما أن كثيرين من الناس يناضلون بلا هوادة للحصول عليها . أني يتفق لنيتوس سبلاكي ، الصحافي المغمور ، مرة أخرى أن يرى نفسه يُشار إليه لدى عبوره بالبنان : هو ذا الصحافي الذي لايخشى حتى الموت في ممارسة عمله ؟ ومتى يمكن أن يلاحظوه مرة أخرى في الأوساط المولعة بالمبررات ؟ ومتى يمكن أن تتحول نظرات الساخرة الممتعضة الهازئة الخبيثة مرة أخرى إلى نظرات تحيطه بالاحترام ، إذا لم يكن ذلك هذا المساء ، هذا المساء الأخير ، الذي يستطيع أن يقضيه ، بنقود السلفة في جيبه ، ضاحكاً خالي البال ؟

تخيل سبلاكي نفسه في وسط مطعم عظيم الأناقة ، وغجري لا يفتأ يعزف له أغنيته ، والنساء في أثواب السهرة يدرن نحوه رؤوسهن اللطيفة خافقات القلوب ، لأنه ، في تلك اللحظة ، كان الرجل الأعظم أهمية في المدينة ، الرجل الذي يتهيأ لمواجهة الأسد ، لمواجهة الموت المحقق . ولماذا ؟ بدافع الشرف .

نصحته قبعة الصيد الطائشة قائلة : — بوسعك أن تمنح نفسك عشاءً شهياً . طبق من (البفتيك) مثلاً في مطعم أنيق ، حيث لايكتفون بكتابة « بفتيك على الطريقة الانجليزية » فقط ، بل يعرفون أيضاً كيف يصنعون طبقاً حقيقياً من (البفتيك) .

قالت المظلة ، وهي ترتطم بخاصرة سبلاكي — مع البيض على الطبق .

وألحت القبعة باللائمة على سبلاكي ، وهو لايزال ماضياً في الاتجاه المؤدي إلى حانة صغيرة واقعة في عمارة (الأتنايوم) ، قالت : — لديك المال ، ولاتعرف

كيف تسلك مسلك رجل كريم الأصل ! لن تكون أبداً رجلاً من رجال المجتمع ، إذا تركت حتى هذه الفرصة تفوتك ! يجب أن تذهب إلى مطعم (هنغاريا) أو إلى (الريستول) لكي يلحظ الناس أنك ، أنت أيضاً ، موجود ، وأنك تتهيأ للموت في ميدان الشرف . إذا كنت لاتحب (البفتيك) ، ففي لائحة الطعام دائماً طبق يقدمه النادل لك بانحناءات عظيمة : طير ، أو أرنب ، والأرنب يؤكل منذ منتصف آب – أغسطس . وفي « يخنة ظهر الأرنب » تسبح ورقة من أوراق الغار ، وستكون محظوظاً في مبارزتك، إذا عثرت على رصاصة في اللحم . لاحاجة بك إلى أكل « السرطان » ، فهو في هذا الفصل مادة رخيصة جداً . زد على ذلك أنك لن تعرف كيف تتصرف حياله ، لأنه لابد من المهارة لأكل السرطان بأناقة . كل ، مثلاً ، لحماً مشوياً ، فطالما هو قيد الإعداد ، لن يفتأ النادل يلقي إليك نظرات متواضعة ، ملتمساً الصفح. فكرّ قليلاً في ماكان يمكن أن يحدث لو كان رئيس تحرير جريدتك هو الذي سيشتبك في مبارزة تعلن عنها الصحف منذ أيام وأيام ! أي نجاح كان هذا الرجل الطيب سيجنيه ! وأنت ، ليس لديك مايكفي من الفطنة لتقيم تعارفاً مع سيدة من سيدات المجتمع على سبيل الفضول .

كان سبلاكي على وشك الاستسلام للإغراءات الملحّة ، التي ما انفكت تفصح عن نفسها في لمسات المظلة وفي رعشات قنزعة القبعة : كن رفيقاً طيباً ، يوماً واحداً على الأقل ، قبل أن تموت !

وقاده طريقه إلى عربة بائعة متجولة تبيع ، في ضوء مصباح ، ألوان الفواكه كلها . كانت الفواكه الأغلى ، في هذه الفترة من السنة ، هي العنب والجوز ، فقد كانا لايزالان من البواكير ، وفي النهار كان الناس يترددون في إنفاق نقودهم

على شرائهما ، أما « الليليون » غير المبالين فيتمتعون بالنظر إليها . ولكي يتيح سبلاكي لنفسه فرصة للشطط والإسراف . في هذا اليوم الذي لايشبهه أي يوم آخر ، جعل البائعة تزن له عنباً وجوزاً في قمع من الورق ، ونقدها الثمن دون مساومة .

– أنا لم أولد سيداً من السادة ، رغم أنه لابد لي أن أموت غداً ميتة سيد تقريباً .

قال سبلاكي ذلك في نفسه ، وهو يلج ، متأبطاً قمعه ، الحانة الليلية الصغيرة ، التي مازالت فاتحة أبوابها أصلاً من أجل عمال التنضيد في المطابع ، الذين يعملون في الليل . ولأجل غيرهم من « الليليين » . وهم أشخاص يمكن الافتراض أنهم زاهدون في الطعام والشراب ، وأنهم لايرتادون المطعم إلا للتغذية ، وليس للتسلية . كان صاحب الحانة يدعى كرشانتز ، ولم يكن بوسع الصحفيين ، الذين يقضون معظم عمرهم في المقاهي ، أن يجيئوا إليه إلا نادراً ، لأن الجلوس عنده يكلف أكثر من الجلوس إلى مائدة عامرة بالقهوة المصفّاة والقهوة بالقشدة . هنا يتعين عليك أن تشرب وتأكل إذا أردت أن تقضي الليل . عند كرشانتز يجب أن تنفق ، ولامجال للدَّين إلا لعمال التنضيد ، الذين كانوا يدفعون بأمانة كل سبت . كلا ، لعلهم هنا لايسمحون بالدَّين حتى لرئيس تحرير ؛ لذا لايمكننا القول إن سبلاكي لم يكن مسروراً تماماً من قضاء ليلته الأخيرة في هذه الحانة ، التي تدار بمثل هذا القدر من الأمانة البورجوازية .

اتخذ مكانه إلى إحدى الطاولات في ركن مريح ، كمن هو واثق تعمله ثقةً تامة .

لم يفُتْه أن كرشانتز – وهو ألماني من سهول اسواب ، صموت ، ذو شاربٍ أحمر ، يصبّ خموره وراء طاولته بالعناية الدقيقة التي يوليها الصيدلي لوزنِ مخدراته – أن كرشانتز الأخرس قد أنعم على قبعة سبلاكي الجديدة بنظرة إطراء ، وكذلك على مظلته . فهل فكرّ كرشانتز بأن هذه المظلة ، على كل حال ، ستصبح في النهاية ملكاً له ؟ من يسعه أن يفك رموز أفكار صاحب حانة؟ المفلسون وحدهم يتخيلون أن صاحب الحانة لاينفك يرصدهم خوفاً من أن يفرّوا من الحانة دون أن يدفعوا الحساب .

طلب سبلاكي « اللائحة » من النادل القصير القامة ، الذي ناداه صاحب الحانة بعبارة « يانوش » لفظها بصوت خافت ، مشيراً إلى أن زبوناً قد وصل هوذا أيضاً أمر لم يحدث من قبل قط لتيتوس سبلاكي . إن أصحاب الحانات ، بلا جدال ، يرون حتى أعماق الجيوب .

رسم يانوش إشارة الصليب على صدره عندما رأى السيد سبلاكي على الطاولة في الركن . واقترب بخطى متردّدة ، وكأنه يرى شبحاً من الأشباح .

– لقد سمعتهم يقولون إن سيدي قد قُتل في مبارزة .

قال تيتوس ضاحكاً ، وباللهجة التي كان الصحفيون يستخدمونها في ذلك الحين مع خدم المقهى : إنها إشاعة مستقبلية . أجل يايانوش ، إنها ليست إلا

إشاعة مستقبلية . في المرة القادمة انتبه أكثر ، أعني : أصخ السمع أكثر عندما تصغي إلى مايقال على طاولة ماريش .

فنّمت ملامح يانوش – وهي ملامح غير قادرة على كتمان السر – عن فزع أعظم :

– هذا صحيح ، فعلى طاولة ماريش قال عمال التنضيد هذه الليلة إنه لم يعد يُدفع قرش واحد ثمناً لحياتك ياسيدي . وإنك قد قُتلت . . .

كانت هناك ، في القاعة الداخلية ذات القبة من المقهى ، مائدة طويلة ، كان عمال التنضيد قد نضدوا عليها بحروف كبيرة عبارة طاولة ماريش . وكان السيد ماريش في ذلك الحين عامل التنضيد الذي يتمتع بأعظم نفوذ ؛ فبوسعه أن يتباهى بأنه نضد مقالة عيد الفصح التي كتبها فيرنتس دياك . وكان السيد ماريش ، وهو سيد طويل القامة وقور ومحترم ، يظهر على الطاولة كل مساء بعد منتصف الليل لكي يتولى رئاستها .

كان صاحبنا تيترس فخوراً بأن قضيته قد تناولها الحديث ، حتى على طاولة ماريش ، لأن عمال التنضيد الأعظم قدراً هم الذين كانوا يختلفون إليها ، غير أن هذا لم يمنعه من أن يتصرف وكأنه لم يكترث بانفعال يانوش ، الذي لم يتوقف عن ضرب ركبته بمنشفته ضربات قوية ، وكأنه يريد أن ينتزع نفسه من حلم .

– يوجد « معلاق » بالمرق الحاد .

قالها ، وكأنه تذكر على نحو مبهم ، أن تيترس كان من عادته تقريباً ،

في المرات التي يظهر فيها في الحانة ، أن يأكل « كرشة » رخيصة .وكان يطلب دائماً نصف ليمونة ، ويشد قصائد المديح والإطراء للطباخة التي لاتألو جهداً في قطع « المعلاق » قطعاً صغيرة ، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لطبخه كما ينبغي .

لم يلق تيتوس بالاً لاقتراح يانوش ، واكتفى بغمغمة خافتة وجهها ليانوش، الذي كان مايزال يريد « أن يضعه في الحل » ، وكأن ليس في معدته ، وفي حياته، وفي مهنته ، وفي مزاجه حموضة كافية .

— أود أن آكل ديكاً !

أعلن تيتوس هذا ، بعد أن لاحظ بأن هذا هو الطبق الأغلى في لائحة الطعام المتواضعة .

— محمّرة الدجاج ، نعم ياسيدي .

— ديكاً ، قلت لك ، وديكاً لم يُخصَ في شبابه ، مثل بعض الصحفيين عديمي الموهبة . ديكاً ظل ديكاً ، ديكاً طارد الخادمات الشابات ، وقرص مربية الأطفال .

من يدري إلى متى كان كاتبا سيمجدالديك الذي يريد أن يأكلههذا المساء — الديك الذي طلبه من يانوش ، الذي كان يبتعد باتجاه المطبخ — حتى إصبعيه المخفيتين ، دع عنك الكبد والحوصلة ، عندما ظهر شارب أحمر على عتبة المقهى .

من الشوارب الحمر هناك أشكال وألوان . معظمها يملكها رجال غضوبون عدوانيون مهملون ، وهي ، بسبب لونها على وجه التحديد ، لاتستحق العناية . أما شاربنا الأحمر هذا ، فقد كان ذلك الشارب الواحد بين مائة الذي يعلن عن الظرف والمرح والارتياح والمزاح إعلاناً وكأن زاويتي الفم ، تحت الشارب ، لاتتوقفان عن الارتفاع إلى فوق لترسما ابتسامة ما . هذا الشارب الأحمر كان يستحق أن يتركه صاحبه ينمو ، وأن يفتله ، وأن يداعبه كثيراً كما يداعب المرء كلباً طيباً . وفوق لشارب الأحمر ، كانت هنالك نظارتان مستديرتان تؤلفان ، بحاملهما القرني ، وبطريقة توازنهما على أرنبة الأنف ، وبالسلك الذي يمسك بهما خلف الاذنين ، هما أيضاً ، جزءاً من تلك النظارت المرحة التي تبدو العينان خلفها لطيفتين دائماً . وتحت الشارب كانت ربطة العنق تلفت النظر : ربطة من نوع « لافاليير » معقودة باليد ، ذات نقط زرقاء وبيضاء ، ولكن كان على الربطة ، مع ذلك ، دبوس على هيئة رأس خنزير بري ذي عينين من الياقوت الأحمر .

في الواقع ، كان هذا الذي يحمل ذلك الدبوس تاجراً من تجار لحوم الطرائد ، يدعى آندور آرنيوشي ، وهو اسم اتخذه لنفسه منذ عهد قديم عندما كان صحافياً ، قبل أن يدخل في مهنة تجارة لحوم الطرائد .

بدأ الصحافي السابق- الذي كان يأتي في كثير من الأحيان من بيته القريب جداً من شارع « الباستيون » إلى هذه الحانة الصغيرة ، لكي يشم ، على ما كان يقول ، شيئاً من رائحة المطبعة ، لأن رائحة المطبعة هذه ، رغم أنه الآن تاجر

لحوم طرائد ، لم يكن يستطيع أن ينساها . بدأ بالقول : ــ حسن حظ أن أجدك هنا يا تيتوس . لقد قرأت في الصحف أن لك في الوقت الحضر بعض العلاقات بعالم الماعنات (١) ، والنادي الوطني ، والكونتات . أنصحك بأن تلقي نظرة على « تقويم الصالون » الذي تولّيت تحريره في الماضي ، وأردت فيه أن أقيم علاقة بين عالم الأدب المجري وبين علم الماعات . كونت ، كاتب كونتيسة ، كاتبة : هو ذا ما يتعاقب في « تقويمي » ، مع قصص قصيرة ، وقصائد شعرية ، وصور .

أجاب الصحافي : ــ الفكرة ليست سيئة . ولكنني ، في الوقت الحاضر ، محكوم بالإعدام .

غير أن آربوشي لم يكن رجلاً يصرف النظر بمثل هذه السهولة عن مشروع ترك منزله في شارع « اباستيون » في هذه الساعة المتأخرة من الليل من أجل تحقيقه .

ــ إن الأدب لا يسير الآن على الطريق الصحيح . فمنذ أن ابتكر لا يوش تشيث في جريدته الهزلية شخصية آدم بوكروتز ، لا يكتب إلا عن عمال السكك الحديدية . لماذا تركزون دائماً على السائقين وعلى حرس الحواجز ؟ يجب أن تتكلموا عن الكونتات والكونتيسات لكي تكون الأشياء ذات معنى . لن يكون هنالك أدب مجري أبداً ، طالما أن علم الآداب لم يتزاوج مع عالم الماعنات .

أجاب سبلاكي : ــ يتزاوج ! لقد أحسنت قولاً . كما كنت أقول لك ،

١ ــ لقب مجري خاص كان يطلق على أفراد معينين من طبقة النبلاء والاقطاعيين في المجر ، مفرده « ماغنا » ، أو « مانيا » ، مثل لقب دوق أو كونت .

في الوقت الحاضر أنا محكوم بالإعدام . وأن أشرب كأساً من مزيج (تشيت) .

قال آرنيوشي رئيس تحرير « تقويم الصالون » سابقاً ، وهو يطهر سلسلة ساعته التي يتدلى منها أيضاً ناب خنزير بري مرصّع بالفضة طبعاً : — أجل ، هي ذي المصيبة . إن اسم لايوش تشيت هو الذي يطلقه أصحاب الحانات على هذا المزيج من النبيذ والماء الغازي ، وليس اسم الكونت اندراس أو اسم الأمير فيشتتش . ولهذا فإنكم ، أيها الكتاب المحريون المحدثون ، لن تصلوا إلى شيء . أما نحن القدامى ، فقد كان من المحتمل أن نستطيع توجيه الأدب في الاتجاه الصحيح . لقد انتزعتم القلم من أيدينا ، وسلبتمونا كل حظوة ، وها أنتم اليوم تنتفضون ضد « النادي » وضد عالم الماغنات بأسره .

فأجاب صاحبنا تيتوس بوقاحة وصلف :

— مزيج تشيت هو أفضل الابتكارات : ثلث من النبيذ ، وثلث من ماء (باراد) ، وثلث من الماء الغازي .

هزّ الأديب تاجر لحوم الطرائد رأسه باستهجان تجاه هذا العناد ، وقال :

— أما أنا ، فقد حافظت على علاقاتي بعالم الماغنات ، ولم أندم على ذلك . إن طيور الفزان تأتيني دائماً من غابة الكونت برشتولد .

فأجاب سلاكي بلهجة فوضوية — أنا لا آكل القران أبداً .

— جميع الأرانب التي تصاد في أملاك الكونت ديغنفد تعود إلي ، لأن لديَّ عقداً معه

ـ لقد استغنيت حتّى الآن عن شواء الأرنب .

في هذه اللحظة لمح تاجر لحوم الطرائد قبعة الصيد المزينة بالقنزعة والصدفة معلقةً بالمشجب ، وأبدى ملاحظة بشأنها ، فقال :

ـ مع ذلك ، إذا حكمنا بناءً على قبعتك ، أيها الأخ العزيز ، فيمكن للمرء أن يعتقد أنك تؤلف جزءاً من عالم النخبة .

أجاب تيتوس : ـ لا أريد أن أكون جزءاً من أي شيء .

وألقى نظرة احتقار على القبعة التي فضحته ، وكذلك على تاجر لحوم الطرائد.

حينئذ أظهر الشارب الأحمر ، على حين غرة وطفرة واحدة ، أنه يخفي غضباً مستتراً ، مثل كل شاربٍ أحمر .

حسناً ! إعتبر زيارتي لك التي قمت بها لمصلحتك كأن لم تكن .

ومضى تاجر لحوم الطرائد وهو يهز رأسه ،واعياً ما يتمتع به من قدر واحترام وثروة،بعد أنأدرك عقممحاولته التوفيق بين الأدب المجري وبين عالم الماغنات . ولدى عودته شكا بالتأكيد إلى زوجته الجحود الذي يكافىء الكتاب المجريون به أطيب النوايا .

بقي سبلاكي وحيداً على طاولة الركن مع بانوش ومع محمّرة الفرخة ، فشعر ، هو أيضاً ، بشيء من عدم الارتياح . فلعله ضيّع لتوّه آخر فرصة لمصالحة خصمه . . .من يستطيع أن يعرف سبل الحظ؟أما كان من الخير له ،رغم كل شيء،

أن يؤلف « تقويم صالون » ، وأن يستمر في الحياة إلى مابعد يوم الغد ؟

قال سبلاكي للخدم المعمم بالتعاطف ، الذي توقف – في غياب الزبائن الآخرين – بقرب الصحافي ، والذي كان يبدو مذهولاً لرؤيته هذا الرجل الميت ينهش فخذ الفروج : – قلت لك أن تحضر لي ديكاً .

ولما ظل يا نوش صامتاً ، لأنه لم يعرف بماذا يجيب ، استطرد سبلاكي نافد الصبر :

– حتى عند كرشانتز لم يعودوا يقدمون لك ما تريد . في هذه الظروف لا يسع المرء حقاً أن يفعل شيئاً غير الإقلاع عن الذهاب إلى المطاعم . أما أنا ، فستكون لدي ، والحمد لله ، أفضل حجة في العالم للإقلاع عن الذهاب إليها .

وصرخ سبلاكي ، وهو يسدد إلى جبهته قطعة خبز (الكرواسان) المملح التي كان يمسكها بيده : – بم !

فردّد الخادم : – بم !

وفرّ تاركاً الزبون هناك ، وكأنه لم يشعر بالراحة لجواره .

بقي سبلاكي وحيداً ، ولما لم يستطع أن يتبادل أفكاره مع أحد ، فقد استسلم من جديد لخواطره الكئيبة .

هذه الخواطر لن نحاول حتى وصفها ، وسنكتفي فقط بملاحظة أنه في كثير من الأحيان كان بين هذه الصور صورة حصان أحمر اللون يعدو به فارس يلبس

بطلاً ذا مربعات وقبعة عالية . وتحت اللوحة كانت الأسطورة تقول : « الحياة تمضي عدواً » . ألم يكن ينبغي لسبلاكي ، هو أيضاً ،أن يمضي عدواً ، بدلاً من أن يتسمّر بغباء أمام فوهة المسدس المشؤومة ؟

كان قد عجن كومة كاملة من كرات الخبز الصغيرة ، ونثرها حوله على غطاء المائدة ، عندما فتح الباب من جديد ، وهذه المرة أيضاً على شرف سبلاكي .

– إنني أزيد الازدحام في الحانة .

قالها سبلاكي في نفسه ، عندما عرف في الواصلين لتوهما أنهما السيدان اللذان طلب منهما أن يكونا شاهديه في مبارزة المسدس . لم يكن هذان السيدان ينتميان إلى مهنة الصحافة،بل كانا ممن يطلق عليهم اسم رجال المجتمع .ولدى رؤيتهما ، أحس سبلاكي بضيق شديد يمسك بخناقه ، ولم يستطع الاحتفاظ في معدته بالأغذية التي أكلها إلا بعد لأي . كانت جميع أوتار أعصابه تؤلمه ، تؤلمه حقاً ، وسرت قشعريرة باردة برودة الموت في جسمه ،وأصبح وجهه قطعة من الجليد لمرأى هذين السيدين اللذين ألقيا عليه التحية في جذل ، وقالا له إنهما بحثا عنه « في جميع أنحاء المدينة » . وفي خاتمة المطاف قال لهما أحدهم في إدارة التحرير إنهما إذا لم يفلحا في العثور عليه في هذا المقهى ،فكل ما يمكن أن يكون قد حدث هو أن سبلاكي قد فرّ من المدينة .

سأل سبلاكي ببهجة شاردة ، وكأنه قد تآلف مع فكرة الهرب : — من قال لكما هذا ؟

فأجاب أحد الشاهدين : ــ آلادار سوبفاي هو الذي قال .

وآلادار سوبفاي هذا كان دائماً « في الجريدة » خصم سبلاكي ، لأنه وجد أن اسم هذا « ينزل » في الجريدة مطبوعاً أكثر من اسمه .

صرخ الصحافي في نوبة غضب ناجمة جعلته يسترد قوته المعنويةلوهلةقصيرة :

ــ لقد كذب سوبفاي مرة أخرى .

فردّ الشاهد الآخر : ــ لقد عبّر آخرون عن آراء مشابهة . يقولون إن تيتوس سبلاكي لن ينتظر ساعة المبارزة ، بل إنه سوف يلوذ بالفرار خفية.ومن المؤسف أن هذالن يجديه نفعاً،لأن أصدقاء العقيد من الضباط الأوفياء للنظام ، سوف يجدونه أينماكانمكانه،ويمزقونهإرباً إرباً، كمايتطلب الواجب.

كان الذي قال هذا سيداً طويل القامة ، مجدوراً ، ذا أنف ضخم ، يتكلم المجرية بلكنة سلوفاكية ، وكان ، في الحياة المدنية ، رساماً ، ولكن اسمه كان يظهر في قصص المبارزات أكثر مما يظهر في أسفل اللوحات . وكان يقضي معظم حياته على موائد المطاعم ، حيث يروح عن المستمعين إليه برواية قصص مرعبة عن المبارزات ، لأنه ظل ، منذ حوالي عشرين سنة ، يحشر نفسه من قرب أو من بعيد في المبارزات التي تجري في المجر .

أما الثاني ، فقد كان رجلاً أحدب قصيراً ونحطراً ، وكان بوجهه الشاحب الذي تغطيه لحية سوداء خفيفة ، وسترته الحالدة ، و « مدخنة المدفأة » ،

والمسلسات ذات الطلقتين التي يحمل دائماً زوجاً منها في جيوبه، وعصاه السيف، ومديته الخاصة بالصيد التي يحملها في جيب صدريته، وهيئته الاستفزازية، معروفاً في العاصمة، في كل مكان يتطلب الأمر فيه تسوية قضية من قضايا الشرف

كان الأحدب شخصية من شخصيات روايات المغامرات، وقد لاحظ على الفور العصا — المظلة الخاصة بسبلاكي موضوعة في إحدى الزوايا . فنظر إليها باحتقار :

— بوسعي، بضربة واحدة من عصاي، أن أكسر عصا الخوري هذه إلى قطعتين . إنها تصلح لأحد الكهنة .

قال هذا، ووضع عصاه الحديدية على مسافة كافية من العصا التي كانت مبعث اعتزاز سبلاكي .

وكانت مهنة الأحدب تعليم الاختزال، ولكنه لم يكن لديه أبداً الوقت الكافي للتعليم، لأن أصدقاءه « كانوا يثقلون كاهلة بقضايا الشرف » . كان يدعى تورونيوغومبي، ويبتهج بأن هذا الاسم القليل الانتشار قد منحته الامبراطورة ماري تيريز لأسرته .

جلس تورونيوغومبي قرب الجدار، بعد أن ألقى نظرات ذات اليمين وذات الشمال، لكي يرى من أية جهة يحتمل أن يأتيه أي عدوان : اعتداء من رجل سكران، اقتراب من رجل شديد المراس، شتيمة غير متوقعة، صفعة، لأن شاهد المبارزات هذا كان يتوقع دائماً أن يُضرب هنا أو هناك . وعندما

اتخذ مجلسه ، أخرج أحد مسدسيه من جيب بنطاله ، ثم أخرج الثاني ، واستوثق من أن « الكبسولات » موضوعة في مكانها .

قال الشاهد القصير بصوت مخنوق ، والتمعت عيناه ، اللتان تشبهان عيني مصدور ، ببريق غامض : — قضيتنا نحن تتصل بالنادي ، الذي له أذرع طويلة جداً . أنا لا أفترض أبداً أن هؤلاء السادة محرومون من روح الفروسية ، ولكن إذا خطر لأحد الخدم ، لحاجب ، أو نادل ، أو تابع ، أو حوذي . أن يرغب في الانتقام لسيده ؟ . . . ايه لوتزي ، ألست على صواب ؟ في الماضي ، هذا المحرر السمين ، الذي كتب في جريدته أموراً مزعجة عن عشيقة أحد الكونتات ، ضربه حمّالون ضرباً مبرحاً في جوار النادي »

هزّ السيد المجدور ، الذي كان اسمه لوتزي ، رأسه علامة الموافقة . لأنه كان يأنف من المناقشة في أمور تافهة . فهولم يكن يحب أن يتكلم إلا عن المبارزات ، وليس عن مشاجرات الجزارين . وتابع لوتزي ، بلكنته السلوفاكية ، رواية القصة ، التي رواها بالتأكيد عدة مرات تورونيوغومبي — ذلك أنهما كانا معاً في المقهى آناء الليل وأطراف النهار — وهي قصة كان قد بدأها في مكان ما على الطريق :

— أقول لك يا تينتو إن الجرح كان يبدو مميتاً : بشرفي ما كنت لأدفع قرشاً مثقوباً ثمناً لحياة الكونت بينتشي ؛ فقد اخترقت رصاصة الكونت بمبي كبده من جانب إلى جانب . كبد هذا المكبود ! وطول الوقت كان ذباب الخريف يقرصني على نحو شيطاني ، لأنه كان هنالك اسطبل على مقربة من مكان المبارزة . . . لقد

تعين علينا أن نمضي بحثاً عن كاهن لكي يموت الكونت بينتشي ميتة كاثوليكية على الأقل . لأنك تعلم أنني ، أنا ، أقيم دائماً وزناً كبيراً للدين ، عمي كان رئيس كهنة في روجاهيدغ . . . بشرفي ! لقد هاجمتني أسراب الذباب كالشياطين . .

— ذبابات شيطانية .

قالها توروبيوغومبي بلهجة الموافقة ،بعد أن زخرف السيد لوتزي القصة الّتي طالما رواها . فأدخل فيها حكاية الذباب هذه . كلا ، لم يسبق للسيد لوتزي أبداً أن تحدث عن أسراب الذباب الّتي تقرص المتبارزين .

وضع هذان السيدان حداً لحضورهما في الحانة ، لأنهما لم يكونا يريدان إلا التأكد من أن سبلاكي لم يلذ بالفرار.فهما لم يكونا منهؤلاء المرحين الحقيقيين الذين يستطيعون أن يقضو ساعات في الحانات ، يشربون في صمت ، غارقين في أحلام خرساء : بل كانا مجرد رائدين من رواد الحانات الذين لا يدخلون إلى المقهى إلا من أجل متعة المناقشةاليومية ، وعندما يكونون فيها لا يهتمون ، بوجه الإجمال ، بما يأكلون أو يشربون من شدة استغراقهم في ما يقولون . وكن يمكن لهما ، لتذوقهما قصص المغامرات البطولية ، أن يبقيا في المقهى بغير حدود ، ولا سيما عدما يستطيعن أن يدخلا شخصيهم في حبكة قصصهما .

لم يبرهن الصحافي الكئيب على أنه المستمع المناسب . فبينما كان لوتزي يتحدث ، بلغ عدم انتباهه ما يقرب من قلة الأدب ، وعبثاً كان معلم الاختزال القصير يشير إليه ويحرك حاجبيه المخيفين بعصبية . وظل تيتوس ساهماً ،

حتى عندما انتهى لوتزي إلى أن يروي أن الكونت بيتشي مدين ، في حقيقة الأمر ، بشفائه السعيد لهذا العم رئيس الكهنة في روحاهيدع ، الشهير في شمال المجر بأسره ، لأن أولئك الدين كان يقدم إليهم الأسرار الأخيرة لايموتون أبداً .

وفجأة وجه توررونيوغومي سؤالاً إلى تيتوس لا يخلو من قصد خفي فقال :
— أنت ، بوجه الإجمال إلى أي دين تنتمي ؟

فأجاب الصحافي ببرودة أعصاب : — أنا كاثوليكي روماني .

وأجاب الشاهد بنبرة غامضة : — هذا ، كان بوسعك أن تقوله قبل ذلك .

...وبينما كان هذان السيدان يستعدان جدياً للانسحاب أمام هذا المستمع الشارد ، صاح الصحافي قائلاً :

— خذاني معكما حيثما تذهبان .

ولبس قبعة الصيد الخضراء ، وهو يتناول عصاه المظلة ، وكأنه يريد أن يبرهن بلباسه على أنه لا يختلف عن رجال المجتمع .

كان للقبعة والمظلة بعض الأثر في الشاهدين ، لأنهما نظرا إلى بعضهما بعضاً مفكرين ، وانتهى توررونيوغومي إلى القول :

— ليكن ، بوسعك أن تأتي معنا يا صديقي العزيز ، إن لدينا موعداً في « الأرفيوم » مع سادة من الأقاليم يريدون أن يطلبوا نصيحتنا من أجل تسوية

قضية من قضايا الشرف بعد ظهر هذا اليوم . لذلك لاتحمل الأمر على محمل سيء إذا تركناك وحيداً لفترة وجيزة .

كانت أفضل عربة في بودبست تنتظر الشاهدين أمام المقهى ، لأن الشهود، في ذلك العهد ، كانوا يستقلون عربة ذات حصانين عندما يكون لديهم عمل من الأعمال في المدينة . ولعل المارة في الشارع كانوا يرسمون إشارة الصليب على صدورهم لدى رؤيتهم عربة الأجرة الفخمة هذه بركابها الذين ينتمون إلى المجتمع الراقي تنطلق في المدينة ، في حين يبدأ سكان بودابست الأكثر خبرة يتساءلون ما هي القضية التي يقود (مدو) عربته فيها بمثل هذا الجنون في شارع (برنس رويال) وفي شارع (فاتس) ، في حين يلقي الفنان الرسام المجدور التحية من جانب من الطريق ، وفي حين يرفع تورونيوعومي قبعته العالية بحركة احتفالية عند باب العربة الآخر ، حتى لو لم يكن هناك أي شخص يعرفه في الجوار : يلقي التحية لأن على الرجل ذي المنزلة الرفيعة الذي يستقل عربة أن يبدأ هو بإلقاء التحية .

أما الآن فقد خيم الظلام ، وقد هزأ الشاهدان أي هزء لأن الصحافي المتواضع تسلق المقعد برشاقة إلى جانب الحوذي ، كيلا يزعجهما في الداخل وتوقف ركاب العربة بضغطة خفيفة من اليد ، إذا صح التعبير ، أمام مقهى ليلي يسبح في نور خفي ، في حين هرول البواب المهيب الذي يرتدي بنطال خيّال ، وكأن الأمر يتعلق بضيوف نفد الصبر في انتظارهم .

هنا ، كان يوجد ، بدءاً من البهو ، جو دافىء ولكن نقي ، حيث تكاد

لا تشم رائحة باعة الصحف المتجولين المعتادة ، الذين يرتادون مقاهي الغناء . وكان يسبح فيه نوع من العطر الخفيف ، وكأن بطلة من بطلات عذب الليل قد اجتازت البهو لتوها ، تاركةً معطف سهرتها الغارق في ريش البجع ينزلق بلطف عن أحد كتفيها أمام مكتب الخدمة . وكان غجري ذو لحية وخطها الشيب يعزف بلطف أنغاماً فرنسية تبعث على التأمل ، وكانت لحيته الطويلة مستلقية على الكمان ، حتى ليتوهم امرء أنه كان يمر بقوسه عليها .

في الماضي ، عندما كان سيلاكي « صحافياً شاباً » ، كثيراً ما كان يأتي إلى هذا المكان ، عندما كان في « مدرسة الحياة » في بست ، ولكن منذ أن افتتح مقهى (فيريتتس) ، حيث يغلب عليه طابع أقل تصنعاً وأكثر متعة ، ومنذ بدء تيتوس يتقدم في السن ويولي اهتماماً أقل لزينته ، انقطع عن ارتياد الأماكن الممتازة . ففي نهاية الأمر ، من يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يرتدي ثياباً رسمية كل يوم ، وأن يخترع الأكاذيب عن حفلات الاستقبال المختلفة التي يكون قد شارك فيها خلال السهرة ؟ هذا حسن لصحافي مبتدىء ، ولكن ليس لمحرر أصبح ناضجاً للموت .

لهذا السبب لم يدخل سيلاكي حتى إلى صالة القهوة ؛ واكتفى باتخاذ مكان له في البهو الخارجي ، حيث كان ينوي أن يراقب مرور الناس إلى جانب زجاجة من (البيرة) ، في انتظار انتهاء صديقيه من تسوية قضاياهما في الداخل . كان هذا القسم من المقهى هو الذي يلعب فيه ممثلو (الأرفيوم) لعبة (البلياردو) ؛ وكان كثيرون منهم جالسين ، وقبعاتهم على رؤوسهم ، إلى طاولات من الرخام ،

وكأن المرء يكون حراً هنا أكثر من الداخل ، في عام القطيفة والمخمل ، حيث (الأوركسترا) .

ـ بلا جدال ، أنا لم أولد سيداً ، ولكن مع ذلك يجب أن أموت وكأنني ولدت كذلك .

قالها سلاكي للمرة الثانية في هذه الأمسية على طاولة الركن التي كان يتابع منها بعين متأملة مباراة (البلياردو) بين باومان وغارفاس ممثلي (الأرفيوم) الهزليين ، وخطر في باله أن هذين الممثلين الهزليين سيتابعان مبارياتهما المرحة في (البلياردو) ، عندما يكون هو نفسه ؛ منذ زمن طويل . تحت التراب ، ورصاصة مسدس في قلبه ، أو في صدغه ، أو في القسم الذي يشاء العقيد أن يختاره هدفاً من جسمه .

في هذه اللحظة ، تغير مجرى أفكاره بغتة ؛ لأن الأشخاص التالين جاؤوا لإلقاء التحية عليه واحداً بعد الآخر :

وسيط طويل القامة ، كانت له بشاربه المرفوع هيئة رجل تموّه العجرفة ، في حين أنه ، هو ، بكل لطف ، ارتضى لنفسه شغلاً وحيداً ، كي يمضي ساعات الليل المملة ، أن يسجل على لوح أسود النقاط التي ينالها الممثلان الهزليان .

وظهر خادم مقهى ، هو الآخر طويل القامة ، ذو شارب مصبوغ ، قادماً من داخل المقهى الساحر ، لكي يسلم على سيلاكي : فلقد قرأ في الصحف المأساة التي تتهيأ للحدوث .

وكارولين تورف بائعة الزهور ، التي كانت في الماضي عشيقة لعدد من الكونتات ، والتي شاحت الآن ، تقول للصحافي : « أعطيك زهرة ، ولكنني لا أقبل نقوداً » .

ومدير المقهى ، الذي كان مثل ضابط في ثياب مدنية ،والذي انحنى أمام الصحافي انحناءة أعظم من الانحناءة التي يمكن أن ينحنيها أمام صاحب ملايين .

وموظفة غرفة الملابس التي – على مألوف عادتها تقريباً – كان بين شفتيها دبوس ، وفي يدها رقم الملابس الذي ستحتفظ مقابله بأمتعة تيتوس.والتي لم تجرؤ في نهاية الأمر أن تلمس العصا – المظلة الموضوعة على الطاولة .

وبينما كان سبلاكي يتلقى هذه التحيات ، انتبه إلى أنه جلس في المقهى وقبعته على رأسه ، قبعة الخصاء هذه ، التي فعلت فعلها في كل مكان ظهر سبلاكي فيه بها . وكان بوسعه أن يرى في المرآة ذات الإطار المذهب ، ومن زوايا مختلفة ، القبعة التي تعلوها من الخلف القنزعة المروحية الشكل .

قال سبلاكي في نفسه : – قد أتوصل ، مع ذلك ، إلى شيء ما في هذه الحياة ، حتى لوأخذنا بالحسبان أن حياتي لن تدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة .

وفي اللحظة التي كان سبلاكي سيغرق فيها من جديد في وساوس أفكاره السوداء ، أسعفه الحظ مرة أخرى فجعله ينسى عذابه لحظة قصيرة . وما حدث هو أن رأس امرأة شقراء مزين بالمساحيق ظهر قرب الجدار الفاصل بين العالم الجميل والعالم المبتذل ، وكان رأس المرأة هذا ينظر باتجاه سبلاكي بابتسامة

تسيل لطفاً . وكأنها تبرر محاسنه للصحافي الكئيب من داخل واجهة محل لتزيين الشعر . ولعل وجه تيتوس ، في مناسبات أخرى ، كان يتخذ الوقار المناسب لدى ظهور هذا الوجه الخالي من التعبير ، وجه الدمية المصوغة ، ولكنه ، في هذه المرة ، في هذه الليلة ، مدّ يده إلى قبعته وأدى التحية كما يفعل ضابط من الضباط . عندئذ أظهرت السيدة نفسها كاملة. بوسعك أن تقول تمثال لعرض الملابس خارج من واجهة أحد محلات الخياطة في مركز المدينة ، واحد من هذه التماثيل التي يشبك العارض عليها بدبوس بطاقة مع عبارة « زي من باريس » . كانت امرأة حمقاء وخشنة عرفها الصحافي في العهد الذي تمت فيه ترقيتها إلى مرتبة غسل أواني الطعام في علبة من علب الليل . وبعد ذلك عاشت على نفقة تجار غني . وهي ، بصفتها امرأة من أحدث طراز ، تبدي اهتمامها بالصحافي الذي سيشتبك في مبارزة غداً مع أفضل رام في النادي الوطني. إن خادم المقهى الطويل القامة والمدمن على قراءة الصحف هو الذي أخبر إلزا ماغناش بالتأكيد بأن الصحافي المحكوم بالإعدام موجود في بهو المقهى الخارجي ، فقدرت السيدة بأن الأمر يستحق عناء الخروج من وضعها الطاووسي .

رمقت ملياً ومن بعيد قبعة تيتوس ، وكذلك عصاه ، قبل أن تحزم أمرها على الاقتراب من طاولة الصحافي . ولكن سلاكي ، الرجل الظريف ، هبّ لنجدة سيدة الأرفيوم ليسهّل مهمتها : نهض وتقدم نحو إلزاماغناش ، بعد أن رفع ، كرجل مهذب ، قبعته الخضراء عن رأسه ، ونظّم خطواته فكأنه مايزال تلميذاً في مدرسة (غيوما) للرقص ؛ فتحرك نحو المرأة الشابة على أطراف أصابعه ، ولكن بالرحولة المطلوبة .

— لو أنعمت علي بالمجيء إلى طاولتي ، لجعلتني في غاية السعادة .

قال الصحافي هذا وكأن ليس هو الذي تفوّه بهذه الكلمات ، بل شخص آخر يجهل حتى وجوده ، شخص مختبئ في أعماقه . إن كورنل أبرانيي الصغير هو الذي كان مثال الصحافي في نظر تيتوس في شبابه . غير أن غيولا ديري ، في الوقت نفسه ، خطر بباله أيضاً ، غيولا ديري الذي كانوا يسمونه لوديري ، أي المتقلب ، في أوساط الصحفيين ، والذي اشتهر بظرفه مع النساء ، رغم أنه لم يكن يضع نقوده إلا في جيب صدريته العلوي ، وذلك — دون أدنى ريب — حتى لايتمكن من سرقتها ، بسبب قامته الطويلة .

وبعد أن قاد تيتوس الدمية لفاتنة من ذراعها إلى مائدته ، وكنس بضربة من قبعته رماد اللفافات عن الرخام صاح :

— شيئاً يفرقع ياآنسة !

فأُحضرت (الشمبانيا) على الفور كما يحدث في الملاهي العائلية . وكانت السيدة ترمق العملية بابتسامتها الشمعية ، لأنها في آخر الأمر معتادة عليها في كل ليلة . وفي غضون ذلك كان سبلاكي منهمكاً ، ويقول :

— قولي لي ياعزيزتي إرزاماغناش ، ماذا بوسعي أن أفعل لكي أفسح في أن تكوني مرة في العمر في مزاج لطيف فتقبّليني ؟

فأجابت سيدة الأرفيوم وقالت ، وهي غارقة في فروها وحريرها وبريقها الفضي الملائكي البلادة :

– قبل كل شيء البس قبعتك ياسيدي المحرر ، لأن البرد سيلفح رأسك .

وساعدت الصحافي على لبس القبعة المائلة إلى الجانب بمحر . وخفضت حافتها ، على نحو ما يقتضي الزي الشائع في ذلك العهد ، بيديها الفارغتين ، اللتين لونهما بلون الجوز الحائل .

ولما جاء السيد تورونيوغومبي وصاحبه من داخل المقهى ، ولحقا بصديقهما الذي تركاه هناك ، كان يبدو على نجمة الأرفيوم والصحافي أنهما في صداقة حميمة حارة . وكانت إلزا ماعناش ، بتشجيع من سبلاكي ، قد رمت أرضاً بكأس صغير ، رقيق كالعشاء ومملوء بالشمبانيا ، بطريقة حملت عاملة التنظيف على الحضور . أما الشاهدان فقد أثرت فيهما تسلية محميهما المتميزة وفعلت فعلها في نفسيهما . إن رجلاً جالساً إلى طاولة واحدة مع إلزاماعناش لايمكن ، رغم كل شيء ، أن يكون الأخير بين الأخيرين . وبدأ الشاهدان الآن يقولان في نفسيهما إن زبونهما ، بوجه الإجمال ، له شيء من الأهمية في الحياة .

سأل تيتوس بصوت عالٍ : – هل سويتما قضيتكم ؟ أرجو أن تكونا مشغولين بحالة مميتة أيضاً .

عندئذ ابتسمت الدمية الفاتنة ابتسامة متملقة وجهتها إلى السيدين ، وكأنها تعرفهما منذ زمن طويل لشجاعتهما الباسلة وسلوكهما البطولي . وأراد الفنان الرسام المجدور ، بعد أن ابتلع بضع كؤوس من النبيذ ، أن ينطلق مرة أخرى

في رواية قصة بطولية ، على مألوف عادته ، ولكن توروليوغومبي القزم لم يدعه يتكلم .

– أحرى بنا أن نعلم صديقنا سبلاكي كيف يجب أن يسلك في المبارزة غداً ، لالشيء إلا لكيلا يحملنا .

كان جو المقهى الخارجي ، في هذه الساعة المتقدمة من الليل ، مقفراً تماماً . فقد ذهب الممثلون والوسطاء وباعة الصحف ، بعد أن فقدوا كل أمل . ولم يكن هناك إلا الأب بلاو ، وهو رجل طاعن في السن ، كان جالساً في الركن ، وكان،مثل سائر قدامى المضاربين في البورصة ، مايزال ينتظر ثرياً من الأثرياء يمكن أن يبصّره بأسرار اللعب القديمة . وكان باتي المشعوذ قد انسحب بشعره المستعار ، وسنواته المائة ـ العمر الذي يبدو عليه ـ وعلبة أوراق اللعب . لذا فقد استطاع معلم الاحتزال أن يقبس في حماسة الثلاثين خطوة في المقهى ، وأن يعدّها بصوت عال مستنداً على عصاه ـ السيف .

– واحد، اثنان . . . ثلاثة عشر . . ثلاثة وعشرون . . . ثلاثون ، والآن خمس خطوات إلى الأمام .

وصاح الأحدب من الركن المقابل في المقهى : – من فضلك يالوتزي ، أعط الايعازات .

فانيش المجدور من بين الكؤوس تماماً ، وأمسك سبلاكي من كتفيه ،وقال له ، بعد أن أوقفه في مربع على بلاط المقهى :

– تعال ، سأدلك على مكانك ، أنت تقف هنا . وتنتظر الإيعازات . الإيعاز الأول هو : استعد ! الثاني هو : جاهز ! في المرة الثالثة أعد حتى العشرة، وفي غضون ذلك تطلق النار عارضاً نفسك جانبياً لخصمك ، بحيث تقدم له هدفاً أصغر حجماً إذن ، استعد ، جاهز ، واحد ، اثنان ، ثلاثة . . .

في هذه اللحظة قطعت الضجة طلقة مسدس حقيقية . فقد أخرج معلم الاختزال ، الذي كان واقفاً في الجهة المقابلة ، مسدسه وأطلق النار . فقُتل مصباح كهربائي في فرقعة زجاج مكسور .

ثم قال تورنيوغومبي ، الذي جعلت الطلقة لونه يمتقع : – يجب أن يعتاد هذا الرجل على صوت السلاح .

لم تقع أية خسارة أخرى . كانت إلزاماعناش تداعب يد الصحافي ، الذي عاد إلى مكانه . وبالمقابل ، عندما وصل الخادم بقائمة الحساب محمولة على صينية فضية صغيرة ، وهو ينظر ، من جهة أخرى، نظرة تذكر بنظرة صبية أزقة الضواحي ، انتبه صاحبنا نيتوس إلى أنه لن يبقى معه ، بعد دفع قائمة الحساب ، إلا عشر كرويزرات في أحسن الأحوال ، بالضبط مايكفي (بخشيشاً) للبواب عندما يعود إلى منزله ، وبشرط أن يقتطعها بمهارة من (بخشيش) الخادم . اختفت إلراماعناش باتجاه المغاسل . وصعد هذان السيدان إلى عربتهما وصاحا من الباب بالصحافي :

– غداً بعد الظهر ، في الساعة الرابعة والنصف ، في ثكنة « فرانسوا – جوزيف » .

كانت حال سلاكي الذهنية ، لكثرة ماشرب من (لشمبانيا) ، ماتزال لاتؤهله لتقدير الموقف المشؤوم الذي يورط فيه . وبينما كان يسير بخطى مترنحة على طول شارع (اندراس) ، كان ينقّب في جيوبه بيد ملأى بالأمل ، عسى أن يكتشف قطعة النقود ، التي كان من عادته أن يخفيها عن نفسه ، إذا صح التعبير . كان سيجد من الطبيعي تماماً أن يقع على قطعة من ذوات الخمس فلوريات في قعر جيب من جيوبه ، حيث اقتطعها من السلفة التي قبضها من الصندوق ، كما كان من عادته أن يفعل عندما كان الصحفيون المرحون يتجمعون في إدارة التحرير لكي يتبادلوا التنقيب في جيوبهم . . وكانو يصرخون : « حياة بوهيمية » ، عندما كانوا يفحصون في إجبار تيتوس على الوقوف كما ولدته أمه « في لباس آدم » . أما هذه المرة ، فقد تبين ، على العكس ، أن البحث عقيم ، وإذا كان مايزال لدى تيتوس شيء من النقود ، فلا بد أن تكون هذه النقود في جيب سرّي . ويكون قد أتقن إخفاءها عن نفسه ، فلا يمكن العثور عليها إلا بعد موته ، من قبل ذلك الذي سوف يبيع بنطاله ، وفي أثناء المساومة مع تاجر الثياب الرثة يتدحرج الفلورين الفضي من الجيب . وبدءاً من هذه اللحظة سار بخطى واسعة باتجاه مقهى (فيريتسي) . حيث كان يعتقد أنه سيجد نفراً من الأصحاب يقصون الليل بالتأكيد في مناقشة حياته وموته .

لكنه فوجئ مفاجأة عظيمة إذ وجد مقهى (فيرتسي) فارغاً ، فلم يكن الصحفيون متحلقين حول الطاولة المستديرة أمام الصندوق ، مختالين بأهميتهم أو مذلّين بإفلاسهم . فلم يكن هناك إلا أولغا ، التي كانت في مكانها واهنة كئيبة يائسة ، شأنها في كل مرة يبدأ الضوء فيها في الشروق ، وتنقضي مرة أخرى ليلة دون أن يحدث شيء . توقف الصحفي ، وقد صحا من سكره ،

قرب عرش محاسبة الصندوق ، وخاطبها على هذا النحو :

– ياصغيرتي أولغا ، ياقلبي الصغير ، ها قد جاء اليوم الأخير لتقرري إذا كنت تريدين أن تكوني زوجتي .

كان ظاهراً للعيان أنها لم تكن المرة الأولى التي تسمع أولغا فيها سبلاكي يقول هذا الكلام ، لأنها لم تُبدِ أية دهشة . نظرتها وحدها صارت أكثر كآبة ، واهتز الشغل بين يديها .

قال تيتوس في حماسة ، وكأنه يريد أن ينسى ليلته . ونقوده المبدّدة ، وإفلاسه الراهن بأن يتلمظ بكلمات يبدو أنها تسليه هو نفسه : – ياصغيرتي أولغا ، ياصغيرتي أولغا ، سأموت مطمئناً أكثر بكثير ، لو استمر اسمي ، ولو حملته أرملة فقط . السيدة أرملة سبلاكي ! لن يكون وقع ذلك سيئاً كما تظنين ياأولغا .

قالت أولغا : – السيدة أرملة تيتوس سبلاكي .

وتناولت قلم رصاص وكتبت به على هامش ورقة الصندوق : السيدة أرملة تيتوس سبلاكي ، وأحاطت الاسم بدائرة ، وكأنها تريد أن تحتفظ به في ذاكرتها إلى الأبد .

كان تيتوس متحمساً يتلمظ ، مثل أولئك الرجال الذين نادراً مايجدون الفرصة للحديث عن أنفسهم .

– لن أخلف ورائي قطة إذا متّ . . أما اسمي ، فسيذكره الصحفيون يوماً أو يومين ، ثم لن يلفظه أحد في البلاد أبداً . ولا حتى بالمصادفة . ولكن إذا بقيت سيدةٌ أرملةٌ لسبلاكي في هذه الحياة الدنيا ، أرملةٌ ربما زارتني أحياناً في قبري ، فإن موقفي تحت في القبر سيصبح أيسر على الفور . وقد يقول الناس إن سبلاكي هذا لم يكن الأخير بين الأخيرين . فقبل موته وفى بالتزام الشرف وأنجز الوعد الذي طالما قطعه لمحاسبة صندوق مقهى (فيرينتسي) . وقد تحيط هالة بذكراي ، لأنني لا أكون قد عشت حياة طائشة تافهة ، يوماً بعد يوم ، بل لأنني أكون ذا هدف في الحياة ، وأكون قد حققته .

فعلت هذه العبرات العاطفية فعلها ، لأن أولغا مدّت يداً إلى زجاجات العرق ، في حين كانت ، باليد الأخرى ، تلمّع قدحاً صغيراً . قالت :

– أعتقد جازمة أن هذا العرق الفصحي المصنوع من الخوخ هو العرق الذي يشربه اليهود التقليديون عادةً . ومن هذا العرق يشرب صاحب المقهى دائماً .

ابتلع سلاكي العرق بابتسامة وداع متعبة . فأنعشه الكحول ، وأراد أن يتابع الحديث . ولكن أولغا نظرت إليه بهيئة جدية وصرفته إلى بيته ، قبل أن تتملكه نوبة عاطفية جديدة . قالت :

– سنكمل الحديث غداً .

فأجاب تيتوس بصوت أبحّ بفعل الكحول :

ـ هل تظنين ؟

فأجابت أولغا : ـ لدي شعور بذلك .

ومدّت يدها إلى سبلاكي .

هل تعجبت قبعة الصيد الخضراء والعصا ـ المظلة عندما وصلت أخيراً ، وبعد طواف طويل ، إلى منزل سبلاكي ؟

كان سبلاكي يرمي نفسه دائماً على سريره كل صباح ، وكأنه عائد من العالم الآخر . لكي يرجع طفلاً نائماً منطوياً على نفسه مثل الجنين ، تحت إعلان وفاة موشح بالسواد معلق بالقرب من رأس النائم . وكان إعلان الوفاة هذا ـ أو ، كما كان يقال في ذلك العهد ، هذا النعي ـ يشير إلى أن السيدة روبير سبلاكي قد ماتت في الثانية والثلاثين من العمر ، إثر مرض طويل . والسيدة روبير سبلاكي هذه كانت والدة تيتوس ، وكان إعلان الوفاة هذا يؤلف ثروة تيتوس كلها . لم يكن هذا ثروة كبيرة ، ولكنه كان كافياً في نظر إنسان حساس .

فلنصف غرفة سبلاكي . كانت كبيرة مثل بندقه مثقوبة . غير أن ثقب القفل ، الذي يمكن للمرء أن يتجسس منه على مايجري في داخل الغرفة ، كان دائماً مسدوداً بخرقة من القماش . وعلى الباب ، من الخارج ، كانت هناك ورقة صغيرة لاتنفك تهتز بفعل تيار الهواء ، الذي يجتاز ممر هذا المنزل القديم الواقع في مركز المدينة . كانت هذه الورقة المكتوبة تقول : « سأعود حالاً » ، ولكن المستأجر لم يكن يأتي أبداً .

وقد قام الزوار التالي ذكرهم بزيارة للصحافي نصف النائم :

صانع إسكافي قصير كان يمسك بيده ورقة صغيرة وسخة جداً ، ويضغط عليها حتى إنه يخيل للناظر إليه أنه ولد معها . بقي بضع لحظات واقفاً أمام الباب ، وقد بدت الدهشة على ملامحه ، وكأنه يراه للمرة الأولى مع هذه الكتابة الفريدة ، ثم تاه نظره البراق في باحة المنزل ، وانضم إلى الموكب الذي كان يرافق في تلك اللحظة مغنياً أعمى من بيت إلى بيت .

وتعرف الصحافي على وقع خطى خياط كان يقوم بزيارته على مدى سنوات ، مثل عاشق بلا أمل ، وعندما كان ينجح في اجتياز الباب خلسة ، كان يبدأ خطابه دائماً بقوله إنه بالمصادفة كان ماراً من هنا ، لأنه لايريد أن يزعج السيد سبلاكي من أجل مبلغ زهيد كهذا . كان تنفس الخياط يكاد يُسمع أمام الباب ؛ وقد قرفص أمام ثقب القفل ، وصاح بمختلف أنواع الملاطفة الموجهة للصحافي :

ـ أريد فقط أن أراك ياسيدي المحرر . لقد أتيت فقط لأتمنى لك حظاً حسناً . فقط لكي أطمئن قليلاً ، لأن دوري سوف يأتي بين يوم وآخر . دعني أدخل ياسيدي المحرر العزيز ، وأقسم لك بأنني لم أحضر (الفاتورة) معي .

غير أن تيتوس اندس أكثر تحت الغطاء ، وهزأ بألطف العبارات . وبعد هذا كله ، فإنه لم يكن عبثاً أنه كتب على الباب أنه عائد في الحال . فليس على الخياط إلا أن ينتظر ، إذا رغب في ذلك . ذهب الخياط ، ثم عاد فجأة ،

وأخذ يصرخ غاضباً من ثقب القفل :

— سأقيم عليك دعوى بالتأكيد ، إذا لم تدعني أدخل فوراً !

وانتظر الخياط ، لكن سلاكي لم يتحاذل ، ومع ذلك بدأ يشعر بالاضطراب بسبب الورقة الصغيرة المشؤومة التي علقها على الباب .

وأصغى سلاكي . لأنه في آخر الأمر رجل طيب . والندم يملأ روحه إلى خطى الخياط اليائسة تبتعد عن بابه . لم يرد حقاً أن يلحق إهانة بالرجل الطيب ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستثنيه .

ولكن خطوات كانت تهز المنزل اقتربت من الدرج اللولبي ، الذي يصل — في هذا المنزل القديم من المدينة — بين الطابق الأول والطابق الأرضي . وهو درج تساءل تيتوس في دهشة عندما رآه كيف يمكن إنزال التوابيت عليه . كانت الخطوات المقتربة من الخطوات التي تنذر بالشر ، خطوات هائجة ، تكاد تكون خطوات هجوم تتقدم من باب تيتوس وكأنها تحمل معها ، على الأقل ، أوامر من السلطة . لقد كانت خطوات قاسية وهمجية ، خطوات متعصبين يقتربون من ضحيتهم .

عرف الصحافي صاحب هذه الخطوات : إنه السيد مونك البائع بالدين ، الذي كان محبباً إلى النفس مثل باب السجن . كان السيد مونك رجلاً طويل القامة ، أحمر ، سميناً ، حدد لنفسه هدفاً في الحياة أن يرى نفسه يتقاضى نقوداً بالتقسيط من جميع سكان المدينة . انطلق السيد مونك في ضحكة صاخبة ساخرة عندما رأى الورقة على الباب ، وقال :

- حسن جداً . ياسيدي المحرر الجزيل الاحترام ، حسن تماماً .

وكان بوسع المرء أن يسمعه يصرف بأسنانه . ويمخ . ثم يمسح عرق جبينه بمنديل كبير من القماش .

كان يردد : - هذه فضيحة .

وبعد أن تزود بكرسي من مكان ما ، اتخذ لنفسه مكاناً أمام الباب .

وخمّن الصحافي مَن من بين أعدائه يمكن أن يكون أعطى كرسياً للسيد مونك . البواب ،ربما . . أوقابلة من الجوار لايمكن أن تتوقع شيئاً من تيتوس. قال تيتوس في نفسه في كآبة : « البشر شريرون ويسعدون دائماً بأذى الآخرين » ، وهو تحت إعلان الوفاة ، الذي كان يبدو وكأنه نعيه الشخصي . لم يكن يشعر أبداً أن لديه من القوة مايجعله يجابه السيد مونك . كان يشعر بالعجز حتى إن ذلك كان مريحاً تقريباً ، لأنه ، على الأقل ، لم يكن عليه أن يقوم بأية حركة . تماماً مثل أصحاب الأمراض المستعصية ، الذين يستسلمون لقدرهم ، فلا يعتمدون إلا على حدوث معجزة ولكن المعجزة نفسها ، مع السيد مونك ، لن تجدي نفعاً . فقد اتخذمكانه أمام الباب ، ومن داخل الغرفة كان يُسمع وهو ينخر ويتجشأ ويتنحنح لتنظيف حنجرته . وكأن السيد مونك ، خلال انتظاره ، يتمرن على أن يكون منفراً قدر المستطاع . وسمع أيضاً حفيف صحيفة تفرك بين يدي السيد مونك ، ثم تقلب صفحات دفتره الصغير . وسمع أيضاً بوضوح حفيف الورق تحت سن قلم الرصاص ، لما كان يكمّل كتابة ملاحظاته . وهكذا

توجد في الحياة لحظات فظيعة كهذه . فلا تستطيع أن تتخلص من ثقل يبعث على السخط يثقل على قلبك . لقد كان السيد مونك ذ وطأة ثقيلة جداً .

وبتأثير هذا العذاب ، رقد الصحافي نصف ميت في سريره،لايجرؤ على الحركة ، لأنه كان بوسعه على هذا النحو أن يأمل في أن يعتقد السيد مونك — هذا في أحسن الأحوال — أنه نائم ، فلا يجأر بهذا الصوت الشنيع المزعج الذي لايطاق . والذي كان يستخدمه في اضطهاد مدينيه حتى في العالم الآخر .

كان صاحبنا الصحافي . في تلك اللحظة ، يفضل أن يجد نفسه أمام مسدس العقيد على أن يكون تحت حراسة السيد مونك . فطلقة المسدس تنطلق في ثانية واحدة — كان قد سمعها في هذه الليلة — ولكن السيد مونك يمكن أن يبقى جالساً ساعات بطولها أمام الباب . ومن جهة أخرى لم يكن السيد مونك يشعر بالضجر . على عكس مايمكن للمرءأن يظن. كان يسعل .بطريقه واحد منسكان المدن،برصانة ثم بطريقة فلاح يريد أن يتلذذ حتى بالسعال . كان يحك.يحك راحة يده ورأسه ،وينظف داخل أذنه بعود من الكبريت ، وهي عملية يئن في غضونها متلذذاً ، ثم يحك ساقيه إحداهما بالأخرى . يوجد أناس لايضجرون أبداً ، لأنهم يجدون دائماً في جسمهم مايشغلون به أنفسهم . وهكذا فإن السيد مونك ، عندما لم يعد يعرف ماذا يعمل ، خلع حذاءه المطاطي وبقي جالساً بالجورب .

ومن حسن الحظ أن هناك أحداثاً تزعزع أقوى الصامدين.وكان هذا الحدث ،

في حياة السيد مونك ، أنه سمع صوت جرس يقرع في قبة قريبة من قباب أجراس المدينة . كان جرس الظهيرة ، الذي يوقظ في كل إنسان أفكاراً خاصة ، حتى عندما يكون اسمه السيد مونك . بدأ السيد مونك يجدّف بصوت منخفض ، ثم أخذ يجدّف بصوت عالٍ ويخبط على الباب بقبضتي يديه وبرجليه دون توقف ، وكأنه عزم على إثارة فضيحة بذي ثمن في « اليوم الأخير » من حياة الصحافي . ولكن هذا بدأ يتنفس الصعداء ، لأنه حسب إلى متى يستطيع مونك أن يتحمل الحصار . صحيح أن السيد مونك قادر على الاستمرار في ضجته طويلاً ، لأنه متدربٌ كما ينبغي على مثل هذه الأمور . ولكن تيتوس ، في المقابل، كان، هو أيضاً ، قد أعدّ نفسه من خلال ساعات العذاب الطويلة على الهجوم الأخير ، وكان يقدّر أنه من الحماقة أن يستسلم في حين تقترب المعركة من نهايتها . وفي هذه الأثناء ، وصل السيد مونك ، في الجانب الآخر من الباب ، إلى استنزال اللعنات ، أما سبلاكي، فقد جلس على حافة سريره، لعلمه بأن السيد مونك يوشك أن ينتهي إلى إرهاق نفسه بضجة لعانه .

خسر السيد مونك المعركة فنزل ، وتوقف على الدرج بين وقت وآخر ، وكأنه ينقّب في رأسه بشأن أمر من الأمور ، وفي نهاية المطاف سمعت آخر خطواته ، فكان وقعها كوقع الذكرى التي تعدو مستحبة في النهاية . وبعد أن تخلص سبلاكي من السيد مونك ، تفحص قبعته وعصاه في ضوء النهار كانت هذه الأشياء زخرفية في النهار أيضاً ، ومع ذلك ، فإن أثرها في الليل أعظم .

كانت تبدو عليها الآن آثار القدم ، لأنها بقيت طويلاً في ركن المقهى . وتعزّى الصحافي قائلاً في نفسه إن قيمة الأشياء الجديدة ، بوجه الإجمال ، أقل من قيمة الأشياء المستعملة ، طالما أن كبار السادة يجعلون خدّامهم يلبسون لهم أحذيتهم الجديدة لكي يليّنوها . فتمعن برهة طويلة يتأمل القبعة والعصا ، إلى أن انبجس من جهة القلب قلق غريب قاتل جاء على حين غرة ، حتى إنه أوشك أن يسقط على سريره . فقد خطرت بباله مبارزة بعد الظهر ، فهو ، في الحقيقة ، لم يجد متسعاً من الوقت للتفكير فيها بسبب زوّاره . فالمرء ينسى الموت في بعض الأحيان، عندما يعاني مضايقات أخرى .

لم تفارق فكرة الموت سبلاكي لحظة واحدة ، طول الوقت الذي كان منهمكاً فيه بارتداء ملابسه حزيناً ، وغسل وجهه يائساً ، ومضمضة فمه بالماء طويلاً . كان يكاد يرزح تحت وطأة الخوف ، فريسةً للدموع التي تترقرق فلا تفلح في شق طريقها ، رغم شدة شوقه إلى البكاء من أعماق قلبه .

– لو استطعت أن أبكي ، لصار حالي أحسن على الفور .

دمدم بذلك بينه وبين نفسه عندما جلس على أحد المقاعد، وأحس باقتراب الدموع المفرّجة . غير أن هذه الدموع لم تكن تريد أن تأتي . فليس إلا النساء لهن القدرة على البكاء عندما يُردن . كلا . مهما نادى دموعه لن تسيل . ارتدى ثيابه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وانطلق إلى العالم الفسيح دون أن يبكي .

كان حظه ، مع ذلك ، حسناً ، لأنه لدى دخوله إلى مكتب توزيع جريدته، وجد هناك رئيس التحرير ، الذي كان مشهوراً بأنه لايستطيع أن يرفض طلباً

لأي شخص، بدافع الغرور أو بدافع النزوة العابرة. فكأنه يريد أن يبرهن دائماً إلى أي حد كان يهزأ بشؤون المال ، رغم أن المحامين كانوا يستصدرون ، والحق يقال ، قراراً بالحجز ضده كل أسبوع . شن سبلاكي « هجوماً مستميتاً » . واعترف لرئيس التحرير بأنه أنفق آخر قرش من السلفة التي قبضها بالأمس ، وأنه لم يبق معه من النقود حتى مايكفي ثمناً لطعام العداء . فنجح « الهجوم » ، أو لعل ذلك كان بتأثير القبعة والعصا؟ كان رئيس التحرير يحب أن يظهر العاملون معه بمظهر لائق « في ميدان الشرف» ، لهذا دفع عشر فلورينات لسبلاكي ، الذي أخذ يفكر ، هذه المرة ، في أحداث بعد الظهر باستبشار أكبر حقاً . مرّ بثلاثة مقاه ، حتى وجد في نهاية المطاف مقهى لايزال بالإمكان أن يأكل فيه طبقاً من لحم البقر المسلوق ، وهو طبق صاحبنا الصحافي المفضل ويبدو أن الحظ كان يحالفه ، لأن طبق اللحم هذا كان جيداً حقاً حتى إن زبائن الموائد المجاورة نظروا إليه في حسد . وعلى كل حال ، فإن هذا الطبق كان دائماً تتبعه عيون أكثر الناس إغراقاً في اللامبالاة ، عندما يمر الخادم به . فيقيسونه ، ويقدرونه ، ويشتهونه ، ويحسون بطعمه . كانت قطعة لحم الصحافي ضخمة ، فقد كانت موضوعة جانباً لأجل صاحب المحل نفسه ، ولكن هذا تنازل عنها في نهاية المطاف لصالح الزبون المجهول ذي قبعة الصيد والعصا . واعترافاً بالجميل ، طلب سبلاكي حصتين من المرق. من المرق بالخردل .

والحق أن سبلاكي لم ير أن حظه بدأ يغيّر مجراه ، إلا بعد أن أكل هذه القطعة الطيبة الذكر من لحم البقر المسلوق . وقد غيّر مجراه إلى حد أنه مايزال على قيد

الحية في مكان ما ، هذا إذا لم يكن قد توفي . فرصاصة العقيد لم تصب سبلاكي ، أما رصاصة سبلاكي فقد أصابت العقيد تماماً ، فمات متأثراً بجرحه ميتة جندي شجاع . وكان خادم مكتب إدارة التحرير هو الذي دفع أجرة العربة التي عاد سبلاكي بها من المبارزة . فلم يلُمْه على ذلك .



الشاعر آبولينير

□ تقديم : أندريه بيللي
□ ترجمة : أديب عاقل

إن نشر مايقرب المائة من أكثر قصائد « أبو لينير » تعبيراً في مجموعة « كتاب الجيب » يسجل مرحلة في توسع عدده.إن اصدقاءه القدامى ليتصورون بسهولة الرضى الذي كان سينعم به من جراء ذلك ولو بقي إلى اليوم حياً لما تجاوز الثمانين وعلينا أن نعترف بتأكيد أنه كان سيحتفظ بكامل نضارته الروحية وكامل كفاءته في إثارة الاعجاب . قصائده في كتاب الجيب .

يالها من مفاجأة مدهشة !

إن جمهوراً جديداً إذن سيقرأه وقد طلب إلي أن أقول لهذا الجمهور بكلمات قليلة أي إنسان أو شاعر أو كاتب كان يمثل .

لقد ولد في روما عام ١٨٨٠ وهو ابن احدى الارستوقراطيات البولونية « انجليكاده كوستروروفيسكي » ومن المحتمل جداً أنه ابن أحد النبلاء الايطاليين هو ضابط قديم في خدمة ملك نابولي تطوع في بداية حرب ١٩١٤ في المدفعية وانتقل إلى المشاة بدافع شريف،وبميل لتذوق الخطر ،وجرح جرحاً بليغاً في رأسه بشظية قبلة.وثقب عظمه مرتين،وأخيراً أصابته الحمى الاسبانية فأودت به قبيل عشية الهدنة وبعد طفولة رومانية كاثوليكية لم يعرف عنها شيء ودراسات

جدية في « موناكو » « وكان » و « نيس » ، قضى عهد مراهقة حوالة وكان شبابه متشرداً وعسيراً . فمن تدريس لدى كونتيسه المانية إلى استخدام في في مصرف إلى مساعدة في صحف صغيرة . وكان هذا الخلق المتمكث الحائر قد حافظ عليه طوال حياته دون أن يعرف الفقر . فكان عور شهر تتوه غطة الشهر التالي إلا أن ظل « الحلكا » المخيف لم يكف عن التخييم على أيام اعزيز « وهلم » ولياليه . وفي الوقت نفسه الذي كان فيه أديباً ومتعدد المهارات ، كان صحفياً من نوع مألوف في زمن لم يكن فيه للمهنة الثبات الذي اسبغه عليها القانون بعدئذ. على انه يمكننا القول انه بوصفه شاعراً ، قد عاش على الدوام عيشة شعرية دون التوقف عن ان يخلق حوله ظروفاً غير عادية وغير متوقعة . وفي سن العشرين كان قد اكتسب اكليل الغار إذ تميز في الجبهة .

ولن أقول سوى كلمة واحدة عن تأثيره الهائل على الفن الحديث وبخاصة على مستقبل التكعيبية وأبطالها لاسيما « بابلو بيكاسو » لتاثر في الفن كما هو تاثر في الشعر . ان الفن التجريدي الذي حالفه في أيامنا حظ عريب قد وجد منذ خمسين سنة تحت أولى تبريراته في بحوث أبو ليبير الحمالية . ونظراً لضيق الفسحة المتروكة لي هان هذا كل ما أقوله هنا عن هذا الجانب « الا بولونيري » وعلي مع ذلك ان ألمح إلى سلطته التي كانت على قدر قيل من الاستبداد والتحذلق وكانت وافرة الحرية والصداقة التي مارسها على الرسامين والشعراء الكلفين بالمغامرة والبحوث . وعلي أن أذكر كم كان له العديد من الأصدقاء وأية حلقة أحاطت به وأي اشعاع أو نفوذ قد تأثر بهما مئات الفنانين والكتاب القريبين والبعيدين والفرنسيين والغرباء لدى معاشرته .

وقد شب « أبو لينير » في الشاطيء اللاروردي (كوت دازور) في جو العصر الجميل فظل عالمياً . وإذا كانت الكلمة قد فقدت معناها الذي كانت تؤديه في عهد الأمير الأصيل وكازانوفا ، فانها تستعيد كامل قوتها عندما تطبق على « غويوم » . فهو عالمي بمولده وعالمي بنشأته وعالمي باسماره وعالمي بصداقاته وعالمي بتأثيره وعالمي بموضوعات إلهامه في الشعر والنثر وهو يمثل من جهة ثانية أحد أجمل الأمثلة للاستيعاب. ولعله أجمل الأمثلة التي انتحتها لغتنا ووعينا الأدبي على مدى الأزمان . وهذا السلافي الذي يحتمل أن يكون ايطالياً بالنسبة لابيه ، كان أحد شعرائنا الأكثر افرنسية ضمن تقليد حقيقي من « ده فيللون » إلى « لا فونتين » إلى « جيرار ده نيرفال » إلى « بودلير » إلى « فيرلين » . وهو تقليد قد وسعه إلى الحدود القصوى المسموح بها . ويشكل عمله الشعري في يومنا هذا قسماً من تراثنا الأكثر قيمة ليس فقط في حقل الكتاب وليس فقط على طاولة غرفة نوم جميع المثقفين من شباب ومسنين بل أيضاً في الشعر المروي. وفي الالقاء والغناء والاسطوانة والاذاعة وحتى في التلفزيون والسينما . أن « غويوم أبولينير » زمنياً آخر الشعراء الذين حفظ لهم الشبان والشابات عن ظهر قلب اشعارهم . وبعده تنازل الشعر عن كل فضيلة ذاكرية حارماً نفسه من قسم كبير من سلطته .

وبهذا المعنى تسنى القول بان « أبولينير » كان شاعرنا الأخير ، وهو رأي يجب إلا تأخذه على علاته بكل تأكيد وعلى كل حال مما لا جدل فيه أن « أبولينير » كان آخر شاعر عاطفي كبير وآخر رثاء عظيم . وإذا ما وصفت المرثاة بأنها قصيدة من وحي حزين وحنون ، وإذا كان على الأقل أحسن مالدى « أبولينير »

مما له أكبر الأثر في نفوسنا وما اكسبه شهرته ، له صلة بالمرثاة المفهومة على هذا الوجه ، يمكننا ان نقول بل يجب علينا القول بأن ناظم « الكحول » « والكاليغرام » كان آخر رثّائينا وبه قد اكتمل التطور الذي بدأ « بشينييه » وتتابع حتى « فرلين» وفي المرثاة يجب الا يتحدث سوى القلب كما قال « بوالو » الذي كان أخذ على « أبو لينير » الحريات لتي تبناها إلا انه ما كان انكر عليه صفة الرثاء لان القلب وحده هوالذي تكلم في قصائده تلك الجديرة بان تسمى بالمراثي.وهناك قصائد أخرى تنؤية وحربية وغنائية صرف أو مرتجله بطريقة التلهي وهي أقل استجابة لهذا التعريف إلا أنها لا تخلو من أناقة المرثاة ورقتها .

لقد كان أبو لينير شاعراً عظيماً لانه كان حائزاً صفات الشاعر العظيم الاساسية البالغة فيه أعلى الدرجات : كالانفعال والغناء الموضوعين في خدمة سلطة نادرة من الايحاء والالهام وقد حاول متهالكاً كأنه مقامر تحويلهما لمصلحة جمال جديد ابتدأ هو نفسه في نهاية الأمر بالتشكك فيه إلا أنه أراد أن يكون لقضيته ملتزماً مستعداً للتخلي عنه يوماً ما مع مراسم التكريم الحربي : فالموسيقى وتلك الجاذبية التي لا توصف التي ينغمس بها الشاعر ويشارك في أحزانه بني جنسه وأفراحهم هما اللتان تضفيان على أشعاره الخلود .

ولقد سمعنا التحدث عن اسطورته وكأنه لم يوجد حقيقة كما يصفه أولئك الذين عرفوه وقد ركزوا بصورة مبالغ فيها على سحر شخصيته وطرافتها مبرزين ملاءمة ومسبغين عليه خيالاً مبدعاً وابتكارا في السلوك لم يكن يملكهما إلى هذه الدرجة . أما بالنسبة لنا نحن الذين كنا أصدقاءه فان هذه الاسطورة غير موجودة وهي لم توجد قط . وعلينا إلا نتردد في القول على الأصح ، ان « أبو لينير »

كان اسمى منها . ولقد برهن في كل لحظة من مروره القصير أكثر مما ينبغي بيننا ، عن مواهب أكثر مما ذكر عنه ومما كان يستطاع أن يذكر عنه لان الكنوز من اللطافة والخيال المبدع والدقة في المعرفة التي كان يغدقها في علاقته قد ضاعت ولقد تركناها تفقد وكنا أكثر لامبالاة من أصدقاء أوسكار وايلد ذلك الساحر الآخر الذي كان « أبو لينير » من مدرسته دون حيازة سحره الماذق .

ولكي نتحدث عنه بصورة ملائمة ينبغي امتلاك قدرته في التجلي فلقد كان كان يتجلى هو نفسه في حياته ويجلّي باسلوبه الخاص كل ما كان يقع تحت متناول يده . وهذا هو الشيء الذي مع لحظه الجميل وابتسامته العذبة وطرقة التي لاتقاوم في إثارة الاعجاب والمغفرة له ، لم يدخل ضمن « اسطورته » والذي اختفى إلى الأبد .

* * *

الأفعى

انك تتهالك على الجمال
فمن هن النساء اللواتي
كن ضحايا قساوتك
حواء ، أم أوريديس ، أم كليوباترا
انني أعرف أيضاً منهن ثلاثا أو أربعا أخريات

القطة

أتمنى في بيتي
امرأة تملك عقلها
وقطة تتسلل بين الكتب
وأصدقاء في جميع الفصول
لاأستطيع الحياة بدونهم

الجمل

بجماله الأربعة
دون بيدرو دلفاروبيرا
جاب العالم وأعجب به
لقد فعل ما كنت أريد فعله
لو كان لدي أربعة جمال .

السرفة

يوصل العمل إلى الغنى
لنعمل نحن الشعراء أيها المساكين
ان السرفة بجهدها المتواصل
تصبح الفراشة الغنية .

الاخطبوط

إنه ينفث حبره الأسود نحو السماء
ماصاً دم من يحب
وواجداً أنه لذيذ الطعم
إن ذلك الشيطان اللاإنساني هو أنا .

المدوسة أو رئة البحر

أيتها المدوسات يارؤوساً تعسة

ذات الشعور البنفسجية

إنك تسرين في العواصف

وأنا أيضاً أغتبط بها مثلك

السرطان

انه الشك آه يا ملذاتي

أنت وأنا نذهب

كما تذهب السرطانات

القهقرى القهقرى

أورفيه

ان انثى طائر الأليسون

وكذلك الحب وجنيات البحر الطائرة

تعرف أغاني مميتة

خطرة ولا انسنية

لا تنظروا إلى هذه الطيور اللعينة

بل إلى ملائكة الفردوس

الطاووس

ان هذا الطائر عند صنعه الدولاب
الذي يجرر ريشه على الأرض
يبدو أيضاً أكثر جمالاً
إلا انه يكشف عن مؤخرته .

البوم

ان قلبي المسكين بوم
يدقونه بالمسامير وينزعونها عنه ثم يعيدون تسميره
من حيث الدم والنشاط قد خارت قواه
أنني أثني على جميع من يحبونني

* * *

الكحـول

منطقة

وأخيراً انك لتعب من هذا العالم القديم
أيها الراعي يا برج ايفل ان قطيع الجسور يثغو هذا الصباح
لقد كفاك عيشاً من الاثار اليونانية والرومانية

وههنا حتى السيارات تبدو وكأنها قديمة
الديانة وحدها بقيت جديدة كل الجدة الديانة
بقيت بسيطة كعنابر مرفأ جوي
وحدك في أوربا لست قديمة أيتها المسيحية
ان الأوربي الأكثر حداثة هو أنت أيها البابا بيوس العاشر
وأنت التي تراقبك النوافذ يمنعك الحياء
من الدخول إلى كنيسة والاعتراف فيها هذا الصباح
انك تقرأ النشرات والكتالوغات والاعلانات التي تغني بصوت مرتفع
ها هو الشعر هذا الصباح أما النثر فهناك الصحف
هناك التسليمات لقاء ٢٥ سنتيماً مليئة بالمغامرات البوليسية
صور عظماء الرجال وألف لقب مختلف

لقد شاهدت هذا الصباح شارعاً جميلاً نسيت اسمه

انه جديد ونظيف انه البوق المعلن لمعان الشمس
المدراء والعمال وموظفات الاختزال والطباعة الجميلات
من صباح الاثنين حتى مساء الجمعة أربع مرات يمرون فيه
وصباحاً ثلاث مرات تزمجر فيه الصمارة
ونحو الظهر ينبح فيه جرس حانق
وكتابات اللافتات والحيطان
واللوحات والاعلانات تصرصر كالببغاوات
انني أحب أناقة هذا الشارع الصناعي
الواقع في باريس بين شارع « أومون–تيفيل » وجادة « دي ترن »
ههنا الشارع الفتي ولست بعد سوى طفل صغير
ولا تلبسك أمك إلا الأزرق والأبيض
انك كثير الورع مع أقدم رفاقك « رينيه داليز »
انكما لا تحبان شيئاً حكما لاحتفالات الكنيسة
لقد بلغت الساعة التاسعة والستر مسدل ولقد خرجتما من قاعة النوم بالأزرق خلسة .
فصليتما الليل بكامله في كنيسة الكلية
في حين أن الاعماق الخالدة الرائعة كحجر الجمر الكريم تدير إلى الأبد مجد المسيح الوهاج

انها الزنبقة الجميلة التي نعرسها جميعا

انه المشعل ذو الخيوط الشقراء الذي لاتطفئه الريح

انه لابن المصفرّ القرمزي للأم المتألمة

انها الشجرة الكثيفة دائماً بجميع الصلوات

انها المشنقة المزدوجة للشرف والأبدية

انها النجمة ذات الفروع الستة .

انه حائز على الرقم القياسي العالمي في الارتفاع .

يتيم قاصر مسيح العين

الربيب العشرين من العصور يحسن التصرف

وهذا العصر قد تحول إلى طائر يصعد إلى السماء كما فعل المسيح

والشياطين ترفع رؤوسها من الهاوية لتنظر إليه

تقول انه يقتدي بسمعان المجوسي

وتصرخ انه يستطيع الطيران انه يدعى طياراً

والملائكة ترفرف حول إلجوال الجميل

ان « ايكار » « اينوخ » دايلي بولونيوس التياني

يسبحون حول أولى الطائرات
انهم يتفرقون أحياناً لتمكين حمنة القربان المقدس من العبور
وهم هؤلاء الكهنة الذين يصعدون أبد الدهر حاملين الذبيحة
وتحط الطائرة أخيراً دون طي جناحيها .
فتمتليء السماء حينئذ بملايين السنونو
ومسرعة تأتي الغربان والصقور والأبوام
ومن أفريقيا يصل أبو منجل والحام وأبو شعن
والطائر الصخر الذي عظمته الرواة والشعراء
يحوم حاملاً بين براثنه جمجمة آدم أول رأس
وينقض انسر من الأفق مطلقاً صرخة عظيمة
ومن أميركا يأتي الطنان الصغير
ومن الصين جاءت طيور البيهس الطويلة والمرنة
والتي ليس لها سوى جنح واحد وتطير أزواجاً
ثم هناك الحمامة ذات الروح الطاهرة
يواكبها طائر القيثارة والطاووس ذو الأجنحة المبقعة
والعنقاء تلك المحرقة التي تبعث نفسها
وتغشي لحظة كل شيء برمادها المضطرم

وتغادر عرائس البحر المضايق الخطرة
وتصل وهي تغني بطريقة جميلة ثلاثا ثلاثاً
والكل من نسر وعنقاء وبيغيس الصيني
يتآخى مع الآلة الطائرة

والآن إذا مشيت في باريس وحيداً بين الجمهور
قطعان من الاوتوبوسات التي تزمجر بالقرب منك تدور
ويأخذ بخناقك قلق الحب
وكأنه عليك ألا تكون محبوباً بعد الآن أبداً
ولو كنت تعيش في الزمن الغابر لدخلت أحد الأديره
ويستولي عليك الخجل إذا ما فوجئت متمتماً بالصلاة .
وتسخر من نفسك ويلتهب ضحكك كنار الجحيم
وتطلي شرارات ضحكك بالذهب ، أعماق حياتك
انها لوحة معلقة في متحف معتم
وتذهب أحياناً لتنظر إليها عن كثب

انك تمشي اليوم في باريس فتجد النساء مخضبات
وكان ذلك وأود ألا أذكر ، في زمن غروب الجمال

ان مريم العذراء المحاطة بلهيب الورع نظرت إلي في شارتر
ان دم قلب يسوعك قد غمرني في مونتمارتر
وأنا كلف بسماع الكلام المغبوط
والحب الذي أعاني منه هو مرض مخجل
والصورة التي تسيطر عليك تجعلك تعيش في أرق وقلق
ان تلك الصورة التي تمر هي على الدوام بقربك

انت الآن على شاطيء المتوسط
تحت اشجار الليمون المزدهرة طوال العام
وتتنزه مع أصدقائك في القارب
أحدهم نيسوي والثاني ما نتوتاسكي والثالث توربيا سكيان
وتتأمل بذعر الاخطبوط في الأعماق .
وخلال الطحلب تسبح الاسماك صورة المخلص
وإذا كنت في حديقة فندق بجوار براغ
فانك تشعر بنفسك سعيداً وعلى الطاولة وردة
وانت تراقب بدلاً من كتابة قصتك نثراً
حشرة السيتونية التي تنام في قلب الوردة .

وأنت مذعور ترى نفسك مرسوماً في عقيق سان فيت

وقد كنت حزيناً حتى الموت يوم رأيت نفسك فيه
فأنت تشبه لعازر الذي ذعره النهار
وتسير عقارب ساعة الحي اليهودي سيرا عكسياً
وأنت تتراجع أيضاً في حياتك ببطء
عندما تصعد إلى هرادشن وفي المساء عند سمعك
في الفندق أغاني تشكية

وها أنت في مرسيليا في وسط البطيخ

وها أنت في كوبلانس في فندق العملاق

وها أنت في روما جالساً تحت شجرة الزعرور الياباني

وها أنت في امستردام مع فتاة تراها جميلة وهي قبيحة
انها ستقترن بطالب من « ليبد »
حيث يؤجرون غرفاً باللاتينية كوبو كيلا لو كاندا
انني أذكر ذلك إذ قضيت فيها ثلاثة أيام ومثلها في غودا

وها أنت في باريس لدى قاضي التحقيق
وكمجرم يضعونك رهن التوقيف

لقد قمت بسفرات مؤلمة ومفرحه
قبل أن تلاحظ الخداع والتقدم في السن
وتألمت في الحب في لعشرين والثلاثين من عمرك
ولقد عشت كمجنون واضعت وقتي
انك لم تعد تجسر على النظر إلى يديك وفي كل
لحظة أود البكاء
عليك وعلى من أحب وعلى كل ما قدروعك

انك تنظر وعيناك تترقرقان بالدموع إلى
هؤلاء المهاجرين المساكين
انهم يؤمنون بالله ويصلون ، والنساء يرضعن أطفالاً
انهم يملأون برائحتهم بهو محطة سان لازار

انهم يؤمنون بحمهم كالملوك المجوس
ويأملون أن يكسبوا مالاً في الأرجنتين
وأن يعودوا منها إلى بلادهم بعد أن يكونوا قد جنوا ثروة
ان عائلة تحمل معها لحافاً من ريش أحمر كما أنت تحمل قلبك
ان هذا اللحاف واحلامنا كلاهما وهم

ان بعض هؤلاء المهاجرين يظلون هنا ويسكنون

شارع روزيه أو شارع ايكوف في حجرات صغيرة قذرة

ولقد رأيتهم مرارا في المساء يستنشقون الهواء في الشارع

ويتنقلون نادراً كقطع الشطرنج

وهناك على الأخص يهود تلبس نساؤهم شعرا مستعاراً

ويبقين جالسات فقيرات الدم في أعماق الدكاكين .

انك تقف أمام مشرب في حانة قذرة

تتناول قهوة بدرهمين وسط التعساء

وفي الليل أنت في مطعم كبير

ان هؤلاء النسوة لسن خبيثات ومع ذلك لهن همومهن

كلهن حتى اقبحهن قد عذبن حبيبهن

أنها ابنة رقيب من مدينة جرسية

ان يديها اللتين لم أرهما — قاسيتان ومشققتان

أشعر بالعطف الذي لا حد له لندوب بطنها

انني أحقر الآن فمي من أجل فتاة مسكينة ذات ضحكة مخيفة

انك وحيد والصبح قادم
وبائعوا الحليب يقرقعون بصفائحهم في الشوارع
والليل يبتعد هكذا كأنه من « ميثيف »
انها « فيردين » المزيفة أو « ليا » الحذرة

وأنت تشرب هذه الكحول المحرقة كما تشرب حياتك
حياتك التي تشربها كالخمر

انك تسير نحو « أوتوي » وتوداد تذهب إلى بيتك على قدميك
وان تنام بين الاصنام من أوقيانوسيا وغينيا
انها مسيح على شكل آخر ومعتقد آخر
انها المسيح الأدنى انها آمال غامضة
الوداع   الوداع
أيتها الشمس المقطو . المقطوعة .

جسر ميرابو

تحت جسر ميرابو يجري نهر السين وغرامياتنا
هل كان علي أن أتذكر
ان الفرح يأتي دائماً بعد الألم
ليأت الليل وتدق الساعة

ان الأيام تذهب وأبقى

اليدان باليدين نبق وجهاً لوجه
في حين تحت
جسر يدينا تغيب
عن أنظارنا الأزلية الموجه التعبة كل التعب
ليأت الليل وتدق الساعة
ان الأيام تذهب وأبقى
الحب يذهب كهذه المياه الجارية

الحب يذهب
كم بطيئة هي الحياة
وكم عنيف هو الأمل
ليأت الليل وتدق الساعة
ان الأيام تذهب وأبقى
تمر الأيام وتمر الاسابيع .
فلا الزمن الذي مضى
ولا الحب يعود
تحت جسر ميرابو يجري نهر السين
ليأت الليل وتدق اساعة
ان الأيام تذهب وأبقى

أغنية من أسيء حبه

كنت قد أنشدت هذه الأغنية العاطفية
عام ١٩٠٣ دون أن أعلم أن حبي مثله مثل
العنقاء التي إذا ماتت في إحدى الأمسيات
ترى في الصباح بعثها من جديد

إلى بول ليوتو

في مساء ما خفيف الضباب في لندن
جاء لمقابلتي صفيق
يشبه حبي
والنظرة التي رماني بها
جعلتني أغض الطرف خجلاً

تبعت ذلك الغلام السيء
الذي كان يصوفر ويداه في جيبيه
وكنا نبدو بين المنازل
كموجة مفتوحة في البحر الميت
هو العبرانيون وأنا فرعون

لتسقط هذه الأمواج القرميدية
إذا لم تكوني حبيبة
انني أتبع ملك مصر
وزوجته – شقيقته وجيشه
إذا لم تكوني الحبيبة الوحيدة

في منعطف شارع محرق
من جميع نيران واجهاته
جروح من الضباب حمراء كالدم
وحيث تنوح الواجهات
امرأة شبيهة بها

كانت بنظرتها اللا انسانية
وبالندبة في عنقها العاري
خرجت سكرى من حانة
في اللحظة التي اكتشفت فيها خلال الحب نفسه

عندما عوليس الحكيم أخيراً
عاد الى موطنه
تذكره كلبه المسن
وبقرب سجادة جد ملساء
كانت زوجته بانتظار عودته

واغتبط الزوج مثل ساكانتال
بعد أن تعب من انتصاراته
عندما شاهدها أكثر اصفراراً
بفعل الانتظار والحب ورأى عينيها باهتتين
وهي تداعب غزالها

لقد فكرت بهؤلاء الملوك السعداء
عندما جعلني الحب المصطنع مع تلك
التي لاأزال عالقاً بها
باحتكاكي بظلها الخائن
تعساً إلى ذلك الحد

الندم هو ماتبني عليه الجحيم

فلتنفتح لعينيّ سماء للنسيان

وفي سبيل قبلة منها مات

ملوك الأرض أولئك المساكين الشهيرين

ولأجلها كانوا باعوا ظلهم

لقد شخت في ماضي

لترجع شمس الفصح

لتدفئ قلباً أكثر برودة من أربعين « سيباست »

وأقل من حياتي المعذبة

يا سفينتي الجميلة ويا ذاكرتي

هل أبحرنا بما فيه الكفاية

في موجة لا يستساغ شربها

هل هذبنا كفاية .

من الفجر الجميل حتى المساء الحزين

وداعاً أيها الحب الكاذب
المختلط مع الامرأة التي تبتعد
مع تلك التي اضعتها
السنة الماضية في ألمانيا
والتي لن أراها ثانية .

أيتها المجره يا أختا مضيئة
لسواقي كنعان
والأجساد العاشقات البضة
ونحن السابحين الموتى هل
نتبع من الجهد مجراك نحو
سدم أخرى .



تكريس الحياة للحب

لقد مت الحب بين ذراعيك
هل تذكرين لقاءه
إنه مات وستعيديه
إنه سينبعث بلقائك

ربيع آخر ينقضي
إنني أفكر بما كان فيه من حنان
الوداع أيها الفصل الذي ينتهي
ستعود إلينا بالحنان نفسه

في الغسق الباهت
حيث يتدافع العديد من الغراميات
إن ذكرك يرقد مكبلاً
بعيداً عن ظلالنا المتراجعة

أيتها الأيدي التي تكبلها الذاكرة
الملتهبة كالمحرقة
حيث يأتي آخر العنقاوات

الكمال الأسود ليجم

إن السلسلة تفنى حلقة حلقة
وذكراك التي تسخر منا
تهرب ألا تسمعينها تتهكم علينا
أنني أسقط أمام ركبتيك ثانية

إنك لم تفاجئي سري
فالموكب الآن أصبح يتقدم
إلا أن لدينا تبقى الحسرة
لأننا لسنا متواطئين

إن الوردة تعوم مع مجرى المياه
ولقد مرت المظاهر الخادعة بمجموعات
وفي داخلي يرتجف كجلجل
هذا السر الثقيل الذي
تستجدينه

المساء يرخي سدوله في الحديقة
وهن يروين قصصاً إلى

الليل الذي ينشر شعورهن
السوداء ليس دون ازدراء

أيها الأولاد الصغار أيها الأولاد الصغار
إن أجنحتكم قد تطايرت
ولكن أيتها الوردة التي
تدافعين عن نفسك
إنك تصنعين أريجك الذي
لايجارى

إذا أنت ساعة سرقة
سوق الوردت والضفائر
اخطفوا صنوبر مياه الحوض
الذي يتخذ من الوردات خليلاته

كنت تغطسين في الماء الصافي جداً
وكنت أغرق في لحظك
الجندي يمر وهي تنحني
وتستدير وتكسر جذعاً

إنك تبحرين على موجة ليلية

واللهيب هو قلبي المنقب

لون خزف مشطك

يعكسه الماء الذي يغمرك

آه ياشبابي المهجور

كأكليل زهر ذابل

ها قد حل فصل

الازدراءات والظنون

المنظر مصنوع من نسيج

ويجري نهر خادع من الدم

وتحت الشجرة المزدهرة بالنجوم

المهرج هوعابر السبيل الوحيد

وهناك شعاع بارد يترشرش

ويتراقص

على الزخرف وعلى خدك

طلقة مسدس وصوت

وفي الظل ابتسمت صورة

زجاج الاطار قد تحطم
ونغمة لايمكن وصفها
تتردد بين الصوت والفكر
بين المستقبل وبين الذكرى

آه ياشبابي المهجور
كإكليل زهر ذابل
ها قد حل فصل
الندم والتعقل .

أشعار السلم والحرب
١٩١٣ — ١٩١٦

روابط

أيتها الحبال المصنوعة من أصوات
وأصوات الأجراس عبر أوربا
أيتها العصور المعلقة

أيتها الخطوط الحديدية لكي توثق الأمم
لسنا سوى شخصين أو ثلاثة متحررين
من كل رباط

لنمد سعدنا بعضاً إلى بعض

أيتها الأمطار العاصفة التي تلون الأبخرة

أيتها احبال

أيتها الحبال لمنسوجة

أيتها الحبال تحت البحار

وأبراج بابل المتحولة إلى جسور

والعناكب والعظماء

كل العشاق الذين ربطهم رباط واحد

والروابط الأخرى الأشد صلابة

أشعة ضوء بيضاء

حبال ووفاق

إنني أكتب لإثارتك فقط

أبتها الحواس أيتها الحواس العالية

أعداء الذكرى

أعداء الرغبة

أعداء الندم

أعداء الدموع

أعداء لكل ما لاأزال أحب

وداع الفارس

آه يا إلهي ! كم جميلة هي الحرب
بأناشيدها وفراغاتها الطويلة
هذا الخاتم قد صقلته
الهواء يختلط مع تنهداتك
الوداع ! هاك دقة الاسراج
وتوارى في منعطف
ومات هناك بينما هي
تضحك للقدر العجيب

تدريب

نحو قرية خفية
كان أربعة مدفعيين يتجهون
يغطيهم الغبار
من الرأس لأخمص القدمين
كانوا يتطلعون إلى السهل الفسيح

وهم يتحدثون فيما بينهم عن الماضي
ولايكادون يلتفتون
عندما زجرت قبلة

أربعتهم من الفئة السادسة عشره
وكانوا يتحدثون عن عمر الماضي لاعن المستقبل
وهكذ كان التقشف
الذي طال أمده يدربهم على الموت .

بطاقة بريدية

أكتب إليك تحت الخيمة
في حين يتلاشى هذا النهار من الصيف
وبين تفتح يبهر العيون
في السماء المائلة إلى الزرقة
تتلاشى أصوات مدفعية متفجره
قبل أن تتجسد .

عصفور يغني

إن عصفوراً يغرد لاأعرف أين

أظنها روحك الساهرة بين
جميع الجنود
والعصفور يشنف أذني

اصغي إنه يغرد بحنو
ولست أدري على أي غصن
وهو يتنقل في كل مكان
ليسحرني كل يوم وسط الأسبوع
ويوم الأحد

ولكن ماذا أقول عن هذا العصفور
ماقولي عن التحولات
وعن الروح المغردة على الشجيرة
وعن القلب المحلق في السماء
السماء الموردة

إن عصفور الجنود هو الحب
وحبي هو فتاة
الوردة أقل اكتمالاً

ومن أحلي فقط بح صوت العصفور

أيها العصفور الأزرق كالقلب الأزرق

لحبي ذي القلب السماوي

تغريدك العذب جداً

أعده إلى الرشيش المشؤوم

الذي يطقطق في الأفق

وبعد ، هل هي النجوم التي تبدو

هكذا تمضي الأيام والليالي

بالحب الأزرق كالقلب نفسه .

قوة المرآة

كنت حانقاً في أحد الأيام في الغرفة ذات السرير الأبيض

حيث كانت ليندا تنظر بإعجاب إلى وجهها

وحملت معي بفضل المرآة وأنا خارج

السبب الأول لتحولي إلى حانث بحبه

بدت ليندا ليست كالسابق

أما اليوم فإنني على الأقل أعلم أنها مزدوجة بفضل المرآة

وقلبي بدافع مايمليه عليه حبه
حانث الآن بالوجه الثاني

على أنني منذ ذلك اليوم قمت بالمقارنة
في الغرفة حيث تعكس المرآة سراباً صرفا
بين وجه ليندا ، والوجه المنعكس
إلا أن قلبي عند الاختيار خانته الشجاعة

وإذا كنت وأنا حانث دائماً أشك في الاختيار
فليس ذلك لأن السيدة تبدو في المرآة أجمل
فإنني أعبدها عندما تكون على حقيقتها
ولأنها تتلاشى عندما تشاء شقيقتها الصورية

إنني أعبد في ليندا هذه الصورة المنعكسة الخادعة
التي تصطنعها كاملة وهي شبه خرافية إلا
إنها حيوية حقاً وعصرية كما هو معروف عنها
إن سيدة المرآة حقاً خارقة

والمرآة حيث تجمد حركة حقيقية
تظل باردة على الرغم من عملها المقت

إن قوة المرآة خدعت أكثر من عاشق
ظن أنه أحب حبيبته
إلا أنه لم يعشق سوى سراب .

مونبارناس

ياباب الفندق وفيه غرستان خضراوان
حضراوان لن تحملا
أبداً أزهاراً
أين توجد أثماري وأين أقف
ياباب الفندق إن ملاكاً أمامك
يوزع النشرات
لم يدافع أحد قط عن الفضيلة أحسن مما دوفع عنها
أعطني بصورة دائمة غرفة أسبوعية
أيها الملاك الملتحي أنت في الواقع
شاعر غنائي من ألمانيا
أردت أن تتعرف على باريس
إنك تعرف من بلاطها
تلك الخطوط التي يجب ألا يسار عليها
وأنت تحلم

بفضاء يوم الأحد في « غارش »
الطقس ثقيل قليلاً وشعرك طويل

يا أيها الشاعر الصغير الغبي قليلاً والأشقر أكثر مما ينبغي
إن عينيك تشبهان كثيراً هذين المطادين الكبيرين
اللذين يسبحن في الهواء النقي
على غير هدى .

أشعار إلى « لو »

إنني أفكر فيك يا لولّي فإن قلبك تكتني
وحواسي هي خيولك وذكرك برسمي

أن السماء ملأى هذا المساء بالسيوف والمهامير .
والمدفعيون يسيرون في الظل مثقلين ومتعجلين

إلا أنني بالقرب مني أشاهد على الدوام صورتك
إن فمك هو جرح الشجاعة الملتهب

أبواقنا تنفجر في الليل كصوتك
وعندما أكون ممتطياً حصاناً تنطظين بالقرب مني

إن مدافعنا عيار ٧٥ رشيقة كجسدك

وشعرك أصهب كنار قنبلة تنفجر في الشمال

إنني أحبك فيداك وذكرياتي
تدق في كل لحظة أبواقاً فرحة
وشموس تشرع على التوالي بالهمهمة
فنحن المحط الجانبي الذي تتهافت عليه النجوم

وفي بحيرة عنيك الشديدة العمق
يغرق قلبي ويذوب
وهناك في ماء الحب والجنون
تجمده الذكرى والكآبة

أيها الحب الملك
حدثني
عن الحمامة الصغيرة
الجميلة جداً وغير المخلصة
التي يدعونها « لو »
أين هي الآن
وعند من
– عجيب إنها عند « غي »

في الشمس
يراودني نعاس
أحبك يالو
ن شعري
بكرر لك ذلك
هذا الاثنين
انني أحبك
لو ، لولو
تنظر إلي
إن هذا الذئب الصغير
يخاطر
بالمجيء
ليشاهد القلم
يجري على رسالتي
أود أن أكون شعاعاً
يزور ذئبي الصغير
سريعاً سريعاً
سأتركك
وأذهب مسرعاً
إلى لولو

من الأدب التركي المعاصر

القيظ المعاصر

قصة : يشار كمال

ترجمة : محمد عيطاء

يشار كمال

قاص تركي ولد عام ١٩٢٢ في إحدى القرى التابعة لمدينة أضنة بتركية . وبعد أن أنهى دراسته الثانوية ، عمل فترة من الزمن في مزارع القطن ، وبعد أن مارس عدة أعمال أخرى انتهى به المطاف عام ١٩٥١ ليمتهن الصحافة . وقد عمل في صحيفة (الجمهورية) مدة طويلة ثم أخذ يكتب القصة القصيرة . ومعظم قصصه تتناول حياة الفلاحين وتعالج همومهم ومتاعبهم .

قال الغلام

– أماه . . . أيقظيني غداً قبل بزوغ الفجر .

أجابت الأم

– وإن لم تستيقظ ؟

– إن لم أستيقظ ، خزي جسمي بالدبوس ، شدي شعري . . اضربيني .

وغمر المرأة النحيلة ذات الوجه الشاحب سرور التمع في عينيها السوداوين ، وقالت :

– وإن لم تستيقظ بالرغم من كل ذلك ؟

– اقتليني !

وضمت المرأة ولدها إلى صدرها بكل قواها ، وهتفت : « أنت حياتي »

وفكر الصبي قليلاً وقال :

– ضعي فلفلاً في فمي .

وضمته أمه مرة أخرى إلى صدرها بحنان ، وأخذت تقبله ، وقد فاضت عيناها بالدموع .

وردّد الغلام قوله ، وهو يتدلع ويهمز ، ويضرب الأرض بقدميه :

– ضعي في فمي فلفلاً . . . وليكن لاذعاً جداً . . . فلفلاً أحمر يلهب لساني ، لأصحو على الفور وتخلص من يدي أمه،وصعد إلى العريش المصنوع من أغصان الشجر ، واندس في فراشه .

كانت تلك إحدى ليالي الصيف الخانقة ، انتثرت في سمائها ، هنا وهنالك بعض النجوم التي خبا بريقها بجانب البدر الكبير المستدير . وكانت تفوح من الفراش ، رائحة عرق حامضة ، والولد يتقلب على جمر . وهو يفكر في الغد.

وحدّث نفسه مسروراً :

« لن أنام حتى الصباح . . ولا تكاد أمي تصيح . . عثمان ! حتى أقفز على الفور وأعانقها . . وكم سيأخذها العجب . . »

غير أن حماسته فترت فجأة ، واعتراه الخوف : « وإذا غلبني النوم . . »

وتابع حديث نفسه :

« لن أنام . . . لن أنام . . . لم النوم » وبعد قليل أقبلت أمه ، ونامت بجانبه ، وأخذت تداعب رأسه ، وقالت :

— هل نمت ياولدي ؟

ولم يتكلم عثمان أبداً . عانقته وقبلته ، وشعر الغلام بفرحة عارمة ، وكاد يبكي من حنانها وهو مايزال يرى بعين الخيال تلك اللحظة التي سيدهشها فيها في الغد الباكر . ثم استدارت وغفت أما هو ، فقد راح النوم يداعب جفونه ، ولكنه لم يستسلم لسلطانه ، وبعد برهة نهض قليلاً وأخذ ينظر إلى وجه أمه الشحب ، وقد غداأبيض براقاً تحت ضوء القمر ، وبدا شعرها الغزير أكثر سواداً بضفائرها الطويلة المجدولة ، وقد استرسلت على وسادتها البيضاء .

وبعد أن نظر طويلاً إلى الوجه الأبيض ،والضفائر اللامعة،شعر بثقل في رأسه ، وهوى نحو وسادته ونام .

انقضى هزيع من الليل . . . الكون مضيء . . وكان يسمع بين حين وآخر ، صوت اجترار البقرة القابعة تحت العريش ، وصرير أسنانها يعكر هدأة الليل الساجي .

وقضى الصبي ليله مضطرباً يغالب النوم ، فهو يضغط فكيه تارة ، ويمد ذراعيه صوراً . ولكن النوم لايقاوم ، وما أشبهه بالماء وقد غمر الغلام من أطرافه الأربعة وأخذ يعلو ويعلو ليغرقه في خضمه .

ومازال الأمر كذلك ، حتى انحدر القمر نحو الأفق ، وغاص جانب منه

في الأرض ، وأوشك أن يغيب ، وقد ازداد لمعاناً .

ومن خلف ذرى الجبال البعيدة ، سطعت حزمة رفيعة من نور . وأخذت تمتد شيئاً فشيئاً حتى بدت معالم القرية بلون ارجواني . وصحت الأم ، وانكبت على ولدها تنظر إليه ، وقد انزلق رأسه عن وسادته . . .

رقبته نحيلة . . . وجهه صغير وأصفر ، يبدو وكأنه لايتنفس ، ولاح لها في العتمة كشبح . ووقفت تتنهد . وبعد برهة ، ألقى بذراعه خارج الغطاء ، وظهر ساعده هزيلاً كاصبع رفيعة . حلده مجعّد كأنه سيهترئ عن عظامه .

وتعلقت عيون الأم في هذه الذراع الممدودة ثم صدرت من أعماقها أنّة : « آه . . آه ياولدي »

وبعدئذ هزت كتفيها ، وقامت من جانبه . وكانت ظلال القمر الغارب تداعب برفق رؤوس قصب العريش .

وحدّثت الأم نفسها : « لن أوقظه . . لن أوقظه . . ولنمت من الجوع . . وما الفائدة من شغل مثل هذا الطفل ؟ »

وكانت ماتزال تحدق في الذراع الرفيعة ، وقد أخذتها الدهشة ، لأنها لم تك لاحظت حتى الآن نحول ولدها الشديد .

« لنمت من جوعنا . . »

ووضعت ذيل ضفيرتها الطويلة في فمها ، وأخذت تمضغ ذؤابتها بغضب .

صاح الرجل من تحت العريش :

ـ ألم يستيقظ بعد ؟

وبدأت الأم تداعب الصبي ، وقالت بصوت يفيض رحمة :

ـ ماذا تريد من الولد ؟ إنه كالاصبع ، تكاد عظامه تتكسر من شدة هزاله.

ورد الرجل باستياء .

ـ يجب أن يفيق .اليوم .أقول يجب أن يفيق ليشتغل .. لئلا يعتادعلىالكسل والخمول . وهمست المرأة بخوف :

ـ ذراعه نحيلة . . .نحيله .

ثم أدنت وجهها من رأس الصبي ، وراحت توقظه بصوت خافت كحفيف الريش . إنها راغبة عن إرساله إلى العمل .

وارتفع الصوت الأجش العاضب من تحت :

ـ أيقظيه . اصفعي خده . . لقد أعطينا وعداً لمصطفى آغا . . . كيف يجدون ولداً آخر في مثل هذا الوقت المبكر ؟

قالت المرأة :

ـ قلبي لايطاوعني يارجل ! . . إنه ضعيف الجسم ، وشغله لن يعود علينا بالغنى

وقال الرجل :

ـ مهما يكن . .ليتدرب على العمل منذ الآن . وعادت المرأة تداعب شعر ولدها ، وهمست :

— عثمان . . قم ياعثمان . . قم ياولدي . لقد طلع النهار ياعثمان .

وبدرت من الصبي أنّة ، وتململ في فراشه .

— عثمان . . ولدي . . الضوء غمر الكون . ثم أمسكت بكتفيه ، ورفعته بهدوء ، وكأنه إناء من زجاج تخشى عليه أن ينكسر ، وأعادته إلى الفراش ، وهي تقول :

— ها هو ذا لايستطيع النهوض ، هل أقتله ؟

ونزلت بسرعة من العريش الذي أخذ يهتز تحت أقدامها كمهد طفل .

وصرخ الرجل :

— لعنة الله عليك وعليه . . .لايستيقظ .

— إنه لكذلك . . .ماذا أفعل ؟

وقفز الرجل نحو السلم بعنف ، وصعد إلى العريش ، وأمسك بذراعي الولد ورفعه بقسوة ، وأصبح الصبيّ الآن معلقاً بيديه أشبه بأرنب صغير ، وهو ينتفض مذعوراً وصاح :

— أماه . . .أماه .

وأنزل الرجل الولد من العريش ، وألقاه على الأرض أمام أمه . ونظرت المرأة إلى ولدها الذي فتح عينيه الواسعتين ، وراح يحدق فيها بغباء ؛ واقتادته إلى ركن في الفناء وغسلت وجهه بالماء البارد ، ولما صحا قال :

— أمي ! . . .

– ياروحي . .

– هل وضعت في فمي ملفلاً أحمر ؟

وفي هذه الأثناء ، وصلت عربة مصطفى آغا ، ووقفت أمام الدار .

وصاح صائح

– عثمان . . .

وهرع الصبي راكضاً ، وقفز إلى العربة وهو يفيض سروراً ، وراح يغني بصوته الحاد .وأمسكت لأم برينب ، وهي إحدى الفلاحات العاملات بحقول مصطفى آغا ، وقادتها إلى ناصية في باحة الدار وقالت :

– أرجوك يازينب أن تشملي عثمان برعايتك . . إنه حلد وعظم .

أجابت زينب :

– لاتخافي ياأختي . . .هل يمكن أن نؤذي عثمان ؟

ووصلوا إلى الحقل ، ولمّا تشرق الشمس بعد ، وكانت تفوح روائح العشب والسنابل الندية المرصوفة على خط مستقيم ، وكانت الآلة حصدتها بالأمس ، وأخذوا يحملون هذه الحزم على زحّافة يجرها حصان .

وأمسك عثمان بزمام الحصان ، وما أن امتلأت الزحافة بسنابل القمح المحصود ، حتى أسرع بها كالطير إلى البيدر ، ومن ثم عاد بهافارغة .

وكان الفلاحون يرددون بين حين وآخر : « كيف أنت ياعثمان ؟ عشت ياعثمان . . . » وأخذ الصبي الزهو والفرح .

وأثناء ذلك ، ارتفعت الشمس ككرة حمراء من لهب .

وكانت خيوط رفيعة من أبخرة تتصاعد من جذوع الأعشاب الندية . وظهرت في السماء نتف من سحب صغيرة مبعثرة .

وكان عثمان يروح ويجيء مثل (مكوك) النسّاج ، بين حازمات السنابل وبين البيدر . وكانت زينب تقول له مداعبة من حين لآخر :

ـ مرحى ياعثمان . . .عثمان سبع ! بلغت الشمس كبد السماء ، وفاضت الدنيا بأضواء باهرة ، تنفذ حتى ذيول السنابل بأضواء باهرة ، تنفذ حتى ذيول السنابل النابتة من التراب . ومئات بل ألوف من خيوط الأشعة تلتمع ، ويتداخل بعضها ببعض . وكان غبارٌ كثيف قد كسا وجوه العاملات والفلاحين ، وسال من جباههم عرق غزير .

الكون كله يلتهب من وهج الشمس وظهر الآن وجه عثمان أشدّ سواداً وأكثر نحولاً ، واحمرت عيناه الواسعتان ، وأخذ العرق ينفذ من قميصه ، وفقد النشاط الذي كان يتمتع به في الصباح ، وهو يسير بصعوبة ، تكاد رجلاه تشبكان ببعضها ، وأوشك أن يسقط بين حوافر الجواد ، ولكنه كان يعالب التعب . أما التراب فكان يكوي قدميه كأنه حديد محّمى ، ولذا كان يقفز كلما مست رجلاه الأرض ، وكانت مشيته عجيبة .

أما حازمت السنابل فكنّ يفغرن أفواههن وهن رافعات رؤوسهن إلى أعلى ، ريثما يعود عثمان إليهن بدفته الراحفة . وكثيراً ما كنّ يستقين على العشب وقد أخذ منهن التعب كل مأخذ .

وينظر عثمان نحو السماء ، عساه يرى سحابة صغيرة . . .سحابة بيضاء تُظله ولو لفترة قصيرة . . عيونه تلاحق تلك السحب الصغيرة .

الشمس الآن في منتصف السماء جذوع المزروعات تطقطق . . .الأرض ملتهبة متشققة تحت قدمي عثمان ، وهو يتقافز ، وقد ضغط على فكيه ، كأن روحه تعلقت بأسنانه ، وهو يحترق من الأسفل ويلتهب من الأعلى ، ويشعر كأن قضيباً محمى يغرز في رئتيه .

القيظ يبهر العيون ، ويكاد المرء لا يبصر شيئاً لبعد عشرة أمتار .

وحانت من زينب التفاتة وهي تحمل حزمة من سنابل القمح ، لترى عثمان وقد أخذت رجلاه تصطكان من التعب . وقالت :

ـ عثمان . . .ياعثماني . . حرام أن تسير ذهاباً وإياباً على قدميك ، يجب أن تركب الحصان . وحملته فوراً ووضعته على ظهر الجواد . وراح الصبي يقوده ، وما زالت ركبتاه ترتجفان . وعندما عاد بالجواد نحو زينب . قفز من ظهره واتجه إليها .

قالت زينب :

ـ لماذا تركت الحصان ؟ وماذا تفعل لو هرب ؟ وتقدم منها عثمان وقال :

ـ ياخالتي زينب . . إذا كبرتُ يوماً ما ، سأُهديك قرطاً من ذهب .

وعاد راكضاً وامتطى الحصان من جديد .الحر خانق ، ليس ثمة أية نسمة .

بدأ عثمان يشعر بألم في فخذيه وهو على ظهر الجواد ، حتى أنه لم يعد يستطيع أن يضغط بهما ليحفظ توازنه ، وكاد أن يقع ، ولم تعد عيناه تريان شيئاً . وكان الحصان يروح ويرجع لوحده .

وحان موعد راحة الظهر . وجس الجميع للغداء . الماء ساخن كالدم ؛ وبالرغم من توسلات زينب ، م يذق عثمان ولا كسرة من الخبز بل راح يجرع كميات كبيرة من الماء . وأحسنت زينب صنعاً حينما سكبت على رأسه ماء الجرة ، وحينئذ شعر الغلام بتحسن في حالته .

ولما عادوا إلى العمل ، قالت زينب :

ـ عثمان . . اجلس أنت . . وليتدبر أمر الحصان غيرك .

فأجاب :

ـ هذا لا يمكن أبداً يا خالتي زينب ، لم أتعب بعد .

وحينما أخذت منه الجواد عنوة ، جلس يبكي وهو يردد : « لم أتعب ، والله لم أتعب »

وقالت امرأة عجوز :

ـ اتركوا هذا الولد على ظهر الحصان ، دعوه يسقط ويتمزق تحت حوافره . . . إنه ولد عنيد حقاً .

صاح عثمان :

ـ والله لن أسقط . . . قلت لكم انني لم أتعب بعد .

ووضعوه على الجواد ، وما كاد يذهب بالزحافة ثلاث مرات ، حتّى خارت قواه ، وشعر بدوار . وانقضت فترة من الزمن ، وإذا به ينبطح على ظهر الحصان ، وقد امسك زمامه بكلتا يديه . وانتبهت زينب إلى ذلك ، وحملته وهو فاقد الوعي ومددته على كومة من العشب وقالت :

– يا لك من عنيد ! . .

وسكبت مرة أخرى كمية من الماء على رأسه ، ووقفت أمامه تستظله من الشمس وتحجبه من وهجها المحرق .

ومرّ وقت طويل ، عاد الصبي إلى رشده ، وبقي مستقياً على العشب حتّى المساء . وأخذ ينظر إلى الفلاحين بعيون جوفاء . ثم أطرق بنظرة نحو الأرض خجلاً من نفسه .

وعند الانصراف ، حملته زينب واركبته العربة ، وكان كتلةً لينة ، وقالت :

– عثمان . . أنت اشتغلت جيداً هذا اليوم ، وسوف تأخذ احرتك بجدارة من مصطفى آغا

وقال عثمان متشككاً

– هل سيعطيني اجرتي ؟

قالت :

ـ لقد تعبت كثيراً

وعاوده سروره وشعر كمن رُدّت إليه الروح

* * * *

في المساء تحلقت عائلة مصطفى آغا حول الطعام أمام داره الكبيرة . وفي ناحية استقرت العربة ، وكانت الخيول أولجت رؤوسها في الاعشاب الطرية تلتهمها . وفاحت في الجو رائحة العشب الغض .

وبدأ الظلام يرخي سدوله ، ووقف عثمان بجانب الخيل ، ينظر إلى الطعام بصبر نافذ ، ويحملق في الطاعمين الذين لم يشعروا بوجوده قط وانتظرطويلاً

ولما عيل صبره ، سعل . ولم يشعر به أحد . . ثم التقط من الأرض قضيباً جافاً وراح يخط به دوائر على التراب ، وكان يفعل ذلك بمشقة ليلفت إليه النظر . وبالرغم من ذلك ، لم ينل ما يبغيه ، إذ أن القوم كانو عنه في شغل شاغل ، وهم يلتهمون الطعام .

وبقي حيناً من الوقت وهو يثير التراب بقضيبه ، وقد أسنده إلى نقطة وراح يدور حول هذه النقطة . وعلى حين غرة ، سقط القضيب من يده محدثاً صوتاً خفيفاً . وجمد في مكانه ، ثم عقد العزم ليفر هارباً من هذا المكان .

وصاحت زوجة مصطفى آغا :

ـ هذا عثمان . . . تعال يا عثمان .

ولم يتحرك من مكانه

ـ تعال يا عثمان . . . اجلس وكُل معنا .

ولم يحرك ساكناً ، وقد أطرق برأسه نحو الأرض

ـ ألم تذهب إلى دارك أيها المجنون بعد عودتك من الحقل ؟ ستفتقدك أمك الآن . وانحنت نحو زوجها وأسرّت إليه بحديث خافت سمعه الحاضرون وضحكوا.

وما كاد عثمان يخطو هارباً ، حتى صاح مصطفى آغا :

ـ ما أغباني ! . . لقد نسيت أن أعطي عثمان أجره . وأخرج كيسه وأعطاه خمسة وعشرين قرشاً .

خطف الصبي هذه الدراهم ، وركض إلى بيته مسرعاً وارتمى بين أحضان أمه ، وعانقها وقال بزهو :

ـ خذي . . .

وتناولت الأم الخمسة وعشرين قرشاً ورفعتها فوق رأسها ، وأدارتها ثلاث مرات ثم أدنتها من شفتيها .

جان جاك روسو

□ ترجمة: فريد جحا

١٧١٢ ـ ١٧٧٨

احتفلت فرانسا طوال عام (١٩٧٨) بذكرى مرور مئتي عام على وفاة اثنين من أعظم أبنائها وهما (روسو وفولتير).

ونظراً للمكانة التي يحتلها هذان المفكران في تاريخ الفكر الإنساني، فإننا نقدم في هذا العدد مقالاً عن روسو. (١)

مقدمة :

في منتصف قرن الأنوار (٢) رفع جان جاك روسو اعتراضاً عنيفاً ضد تقدم العلوم، وتراكم الثروات، وضد مجتمع تعسفي ومؤسسات استبدادية. لقد ندد بافساد الانسان المتنامي، وحذر معاصريه، بأنهم، إذ لم يعودوا إلى البساطة

(١) ـ ترجمنا هذا المقال عن الموسوعة الفرنسية الشاملة Encyc Lopédia Universalis وقد ورد في المجلد الرابع عشر ص ٤٧٢ وما بعد.

(٢) ـ هو القرن الثامن عشر الميلادي.

الطبيعية ، فسيركضون دون ريب إلى الخراب ، لقد عرض عليهم بالتناوب : اصلاح التربية ، ولأخلاق ، والمؤسسات السياسية والاجتماعية ، والحقوق ، والدين . وإذا كان الانسان يشغل اليوم مكاناً رئيسياً في مفهومنا عن العالم ، فإلى روسو يعود الفضل الأكبر في الوصول إلى قسم كبير من هذا المفهوم . ان روسو كما قال كانت « هونيوتون العالم الأخلاقي » .

١ ـ قضية بائسة تطرحها اكاديمية :

كتب روسو رداً على صاحب النيافة بومون رئيس أساقفة باريس الذي حرم كتابه (اميل) : « لقد ولدت محدود المواهب ، ومع ذلك فقد قضيت شبابي في خمول سعيد لم أكن لأفكر في الخروج منه أبداً . وبدأت أقترب من سن الأربعين ، وكنت أملك عوضاً عن ثروة ، كنت أزدريها دائماً ، وعن إسم اضطررت لأنأدفع من أجله كثيراً . . . كنت أملك عوضاً عن ذلك كله ، الراحة والأصدقاء ، وهما الخيران الوحيدان اللذان كان قلبي متعطشاً لهما . ثم قذفتني قضية تعسة ، طرحتها أكاديمية ، إلى مهمة لم أخلق لها أبداً ، وذلك بعد أنأثارت عقلي على الرغم مني . وأشار لي نجاح غير متوقع ، إلى اغراءات فتنتني . وهاجمتني فئة من الخصوم ، دون أن تفهمني ، بسفه أعطاني طمعاً حاداً ، وبغرور ربما حثني على العمل . ودافعت عن نفسي ، وشعرت ، وأنا أخوض معهم في جدل بعد جدل ، انني قد انخرطت في المهنة دون أن أكون قد فكرت في ذلك ذات يوم ووجدتني وقد أصبحت ، مؤلفاً في اسن التي يتوقف فيها الكاتب عن التأليف ، وأديباً مع بغضي لهذه المهنة . وغدوت منذئذ شيئاً ما بالنسبة للجمهور : ولكن الراحة كانت اختفت ، والأصدقاء كانوا قد ولوا .

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد هناك شر لم أكابده ، ولا شقاء لم أعان منه . »

ولقد كرر روسو عدة مرات أن موهبته الأدبية قد ولدت على طريق (فانسين) حيث اكتشف ، وهو في حالة اشراق ، السبيل الذي يجب عليه أن يتبعه لأصلاح مجتمع جائر متعسف . كان حتى ذلك الحين قد فكر في اتخاذ الموسيقى مهنة له ، عازفاً على الكمان أو (الأورغ) ، أو البيان القيثاري ، أو قائداً لحفلات موسيقية ، أو معطياً دروساً في الموسيقى . وتخيل ، وهو في الثلاثين من العمر ، نظاماً جديداً للعلامات الموسيقية قدمه لأكاديمية العلوم في باريس ، قبل أن ينشره بعنوان (مقال في الموسيقى الحديثة) ، ثم انكب على تأليف اوبرا (ربات لفنون الطربيات) التي لم تحصل على النجاح المتوقع ، كما انه ألف عدة قطع مناسبات .

وتوجه روسو ذات يوم (من تشرين الأول عام ١٧٤٩ م) وكان في الثامنة والثلاثين — إلى فانسين ليزور (ديدرو) الذي كان معتقلاً هناك ، لأنه كتب رسالة عن العميان . كان روسو يتصفح وهو يمشي ، جريدة (عطارد فرانسا) التي حملها معه ، حيث وقع نظره على القضية التي طرحتها أكاديمية (ديجون) لتكون موضوع جائزة السنة المقبلة ، وكانت القضية تتطلب جواباً عن السؤال التالي : « هل أسهم تقدم العلوم والفنون في افساد الاخلاق أم في تهذيبها ؟ » .

قال لنا روسو في اعترافاته : « في لحظة القراءة هذه ، رأيت عالماً آخر ، وغدوت انساناً آخر . » لقد عدا وكأنه قد بهره ألف نور ، أو كأن مجموعات من الأفكار قد تزاحمت في عمله ، لقد شعر بأن رأسه مأخوذ بنشوة شبيهة بنشوة السكر . كان روسو قد اضطرب إلى حد رأى انه يجب عليه أن يستريح تحت

واحدة من شجرات السنديان على طريق (فانسين) ، وهناك ألف ما يسمى (تشخيص فابريكيوس(٣)) ، الذي دعا معاصريه من الرومان « إلى قلب المدرجات ، وإلى تحطيم المرمر ، وإلى طرد العبيد الخاضعين لهم ، والذين تسدهم الفنون المشؤومة . »

وقد أعلن روسو بعد اثني عشر عاماً ما يلي : « لو انني استطعت أن أكتب ربع ما رأيته . وما أحسست به تحت هذه الشجرة ، إذن لأريت الناس بوضوح كل تناقصات النظام الاجتماعي ، ولعرضت عليهم بقوة تعسفات مؤسساتنا ، ولأظهرت لهم ببساطة أن الانسان طيب بطبيعته ، وانه ، بتأثير المؤسسات الاجتماعية يغدو الناس أشراراً . »

ان هذا الالهام ، وهو الأزمة الميتافيزيكية الحقيقية ، قد حررت ، دفعة واحدة ، روحاً مضطهدة ومقهورة منذ زمن بعيد : ذلك أن روسو لم يكتشف فجأة أسباب إفساد الانسان فحسب ، بل وسائل ايقاف مسيرته نحو الهاوية أيضاً .

وأنشأ الفيلسوف ، بعد عودته إلى باريس ، وخلال ساعات أرقه ، بحثه الأول ، ولما انتهى منه ، عرضه على (ديدرو) الذي صحح فيه بضع نقاط ، ثم أرسله إلى أكاديمية (ديجون) . وبلغه ، بعد سنة (في تموز ١٧٥٠) ، وعندما كان لايفكر البتة في بحثه ، انه قد فاز بجائزة الأكاديمية . وظهر هذا المؤلف الأول في شباط من عام ١٧٥١ ، وأثار على الفور دوامة من المناقشات فالموضوعات

(٣) ـ فابريكيوس : قنصل روماني (٢٨٢ ـ ٢٧٨ ق.م) اشتهر ببساطة اخلاقه واستقامته ونزاهته .

التي كان روسو يدافع عنها كانت أصيلة جداً ، ومفاجئة جداً ، لقد كانت جد مخالفة للرأي العام ، فعلى الرغم من أن فكرة التقدم كانت راسخة ، وسط قرن الأنوار في عقول كثيرة ، فان معارضيها كانوا كثيرين أيضاً . وكانت المقالات والأبحاث التي كتبت دحضاً لبحث روسو الأول هذا لاتعد ، ووجد روسو نفسه مضطراً لرد بوساطةرسائل مفتوحةعلى كل من (الأب رينال ، وبوريس ، ولوكا ، وحتى الملك ستانيسلافسكي) . وبينما كان يرد على خصومه تدريجياً ، كان تفكيره ، يتضح ، ويكتمل ، ويتورط دائماً أكثر فأكثر فيما سماه بعد ذلك « مذهبه العظم والتعيس . »

وهكذا غدا روسو مشهوراً خلال ستة أشهر . ثم إذا به ، وهو الذي كان خلال عشرين عاماً يحاول الحصول على الشهرة كموسيقي فلا يوفق ، إذا به قد أصبح محط أنظار جميع نوادي العاصمة باريس . واغتنت هذه الشهرة في السنة التالية بشهرة موسيقية ، فلقد قدم في قصر (فونتبلو) ، أمام ملك فرانسا وملكتها ، أوبريه الباليه (كاهن القرية) تلك الباليه التي حصلت على نجاح باهر . كان عمره آنذاك أربعين عاماً . وفتحت أمامه مهنة غريبة مدهشة ، كانت مهنة لامعة ساطعة لأننا إذا استثنينا مؤلفاته التي روى فيها سيرته الذاتية (الاعترافات ، والمحاورات ، وأحلام متنزه سفرد) ، التي طبعت بعيد وفاته ، فان كتبه العظيمة قد ظهرت كلها في مدة لم تتجاوز اثنتي عشرة سنة . وهذه الأبحاث هي (مقالة حول أصل عدم المساواة عام ١٧٥٥ – رسالة إلى (دالامبير) حول العروض المسرحية عام ١٧٥٨ ، هيلويز الجديدة عام ١٧٦١ ، اميل ، العقد الاجتماعي عام ١٧٦٢ ، رسالة إلى كريستوف دوبومون عام ١٧٦٤ (وإليها يجب أن نضيف) انهاء معجم

الموسيقى عام ١٧٦٧ . ويتمق هذا التاريخ الأخير مع رجمه ونفيه إلى جزيرة (سان بير) . وعد روسو منذ ذلك العام ، مبعداً ومحروماً ، وكانتا ملاحقاً ، سيء الظن بالناس مما دفعه إلى العزم على ألا ينشر شيئاً في حياته .

ولا يفترق بحثه (في العلوم والفنون) عن بحثه في (أصل عدم المساواة) ، ويمكن تلخيص موضوعهما كما يلي : ولد الانسان طيباً خيراً ، ولكن المجتمع ، أي المؤسسات الاجتماعية ، هي التي أفسدته . والعلوم والفنون (في البحث الأول) وعدم المساواة الاجتماعية (في البحث الثاني) ، هما اللذان أفسداه . لقد ولد للسعادة والفضيلة ، ولكنه ترك نفسه تتغير ، بسبب تطور المعارف واغراءات الترف والقوة .

ان حالة الانسان البدائية ، حالة النقاء هذه ، حيث كان الكائن الانساني يعرف البراءة والطيبة . . . ان هذه الحالة ليست إلا نظرية العقل ، ولكنها نظرية وفرضية تجعلنا نتأسف على ماض لم يعد موجوداً ، ولن يعود ، لأن التاريخ لا يعود القهقرى أبدا .

ان كتابي روسو الأولين يصفان التطور الذي دخل الشر فيه إلى العالم ، والصورة التي فسدت فيها الطبيعة الانسانية ، وبينما يؤكد الأول على فضائل المدن القديمة ، يشدد الثاني على عصر الانسانية الذهبي . ان كتابه (مقال حول الاقتصاد السياسي) يحاول للمرة الأولى أن يوفق بين واجبات الانسان وواجبات المواطن . ويعرض روسو في هذا النص نظريته عن الارادة العامة ، وهي أصل القوانين الوضعية ، وأصل الحكومة ، وقاعدة الصواب والخطأ ، وارادة تنبثق عن الهيئة السياسية ، وتعطيها تماسكها .

٢ – المؤلفات العظيمة :

سيطرح روسو ، في كل مؤلف من مؤلفاته ، دواء لفساد المجتمعات انه يتخيل طرقاً ثلاثة محتملة ، تقود إلى تركيب جديد للطبيعة والتعلم لا يمكن أن تخون جوهر الانسان .

انه في (اميل) يعيد التفكير في تربية طفل مقدراً له أن يغدو مواطناً ؛ وفي (هيلويز الجديدة) بتخيل الحياة المثالية لمجتمع صغير ؛ وفي (العقد الاجتماعي) يضع أسس دولة عادلة وشرعية ، يصغي الفرد فيها لصوت ضميره .

أميل : من الطفل إلى المواطن :

ويبدو روسو أصيلاً ، بل وثورياً ، منذ صفحات (اميل) الأولى . ان (اميل) حكاية تعليمية ، تعتمد على الحدس الأساسي ، الموروث بصورة محتملة عن (كونديلك) ، والمطبق لأول مرة على الحق ، وعلى الحدس الأساسي الأصيل لقابلية الاكتمال الانسانية . فالانسان الذي لا يكون شيئاً عد ولادته ، سيصبح ذات يوم كل شيء . ان هذا التكوين للعقل ، المعتبر في مستوى الفرد ، هو الذي يواجهه روسو بعد أن درسه عى مستوى لانسانية في بحثه الثاني . لأنه ما معنى تاريخ فساد الانسانية ، إذا لم يكن تاريخ الانسان نفسه ، وتاريخ ملكاته ؟ ان تطور الفرد يعكس إذاً تاريخ نسله . ومع هذا الفرق نجد أمام كل طفل امكانية مستقلة ، بينما مخرت الانسانية في تاريخ سيء البدء ، لا يمكن ، مع الأسف التراجع عنه . انه فرق رئيسي كما نرى . وهكذا فليس الطفل بالنسبة لروسو أولاً الا أحاسيس ، ثم « عقلاً حسياً » ، ومن هنا يغدو « عقلاً عقلانياً » وأخيراً

ضميراً أخلاقياً . ان نمو الجسم ونمو العقل يمشيان معاً ، فكيف نساعد الطفل لئلا يعثر حظه في تطوير ملكاته ، وبصورة تتفق مع التطوير الطبيعي ، وهو حظ تركته الطبيعة يمر من بين أيدينا ؟ وكيف ندفع الطفل إلى أن يثقف نفسه ، أي إلى أن ينتقل من حالة البراءة إلى حالة ثقافة ، دون أن تغدو هذه الثقافة صناعية وضد الطبيعة ؟ وكيف ننقل ، بكلمة واحدة من القوة إلى الفعل ، ملكات الطفل الكامنة وهي العقل ، والروح الاجتماعية ، والضمير الاخلاقي والمدني . . . هذا غاية روسو وقصده في (اميل) .

انه يوجد طريقة تربوية مؤسسة على فكرة سيطرة تأثير الوسط الطبيعي على وسط بني الانسان . انه ، بكلمة أخرى ، يوصي بتربية مجردة من التأملات لأن الطفل يكتشف كل شيء بنفسه ، وفي داخل نفسه ، أي أن المربي يغدو مؤدباً ، لا مراقباً . وستكون مهمته ، لاتعليم الطفل ، ولكن توجيهه حسب طبيعته الخاصة . انه لن يعطي ارشادات وتعليمات ، بل يعمل على أن يكتشفها الطفل بنفسه . مهمتان ، إذا ، تحتمان على المربي أن يقوم بهما : أن يترك الطبيعة تقوم بعملها من جهة ، وان يحفظ قلب الطفل من نزعات الشر ، وعقله من الآراء المسبقة ، من جهة أخرى . هذه هي التربية الشهيرة السلبية أو غير الفاعلة التي عرضها الكاتب .

الا ّ أن هذه التربية (الطبيعية) لايمكن الا ّ أن تجلب صعوبات جمة ، أهم ما فيها كونها ، بصورة متناقضة ، مصطنعة ومتكلفة ويترك المربي الطبيعة تفعل فعلها ، ولكن على الطفل أن يجابه بعض العوائق حتى تكتمل طبيعته . ومن هنا يكون المربي حاضراً في كل مكان ، وان بدا ظاهرياً انه غائب . انه سيوجد

لقاءات الطفل مع الطبيعة . وسيسهل الصدمات العاطفية أو العقلية . وهكذ ، فان يد المعلم المستترة ، والفاعلة بصورة قوية ، ستكون خلف كل شيء . وستطور الطفل ويكتمل في عام مزيف ، وتعاد بفضل حيل مربيه . واننا نتساءل : أيعتقد روسو ان بالإمكان ، الوصول إلى انسان الطبيعة بوسائط مصطنعة ؟ ثم أليس هذا تناقضاً ظاهراً ؟ ذلك أن الطبيعة لايمكن أن يتغلب عليها الا بالتعلم الأساسي للحاجة. ولن يكون الطفل حراً بعد تعلم عادة الانحناء أمام الناس ،والخضوع لارادتهم المتقلبة . من أجل هذا يبدو وجود المربي الخفي واجباً ولازماً .

ان احترام حرية الطفل الداخلية ، أو احترام كرامته الانسانية ، هو الذي يسيطر على تربية روسو . وليست المكانة التي تشغلها فكرة السعادة في هذا الكتاب بأقل أهمية وأصالة . ذلك أن التربية ، وبالنسبة لروسو ، تربية فرحة ، وطريق الطبيعة البكر الذي يجب أن يقود إلى ثقافة متناغمة مع جوهر الطفل الذي يريد أن يكون سعيداً . ان التربية التي تعتبر الطفل لاراشداً هي لتي تستطيع أن تقود إلى ضرورة السعادة هذه . من أجل ذلك يفضل روسو التطور الطبيعي للمراهق عن طريق اللعب . انه لا يرى في التربية تقويماً مؤلماً ، بل يرى فيها تفتحاً حراً وسعيداً للنفس الانسنية . قطبان يحكمان ويفصلان مشروع روسو : الحرية في الأول ، والسعادة في الآخر ، انهما القطبان اللذان يوجدان في (هيلويز الجديدة) وفي (العقد الاجتماعي) .

فضيلة وسعادة :

يتخيل روسو في (هيلويز الجديدة) العالم الرومانسي نظاماً عائلياً بالمعنى

الأبوي) الذي يشمل الخدم وأعضاء الأسرة في المنزل ، وأبناء العم ، والأصدقاء) نظاماً كان يعيش حسب تعاليم الطبيعة التي هي ليست بالقاسية ولا بالوحشية ، ولكنها خصبة بالثقافة ، وبالفعل . قناع ، وخبث ، وغرور ، وحسد ، ومكر ، نقائص تبعدها فضائل الصفاء ، وتقارب القلوب ، والبراءة ، والنقاء وبدا فكيف تمّ هذه المعجزة ؟ وما المبدأ الذي يحكم « مجتمع القلوب » هذا ؟ انه (الاليزيه) ذلك البستان الغامض الذي يقدم نفسه هدية ورمزاً لذلك التناعم . نه البستان الذي يبدو ، لمن ينظر إليه ، ريفياً ومهملاً ، وكل شيء فيه ثمرة فن كامل . لقد صرحت جولي قائلة : « صحيح ان الطبيعة قد فعلت كل شيء ، ولكنه لا يوجد شيء لم أنظمّه » . لقد ضمت جولي الطبيعة ، بسبب الفن ، انها ليست الطبيعة المشوشة والفوضوية ، بل هي الطبيعة الروحية . ويجب على العواطف ، ونزوات القلوب أن تكون متوازنة ، ومطهرة من قبل العقل ، هذه هي رسالة (الاليزيه) . ولهذا فان (هيلويز الجديدة) تخط المستقبل لاخلاقي لعشقين . فعلى (جولي وسان برو) ، ان يتخليا عن عاطفتهما ، لأسباب اجتماعية . العاشقان لمحنوبان بسبب الألم ، إلى السيطرة على قلبيهما . اما وقد تحرر العاشقان من نداء الحواس الطائشي وأصبحا في سلام مع ضميرهما ، وبقيا مع ذلك ، أمينين لعاطفتهما الصافية المهذبة ، فانهما يعيشان مجتمعين ، برعاية زوج (جولي) . ويعيش (سان برو) عند (السيدة دلمار) محتفظاً بحبه (لجولي ويتانغ) ، وتستمر (جولي) على حب (سان برو) ، ولكنها لن تكون سوى « حبيبة روحه » . وهكذا تلتقي الفضيلة والسعاده على مستويات مختفة في هذه الرواية ذات المظاهر المتعددة . وتحكم هذه المبادىء نفسها ، الاقتصاد المنزلي ، وتربية الأطفال في آن راحد . وتعلو الحياة

في (كلايتز) منظمة وهادئة وسعيدة ، ومعاكسة ، في أغلب الأحيان ، للحياة التي يصنعها فساد المدن الكبرى ، وعبوديتها وشقاؤها . ولكن أكرست الحياة المدنية نهائياً للشقاء ؟ « لقد ولد الانسان حراً ، ومع ذلك نراه مصفداً بالحديد في كل مكان . . . فكيف تم هذا التغيير ؟ انني أجهل ذلك . وما الذي يستطيع أن يجعل الوضع الجديد قانونياً ؟ اعتقد انني أستطيع حل هذه المشكلة . » وهكذا يسلم المؤلف ، في هذا التمهيد (للعقد الاجتماعي) ، مبهجه ومنهجه دفعة واحدة .

(قانون وعقد)

ارساء أسس الحق السياسي للانسان ، ثم اشادة بنائه ، ذلكم ما كان يطمح روسو إليه . لهذا ابتعد عن وصف الحق كما هو ، وحدد لنفسه غاية محددة هي التفتيش عما سيكون عليه هذا الحق . انه ، قد قرر ، بشكل آخر ، ان يثبت شروط امكانية ايجاد مجتمع قانوني ، تنتج عنه سلطة قانونية . ان الفعل — في نظره — لا يصنع حقاً . لذلك يتكلم كفيلسوف ، لا كعالم بالسلالات ، أو مؤرخ ويعرض ، على هذا الشكل ، الطريقة الفرضية الاستنباطية . ثم يعرض المشكلة على الشكل التالي : ايجاد نمط من المجتمع الذي يؤكد لكل فرد السلامة (أي شكل يرتدي في الحية الاجتماعية المفهوم الخاص للسعادة ، التي هي محرك المرور من حالة الطبيعة ، إلى الحالة المتمدنة) مع السماح له بأن يحتفظ بحريته ، أي بعدم خيانة جوهره .

لقد التقى لديه ، في آن واحد ، فلسفة (لوك) ، وقلق (هوبز) الفلسفي فالسلامة والحرية هما القطبان المنظمان لمدينته .

ويرفض روسو كل سلطة تستند على امتيازات الطبيعة ، أو على حق الأقوى . فالسلطة الوحيدة القانونية ، وبالنسبة إليه ، هي السلطة التي تلد من اتفاق وتعاقد متبادلين بين المتعاقدين . انه ، إذاً ، ميثاق تجمع وانضمام ، لم يتبعه أي ميثاق أو أكراه . فليس الشعب وحده مصدر السيادة ، ولكنه يظهر لنا أيضاً ، وكأنه يمارس هذه السيادة . وهذه السيادة تستمر « غير قابلة للتصرف بها » و « غير قابلة للتجزئة » إذا سخدمنا تعابير روسو المتعجرة . وهكذا ينتسب الحاكم والشعب إلى الانسانية نفسها متفحصة من روابط مختلفة . ولنقل بشكل آخر ، ان كل فرد يرتبط مع نفسه بوثاق ينص فيه على انه فرد من هيئة اجتماعية. ويؤكد روسو أن « اطاعة القانون كما تلزم الانسان هي الحرية ذاتها » : « فكل فرد هو أيضاً مواطن ، أو هو كما في قولنا : « مقابل كل حق واجب . » ان كل واحد منا يضع في المجموع شخصيته وكل مقدرته تحت القيادة العليا للارادة العامة ونحن نتلقى في المجموعة كل فرد وكأنه جزء لا يتجزأ من كل . ان حجر الزاوية بكل ديمقراطية ، هو الصيغة الروسيوية المشهورة التي تعني الارادة العامة. وترمي هذه الارادة دائماً إلى النفع العام ، وتتكشف على العكس ، في داخل كل فرد . وهي تتوافق ، من ثم ، مع الضمير الذي يسمع في أعماق كل منا ، بحيث انه لايمكن ، كما أراد الكثيرون ، اعتبار النصرة الروسيوية عن الدولة ، قائدة نحو النظرية (الكليّانيّة) .

وهكذا لاتنقطع منارتان عن ارشد بحث روسو وعن إنارة نظريته : الحرية من جهة ، والسلامة (نظاما اجتماعياً ، وسعادة عامة) من جهة أخرى .

روسو المشرع :

إن نشر (جهر بعقيدة قس من مقاطعة السافوا) الذي يشكل جزءاً هاماً

من كتاب (أميل) الرابع ، قد كلف روسو التعذيب والنفي . فلقد مدح المؤلف الدين الطبيعي والتسامح العام . وأنقص أركان العقيدة إلى عدة مبادئ بسيطة جداً. وأسس ديانته على الضمير ، والفطرة الالهية ، وعلى التمييز بين الخير والشر . قال روسو : « إن العبادة الأساسية هي القلب » . ألا يجب علينا أن نعجب إذا مااتفق البرلمان والصوربون والكنيسة لمرة واحدة على اصدار حكم على (أميل) ثم مرسوم بالقاء القبض على روسو . ثم ضم مجلس جنيف الصغير ، بعد عدة أيام ، (أميل ، والعقد الاجتماعي) في نشرة واحدة شهرت بهما ، وأمرت بأن يمزق هذان الكتابان أمام باب البلدية « لأنهما كتابان متهوران ، وشائنان ، وكافران ويدعوان إلى تهديم الديانة المسيحية وجميع الحكومات . »

وهرب روسو بعد أن أنذر بالتهديد الذي سينزل به ، إلى (ايفردون) حيث طردته منها حكومة برن ، ثم إلى (موتيه) ، في إمارة (نوشاتيل) حيث عاش مدة سنتين تحت حماية ملك بروسيا . ومن هنالك أخذ يرد على متهميه ، وعلى اسقف مدينة باريس ، وعلى حكومة برن في (رسالة إلى كريستوف دوبومون) وفي (رسالة مكتوبة من الجبل) ، وهما أثران كان الأسلوب فيهما حراً وقاطعاً بشكل خاص .

لقد أظهر روسو في (العقد الاجتماعي) أن مصير الانسانية يرتبط بطبيعة المؤسسات السياسية ، وأن بضعة شعوب فقط لم تحمل أبداً « نير القانون الحقيقي ». فعاشت في سلام ، واكتفت بنفسها ، واستطاعت أن تنجو من التدهور والتدمير. لقد أشار إلى جزيرة كورسيكا كواحدة من هذه الأقطار القليلة الخالية من التشريع .

ووافق ، استجابة لطلب حزب من أحز ب كورسيكا ، على اعداد (مشروع دستور) مستمد من المبادئ التي عرف بها في (العقد الاجتماعي) . على أن تتلاءم مع الحالة الطبيعية ، والسياسية ، والجغرافية ، والاقتصادية للجزيرة ولقد كان عليه أن يجيب بعد عدة سنوات على (اتحاد بار) الذي جاء يطلب رأيه في شكل اصلاح الدستور البولوني ولم يمنع (مشروع دستور لكورسيكا ، ولا ملاحظات حول حكومة بولونيا) من أن تحتل هاتان الدولتان وتقسما . ورأى روسو المخاطر التي تضغط على المجتمعات الصغيرة ، لذلك نصحها بأن تقوي روحها بممارسة الفضيلة ، وحرية التسامح ، وبأن تهتم خاصة بخلق روح عامة حقيقية تحميها من كل ماينزل بها من مصائب . وكما كان على المربي أن يصور فكر تلميذه الحر وروحه السعيدة . فإن على المشرع أن يعطي الشعب مؤسسات تؤكد له الحرية ، وتقوده إلى الفضيلة .

٣ ـ تجربة معرفة الذات :

أما وقد أصيب روسو بسوء الفهم والاضطهاد ، فإنه قد انكب على كتابة (اعترافاته) ، طلباً لتبرئة نفسه وتوضيح شخصيته أمام العالم . وقطع « رجم » مدينة (موتيه) ، ثم طرده من جزيرة (سان بيير) للمرة الأولى ، عمله الذي استأنفه في (ويتون) بانكلترا ، حيث التجأ روسو . ومع ذلك ، فإن الوحدة ، وعدم معرفة لغة من يحيطون به ، وحالاته الطبيعية (بعض الحوادث زادت من هذيانه وشعوره بجنون الاضطهاد الذي كان مستتراً من قبل) . . . كل ذلك أقنع المؤلف بأنه كان ضحية مؤامرة واسعة ، لم يدبرها الموسوعيون ورجال الدين فقط ، بل بعض الوزراء ، وبعض المواطنين البسطاء أيضاً ، لكتم صوته ، الذي

هو صوت الحقيقة . ثم أعلن ، وقد أخذه الرعب ، وهو يغادر انكلترا فجأة ، بأنه قد أقلع عن نشر أي شيء في حياته « عن بعض الموضوعات » مهما كان نوعها ، بل أنه قد أقلع أيضاً عن كتابة مذكراته . وسيعيش روسو منذ ذلك اليوم في مجتمع الطبيعة ، مهتماً بعلم النبات ، ومتلذذاً بذكرى هنيهات شبابه السعيدة التي كانت نزهاته تذكره بها . وسينظم مجموعات نباتية ، وسيشكل معشبات ، وسيؤلف لاحدى صديقاته « رسائل في علم النبات » . فالطبيعه لم تفقد شيئاً ،في نظره ، من فضيلتها المهدئة ، وهي تنأى بالانسان عن قلقه ووساوسه وهي مصدر الأحلام بل والوجد ، لأنها تظهر الفن الذي أنشأ الله معه العالم .

ويتابع روسو ، بعد عودته من نزهاته ، كتابة (اعترافاته) التي لن تظهر إلا بعد وفاته بزمن طويل . أن القسم الأول يصحب القارئ بتناغم فرح ، منذ منذ ولادة الكاتب حتى مغادرة بيته إلى باريس عام ١٧٤٢ . إن روسو يريد تقديم انسان في صدق الطبيعة ، أنه يريد أن يرفع الغبار عن الصورة المختصة لكائن — شاذ ووحيد كما كان يعتقد — حتى يستطيع كل قارئ أن يرجع إليه . ولكي يصل إلى ذلك ، فإنه يعرض نفسه وبشكل جديد وأصيل تماماً : إنه يفتش في طفولته عما سماه « أصفاداً من العواطف السرية » ، أي مايسمى حسب نظرية فرويد « احساسات قاطعة » . وسينشئ وسيرسم صورته منطلقاً من مثل هذه الملاحظات . أما القسم الثاني من (الاعترافات) (باستثناء القسم الخامس الذي يعود أيضاً للقسم الأول بما فيه من بهجة النغمة) فقد كتب بسرعة أكبر ، وفي بضعة أشهر فقط ، وفي وقت كان فيه روسو على خلاف مع أكثر أصدقائه لذا بدا فيه حذراً ، مرتاباً ، مفرط الحساسية . وهو لذلك يفسر الحوادث التي

يروبها في ضوء التراجيديات التي أثارتها ، ويعطيها معنى استعراضياً . وسبلي، جنة الأطفال الموصوفة في الكتب السبعة الأولى اضطراب الشيخوخة وقلقها .

وإننا لنتساءل : أعاد روسو إلى باريس في عام ١٧٧٠ ليحبط هذه «المؤامرة» التي لن يصل إلى معرفة موضوعها أو حبكتها ، أو حتى المحرض عليها ؟ الواقع أنه بدأ بقراءة (الاعترافات) في دوائر خاصة ، بأمل استعادة الصداقة الأخوية التي كانت قد هجرته . ولكن هذه القراءات لم تحدث من أثر سوى السكوت الثقيل المزعج . عند ذاك كتب (محاورات روسو قاضي جان جاك) ، التي وضع نفسه فيها على المسرح ليجيب الذين اتهموه بصورة أفضل . ولقد حاول من جديد، وهو الذي يعيش في عالم عابث ، أن يدافع عن البراءة وأن يستجمع الكائن الانساني في ذاته ، ليعيد من جديد بناء وحدته . واستشف مرة ثانية الجنة الأرضية وعرضها لحنين البشر . لكن هذا المؤلف ، الذي بدأه تحت تأثير الخوف وخيبة الأمل ، فكان دليلاً روحياً حقيقياً ، قد انتهى بموافقة القدر الأرضي ، وانتظار حياة المستقبل . ويا للأسف ، ذلك أنه وقد أراد اهداءه إلى الله ، قد أخفق في محاولة وضع مخطوطته على مذبح (كنيسة نوتردام دوباريس) ، وتخيل أن الله نفسه قد رفض استجابة دعائه . إلا أنه تماسك مرة ثانية وألف كتابه (أحلام متنزه وحيد) وافتتحه بهذه الكلمات : « هأنذا إذا وحيد على هذه الأرض ، لا أخ لي ، ولا قريب ، ولا صديق ، و لا مجتمع ، إلا نفسي . ذلك أن الأكثر اجتماعية وحباً بين بني البشر قد أبعد ونفي باتفاق مجمع عليه . » ولقد وجد روسو وهو يتصل بالطبيعة ، الراحة والعزاء ، والحرية الداخلية ، ولقد قادته أحلام يقظته إلى بحيرة (بيين) ، حيث كان يتلذذ ممتلئ النفس بعاطفة الوجود ،

التي تملأه كلياً ، وتقوده إلى الله . . كان يفعل ذلك وهو مستلق في قاربه ، تاركاً إياه للأمواج تحركه كما تشاء ، بعيداً عن أذى البشر والأشياء .

ولقد مات روسو في (ايميرل) ، بعد بضعة أسابيع ، وأثناء عودته من نزهة كان فيها وحيداً . لقد انتهى قلق معرفة الذات وعذابه ، بينما استمر الأثر الأدبي في الحياة ، ولم ينقطع تأثيره عن أن ينمو ويكبر على مدى العصور . لقد عانى روسو في حياته من العداوة ، والغيرة ، وسوء الفهم ، لأنه كان رائداً في مجتمعه . إن آثاره قد جلبت له طوال حياته ، المصاعب والمتاعب ، لجسارته وأصالته ، أما بعد موته فستعرف هذه الآثار حظاً خارقاً مدهشاً ، ، وانتشاراً واسعاً واسعا .

وأنه ليمكننا القول بأن الأفكار المتنوعة التي طرقها روسو في ميادين مختلفة من الثقافة كالأدب ، والنفس ، والأخلاق ، والسياسة ، والتربية ، والموسيقى ، وعلم النبات. . .قد كان لهاتأثير أكيدوقاطع علىطريقة تفكيرالانسان في القرن التاسع عشر . لقد غدا (أميل) كتاب المربين المقدس ، كما أصبح (العقد الاجتماعي) دليل المصلحين السياسيين . أما آثاره التي ترجم فيها لنفسه فقد أوحت بأدب الذكريات : مذكرات ، ويوميات ، وروايات ، ترجم فيها أصحابها لأنفسهم . ألم يعتبر سيناكور وبنيامين كونستان ، ستاندال ونيرفال ، هولدرلين وكيركارد وتولستوي،أندريه جيد وشارل دوبوس القريبان منا . . . ألم يعتبر هؤلاء جميعاً روسو ملهمهم وموحي آدابهم وتفكيرهم ؟

سَفينــــــة المــَــوت

□ د . هـ . لورنـــس □ ترجـَمة : حنــا عبــود

الفرق بين شعر لورنس وروراياته ، هو فرق تفرضه ممالك الأنواع الأدبية. فما أتاحه لورانس الروائي لنفسه في الرواية كان بسبب بانورامية هذا النوع الأدبي ، ولذلك تبسط كثيراً في تقصي نظرته إلى الانسان والحياة ، بيسما لايتيح له اشعر أن ينال من الحرية مانالـه في دنيا الرواية :

فإذا نحينا جانباً هذا الفرق « النوعي » ، فإننا أمام نطرة واحدة تقريباً في الشعر والرواية . إنه النطرة داتها يسقطها بورانس على الانسان والحياة ، فيرى أن البؤس الجسدي مفروض . . . ولكنه مرفوض أيضاً في الوقت ذاته .

الفرص هو الذي أوجب الرفض . والفرض لايرتبط بهذا الفرد أو ذاك ، بل ينبع من « العلاقة » بين البشر . هذه العلاقة التي يجب – في رأي لورنس – أن تتغير .

إن تحرير الجسد من عبودية مذلة (وخاصة الجنس والطعام) يفسح المجال أمام الإنسان لأن يعيش الرحلة القصيرة (الحياة بمتعة وحرية نسبية ، وهذا لايعفيه من الرحلة الطويلة ، رحلة النسيان (الموت) . وإذا تذكر الإنسان أن

سفينة الموت في انتظاره المؤكد ، فإنه سوف يخلق قيماً غير هذه القيم ، أو بالأحرى يعيش حراً من غير قيم ترهقه ، وتحد من حريته ، وتبعده عن ذاتيته . ولعل ماعجب أن يفعله الإنسان هو أن يرضي جسده ، ويعتقه ، فلا مجال للحديث عن مثاليات ينتحها جسد مستعبد . إن المثاليات الحرة لاتنبع إلا من جسد حر .

وإذا كان المرء لايستطيع أن يجد مخرجاً للرحلة الأبدية ، فإن في مقدوره أن يجد مخرجاً للرحلة القصيرة الموقوتة . إذا لم يستطع صنع الراحة الأبدية ، فإنه يستطيع أن يصنع راحته في حياته .

وقصيدة « سفينة الموت » من أكثر قصائد لورنس دلالة على فلسفته ورؤيته العامة للحياة .

وهي للوهلة الأولى تبدو جد متشائمة ، يروح الانسان ويغدو في خضم الحياة لايستقر على شيء ولايعرف راحة ، لايتأكد إلا من أن سفينة الموت في انتظاره .

الجسد يموت ، والموت ،في الداخل ، وسرعان ماينتقل إلى العالم الخارجي. ولا نهاية للموت ، وسفينة الموت لاتعرف ميناء ترسو فيه . وعدة السفينة هي مايحتاجه الجسد « مجاذيف ، طعام ، صحون ، خمر ، ماهو ضروري للرحيل »

ومع هذه الصورة القاتمة نجد أن لورنس لاينسى أن الأمل كان أيضاً في صندوق « باندورا » فيقول :

ومن الأبدية ، شعاع

يفصل نفسه عن الظلمة ،

شعاع أفقي

يظهر ببعض الدخان المتقع على العتمة .

فعلى الرغم من البؤس ، فإن البشرية تتحدد . إنها ترى البؤس وتقبل عليه ، وفي ظنها أنها قادرة – وهي قدرة لو صممت – أن تمحو هذا البؤس الانساني الذي يبدأ بتحرير الجسد ، حسب رأي لورنس .

تتميز هذه القصيدة من بين قصائد لورنس بأنها تكثيف دقيق ومرهف لذلك الخوف من الموت الذي كان متغلغلاً في أعماقه .

– ١ –

الآن حلّ الخريف وآنَ أن تسقط الثمرة ،
وأن تبدأ الرحلة الطويلة نحو النسيان .

* * *

التفاحات تتساقط كقطرات الطل الكبيرة
وتسحق ذاتها لتخرج من ذاتها .

* * *

حان وقت الرحيل ، وقت يودع
المرء نفسه ، ويجد مخرجاً
من ذاته المتهاوية .

– ٢ –

هل بنيت للموت سفينتك ، أما فعلت ؟
ابن سفينتك للموت ، فسوف تحتاجها .

* * *

سيكون الصقيع الشرس قد حلّ ، عندما تسقط التفاحات
سميكة ، رعدية ، على الأرض المتصلبة .

* *

والموت يملأ الهواء مثل رائحة الرماد !
آه ألا تشمه ؟

* * *

النفس المستطارة في الجسد المرضوض
تجد نفسها تتلوى متقلصة وجفلة من البرد

الذي يهب عليها من الفوهات .

– ٣ –

ألا يمكن للمرء أن يحقق راحته الأخيرة
بسكين عارية ؟

* * *

بخناجر وسكاكين ، ورصاصات يمكن للمرء
أن يجد مخرجاً لحياته ؛
لكن هل تلك هي الراحة الأخيرة ، أخبرني ، هل هي ؟

* * *

بالتأكيد لا ، فكيف يمكن للقاتل ، حتى قاتل نفسه
أن يؤمن لنفسه راحته الأخيرة ؟

* * *

دعنا نتكلم عن الراحة التي نعرف
والتي يمكن أن نعرف ، الراحة العذبة العميقة المستكينة
لقلب قوي يشعر بالسلام
كيف يمكن أن نصنع هذا ، أن نصنع راحتنا الأخيرة ؟

— ٥ —

فابن ، إذن ، سفينة الموت ، لأن عليك
أن تستقل أطول رحلة ، إلى النسيان .

* * *

واخمد الموت ، الموت المؤلم المديد
الكامن بين ذاتك القديمة والجديدة .

* * *

أجسادنا ، من قبل ، تهاوت مرضوضة بقباحة
نفوسنا ، من قبل ، ارتشحت عبر مخرج
الرض المؤلم .

* * *

من قبل ، محيط النهاية المؤلم اللانهائي
يغتسل من صدوع جراحنا
ومن قبل انداح علينا الطوفان .

* * *

ابن سفينة موتك ، ابن فلكك الصغيرة

موّنها بزاد ، من خمر وكعكات صغيرة
من أجل الرحيل الحالك إلى النسيان .

— ٦ —

رويداً رويداً سيفنى الجسد ، والروح المهلة
أمحت قدماها ، حالما حلّ الطوفان القائم .

* * *

إننا نموت ، نموت ، جميعاً نموت
ولا أحد يوقف طوفان الموت في داخلنا
فسريعاً سوف يفيض على العالم ، على العالم الخارجي .
إننا نموت ، نموت ، أجسادنا تموت رويداً رويداً
وقوانا تخوننا
وروحنا ترتجف عارية في المطر القاتم فوق الطوفان ،
ترتجف في آخر أغصان شجرة حياتنا .

— ٧ —

إننا نموت ، نموت ، وكل مانستطيعه
الآن ، هو الرغبة في الموت ، وبناء سفينة الموت
لتحمل روحنا في أطول رحلة .

* * *

سفينة صغيرة ، بمجاذيف وزاد منوع
وكل العتاد اللازم والجاهز للروح الراحلة
والآن فلتمخر السفينة الصغيرة ، الآن حالما يفنى الجسد
وتفارق الحياة ، فتمخر الروح الهشة
في سفينة الشجاعة الهشة ، فلك الايمان
بمخزون طعامها ، ومقلاتها الصغيرة
وغيار الثياب ، فلتمخر
على الدمار الأسود للطوفان
على مياه النهاية
على بحر الموت ، حيث لانزال نقلع
بقتامة ، لأننا نعجز عن إدارة الدفة ، ولاميناء نرسو فيه .

* * *

ليس ثمة ميناء ولا أي مكان نأوي إليه
فقط السواد الأعمى لايزال مظلماً
يحوم فوق الطوفان المتطامن الصامت ،
ظلمة فوق ظلمة تطبق على المرء ، في الأعلى والأدنى
وفي كل جانب ظلام مطبق ، فليس ثمة اتجاه
والسفينة الصغيرة هناك ، ومع ذلك فهي تمضي .
تفوتها الأنظار ، إذ لاشيء يراها .

إنها تمضي ، تمضي ، ومع ذلك
فهي في مكان ما .
لامكان .

— ٨ —

كل شيء يمضي ، الجسد يمضي
نهائياً ، يمضي ، كلياً يمضي .
والظلمة العليا ثقيلة كالسفلى
والسفينة بينهما
تمضي .

* * *

إنها النهاية ، إنه النسيان .

— ٩ —

ومن الأبدية ، شعاع
يفصل نفسه عن الظلمة ،
شعاع أفقي
يظهر ببعض الدخان المتقع على العتمة .

* * *

أهو توهّم ؟ أم هل الدخان الشاحب
تصاعد أعلى قليلاً ؟
آه . انتظر ، انتظر ، فهناك الفجر ،
الفجر العاتي ، العائد إلى الحياة
من النسيان .

* * *

انتظر ، انتظر ، السفينة الصغيرة
تندفع ، تحت فجر طوفان
منطفئ رمادي .

* * *

انتظر ، انتظر ، وحتى هكذا ، فإن توهجاً
أصفر غريباً لروح متجمدة شاحبة يظهر ، توهج وردة ،
توهج وردة ، والشيء كله يبدأ من جديد .

— ١٠ —

الطوفان يهدأ ، والجسد ، مثل محارة بحرية مهترئة
يظهر غريباً ، وفاتناً .

* * *

والسفينة الصغيرة تؤوب إلى الديار ، مترنحة منحدرة
على الطوفان الهائج ،
والروح الهشة تخطر ، وتمشي في الديرة ثانية
مالئة القلب بالسلام .

* * *

تؤرجح القلب فيتجدد بالسلام
برغم النسيان .

* * *

فابن سفينتك للموت . ابنها ،
لأنك ستحتاجها ،
لأن رحلة النسيان في انتظارك .

* * *

استيفاء الاثنتي عشرة

قصة : وليم سومرست موم
ترجمة : د. غسان الحاج ابراهيم

تعجبني بلدة إلْسُمْ ، ذلك المتجمع الساحلي غير البعيد من ابْرايتن ، في الجنوب من انكلترا ، فإن فيها شيئاً من تلك الفتنة الجورجية الغابرة لتلك المدينة الجميلة . على أنها لم تكن مدينة في عنفوان شبابها وبهرجها ، فمنذ عشرة أعوام عندما لم تكن زياراتي لها نادرة ، كان لايزال يرى المرء فيها هنا أو هناك بيتاً قديماً راسخاً ببيانه مختالاً ، ولكنه اختيال لم يكن يسوء ، كاختيال سيدة عجوز ذات حسب ونسب ، فهي تدل بحسبها وتعتز بنسبها في لباقة تطرفك وتمتعك قبل أن تغيظك وتنفرك . وهو عادة بيت قديم من تلك البيوت التي بنيت في عهد السيد الأول في أوربا ، ولعله المأوى الذي أمضى فيه أيامه الأخيرة رجل من حاشية السلطان ممن أديرت حالهم بعد اقبال وكان للشارع الرئيسي فيها طابع كلال وفتور، حتى لتبدو فيه سيارة الطبيب وكأنها نشاز في ذلك المكان. فربات البيوت يقمن بأعمالهن في فتور وابطاء ، فيثرثرن مع اللحام وهن يرقبنه يقطع لهن من ذبيحته قطعة من أجود قطع العنق، ويسألن في لطف عن زوجة البقال وهو

يضع لهن في أكياسهن المُشبّكة نصف ليبرة من الشاي وكيساً من الملح . ولست أدري ، أأتى على إلسم زمن كانت فيه مدينة راقية ، فإنها لم تكن كذلك عندئذ ، وإن كانت مع ذلك مكاناً محترماً ورخيصاً . وكان يعيش بها نسوة مسنات ، أرامل وعوانس ، وموظفون مدنيون في الهند وجنود متقاعدين ، وكانوا جميعاً يترقبون بشيء من الذعر شهرَي آب وأيلول وأولئك القادمين فيهما لقضاء عطلتهم ولكنهم مع هذا لم يكونوا يترفعون عن إيجار بيوتهم ، ثم انفاق تلك الأجور في أسابيع لاهية يمضونها في نزل سويسري . ولم أكن أعرف إلسم في ذلك الفصل الصاخب عندما كانت تزدحم أنزالها ، ويتبختر الشبان فيها في ستراتهم الملونة وعندما كان المهرجون يعرضون ألعابهم على الشاطئ ، وكانت تسمع طقطقة كرات البليارد في نزل دلفن حتى الحادية عشرة في الليل ، وانما كنت أعرفها في الشتاء ، وعندئذ كنت ترى في واجهات البيوت المُجصّصة المطلة على البحر ذوات النوافذ الناتئة التي بنيت منذ مئة عام ، لوحات تنبئ عن وجود غرف للايجار . وكان يخدم النزلاء في دلفن نادل واحد مع الخادم . وكانت إذا حلت الساعة العاشرة جاء البواب إلى غرفة التدخين وأمعن النظر فيك امعاناً لاتجد معه بداً من القيام . عندها كانت إلسم مُستراحاً ، وكان نزل دلفن نزلا مريحاً . وكان من الممتع أن يعلم المرء أن الوصي على العرش جورج الثالث قد قاد عربته مع السيدة فتسهربرت أكثر من مرة يشرب معها الشاي في مطعم ذلك النزل .

وكانت في الردهة هناك رسالة في إطار من السيد ثاكري يطلب فيها غرفة جلوس وغرفتي نوم مطلتين على البحر ، ويعطي فيها تعليمات كي ترسل له عربة صغيرة إلى المحطة لملاقاته .

نزلت السم بعد الحرب بسنتين أو ثلاث سنوات في شهر تشرين الثاني طلباً للاستجمام إثر نزلة حادة. وصلتها عصراً، فلما أخرجت أمتعتي من حقائبي ورتبتها خرجت أتمشى على الشاطئ . كانت السماء ملبدة بالغيوم والبحر الساكن كالحاً وبارداً . وكانت بضع زماح تطير محاذية للشاطئ ، وقد صفت المراكب الشراعية التي أنزلت صواريها للشتاء مرتفعة على الشاطئ الحاصب ، وقامت أكواخ الساحة جنباً إلى جنب في صف طويل مبعثر أغبر . ولم يكن هناك من يجلس على تلك المقاعد التي نثرتها البلدية هنا وهناك ، ولكن أفراداً قلائل كانوا يسعون متثاقلين جيئة وذهاباً طلباً للرياضة وقد مر بي عقيد شيخ ذو أنف محمر يرتدي سروالاً ويضرب الأرض في سيره يتبعه كلب صغير. ثم مرت امرأتان عجوزان في رداءين قصيرين وحذاءين غليظين ، وفتاة دميمة في قلنسوة من صوف . لم أكن قد رأيت الشاطئ مقفراً كإقفاره يومئذ . فقد بدت الأنزال وكأنها عوانس مبللات الأذيال في انتظار عشاق لن يعودوا ، حتى نزل دُلْفن اللطيف كان يبدو كئيباً مقفراً . فانقبضت نفسي لذلك أيما انقباض ، وبدت لي الحياة فجأة كئيبة رتيبة . فعدت إلى الفندق وأرخيت ستائر غرفتي ، ثم أسعرت النار وأخذت كتاباً أغالب به انقباض نفسي . ولكني سررت مع ذلك عندما حان موعد العشاء ، فقصدت المطعم حيث وجدت نزلاء الفندق قد اتخذوا أماكنهم فيه ، فألقيت عليهم نظرة عابرة . كانت هناك سيدة كهلة تجلس بمفردها ، وسيدان مسنان لعلهما لاعبا كُلْف ، ذوا وجهين أحمرين ورأسين كادا أن يكونا أصلعين ، كانا يتناولان طعامهما في سكون ممض . ولم يكن في المكان فضلاً عن أولئك سوى مجموعة من أشخاص ثلاثة كانوا يجلسون عند النافذة الناتئة وقد لفتوا انتباهي فور رؤيتهم وأثاروا دهشتي . كانوا شيخاً وسيدتين ، احداهما عجوز

لعلها زوج ذاك الشيخ ، وأخراهما أصغر منها ولعلها ابنته . كانت العجوز هي التي أثارت اهتمامي باديءَ ذي بدء . فقد كانت ترتدي رداءً فضفاضاً من الحرير الأسود وكمة ذات تخريم أسود ، وتضع في معصميها سوارين ذهبيين ثقيلين ، وحول عنقها سلسلة ذهبية قيمة كان يتدلى منها حق ذهبي . وكانت تزين نحرها بمشبك ذهبي كبير . لم أكن أحسب أن أحداً لايزال يتزين بذلك النوع من الحلي . وكثيراً ماكنت أمر بالمسترهنين أو بالصاغة الذين يبيعون الحلي المستعملة ، فكنت أقف هُنَيْهة أتملى تلك الحلي الغريبة العتيقة التي كانت متينة وغالية بقدر ماكانت قبيحة ، وكنت أفكر في ابتسام مشوب بشيء من الأسى بأولئك النسوة ممن قضَيْن وبَعُدَ العهد بِهِن ممن كن يستعملها. وكان ذلك يعود بي إلى تلك الفترة التي كانت الأضاحيم والحواشي فيها تحل محل أطواق الخراطات ، والقبعاتُ المستديرة محلَّ العصائب ذوات الأكمة . كان البريطانيون آنئذ يفضلون في الأشياء والأمور الجودة والمتانة ، فكانوا يقصدون الكنائس أيام الآحاد ، فإذا قضوا صلاتهم انفتلوا إلى الحدائق ، وكانوا يولمون الولائم في العشاء ، تتعدد فيها ألوان الطعام اثني عشر لوناً ، ويقطع رب البيت لحم البقر و الدجاج بنفسه ، حتى إذا فرغوا من عشائهم تفضلت عليهم السيدات الماهرات في العزف بمقطوعة مندلسن « أغان بلا كلمات » يعزفنها ، بينما يغني الرجال أغنية انكليزية قديمة بأصواتهم الحسنة الجهيرة .

كانت صغرى المرأتين توليني ظهرها فلم يكن يظهر لي أول الأمر غير

أن لها قواماً أهيف فتياً ،وكانت ذات شعر بني كثيف قد مشط في عناية واتقان. وكانت تلبس ثوباً أطلس ، وقد جلسوا جميعاً يتحدثون بصوت خفيض ، ثم رأيتها وقد التفتت برأسها فبدت لي صفحة وجهها بجمالها المدهش . كان أنفها مستوياً دقيقاً ، وكانت قسمات خدها بديعة التكوين . وقد رأيت عند ذلك أنها كانت تحاكي بتسريحة شعرها الملكة الإسكندرة . ثم فرغوا من عشائهم وقاموا جميعاً ، تسبقهم العجوز بمشيتها الوقور خارجة من الغرفة ، غير ناظرة إلى اليمين أو الشمال ، تتبعها الشابة . عند ذاك رأيت في دهشة بالغة أنها هي الأخرى عجوز . كان ثوبها بسيطاً غاية البساطة ، وأطول مما كانت النساء تلبس تلك الأيام وكانت حياطة الثوب تدل بعض الشيء على زي عهد مضى ، ولعل خصره كان مُقَسَّماً أكثر مما جرت العادة عندئذ ، ولكنه كان ثوب فتاة وكانت طويلة تبدو وكأنها بطلة من بطلات تنسن ، دقيقة ذات ساقين طويلتين وقوام ممشوق . أما الأنف فكنت رأيته من قبل ، كان أشبه بأنف إلاهة يونانية ، وكان الفم جميلاً والعينان نجلاوين زرقاوين ، أما البشرة فمشدودة على العظام ، متجعدة عند الجبين وحول العينين ، ولكنها كانت بلا ريب بشرة جميلة في صباها . كانت تذكرك بأولئك النسوة الرومانيات ذوات الملامح البديعة التنسيق اللواتي كان ألما تادما يرسمهن ، واللواتي كن بالرغم من أزيائهن القديمة انكليزيات اقحاحاً . كان ذلك نوعاً من الكمال الباهت الذي لم يعد يراه المرء منذ خمس وعشرين سنة ، قد بلي اليوم كما بيت تلك الحكم المأثورة . وكان شعوري آنذاك وكأني عالم آثار يجد تمثالاً طال في الأرض ثواؤه ، فسررت لذلك الاتفاق الذي لم يكن في الحسبان ، إذ وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام

بقية من عهد باد وانقضى . ولايوم أبعد عهداً من أمس الدابر .

نهض الرجل عندما تركته السيدتان ثم قعد ، بينما أتاه نادل بكأس من الخمر البرتغالي الثقيل ، فشمه ورشف منه ، ثم أدار مارشف بلسانه . وجلست أراقبه. كان رجلاً صغير الحجم ، دون زوجته المهيبة في الطول ، ممتلئ الجسم في غير بدانة ، ذا شعر متجعد أشيب ، قد تغضن وجهه وتجعد ، وان بدا في نظرته شيء من المرح العابث بشفتيه المزمومتين وذقنه الطويلة . وكان في لباسه أقربَ إلى المغالاة باعتبار مفهومنا الحاضر للباس ، إذ كان يرتدي سترة مخملية سوداء ، وقميصاً مكشكشاً ذا قبة متدلية ورباط عنق كبير وبنطال سهرة عريض ، فكان يخيل إليك أنه يرتدي زيا من أزياء المواسم أو الحفلات . فلما شرب خمرته متمهلاً قام ومشى الهوينى خارجاً من الغرفة .

فلما قطعت الردهة وفي نفسي تشوف إلى معرفة أولئك القوم المكَرين ، نظرت في سجل الزوار ، فاذا فيه أسماء السيد إدْون سَنْتْ كلير والسيدة زوجه والآنسة بورتْشستَرَ مكتوبة جميعاً بخط أنثوي كذلك الذي كانت تتعلمه الفتيات في المدارس التي كانت على شيء من الرقي منذ أربعين عاماً أو نحوها . وكن عنوانهم المسجل هناك هو ٦٨٠ ، ساحة ِلنْستَنَه ، ِبيزْووته ، لندن . تلك بلا ريب كانت أسماء أولئك الذين أثاروا اهتمامي وفضولي وداك كان عنوانهم . فسألت القائمة على النزل عمن يكون السيد ست كلير فأخبرتني انها تظن إنه ذو شأن في المدينة . ثم ذهبت إلى غرفة البليارد ، طرقت كرانه ساعة من زمن

غدوت بعدها إلى المُنتَدَى في طريقي إلى الطابق العلوي . كان السيدان ذوا الوجهين الأحمرين يقرآن صحيفة المساء ، بينما كانت السيدة الكهلة مُغمَضَةً قد غلبها الكرى وهي تقرأ قصتها . أما أصحابي الثلاثة فقد انزووا في ركن المكان، حيث كانت السيدة سنت كلير تنسج صوفها ، والآنسة بورتشستر منهمكة في تطريزها ، وكان السيد سنت كلير يقرأ جهراً بصوت خافت مِرْنن . وقد وجدت وأنا أمر بهم أنه كان يقرأ كتاب « الدار الكئيبة » .

قضيت اليوم التالي في قراءة وكتابة حتى العصر ، ثم ذهبت أتمشى . وفي طريق عودتي جلست هنيهة على دكةٍ من تلك الدكاك الملائمة القائمة على مرأى من البحر . لم يكن البرد شديداً كما كان أمس ، بل كان النسيم عليلاً منعشاً ، وجلست لا أجد ما أعمله سوى أن أراقب شخصاً كان يدنو مني من بعيد ، تبينت فيه بعد أن أصبح قريباً مني رجلاً مهلهل الثياب ، صغير القامة ، يرتدي معطفاً أسود رثاً ، ويعتمر قبعة مُقَبَّبَةً متكسرة بعض الشيء . وكان يمشي واضعاً يديه في جيبيه ، وقد بدا أثر البرد عليه ، فلما مر بي رماني بنظرة خاطفة ، ثم ابتعد خطوات تباطأ بعدها ثم وقف وعاد أدراجه ، حتى إذا اقترب من الدكة التي كنت أجلس عليها ، أخرج يدا من جيبه ، ومس بها قبعته محيياً. ولحظت عند ذاك أنه كان يلبس قفازين أسودين أرثّيْنِ . وحسبت مفترضاً أنه أرمل قد ضاقت به الحال ، أو لعله نوّاح يبتغي مثلي النقاهة من نزلة حادة .

قال « عفواً يا سيدي ، هل تتفضل علي بعود ثقاب ؟ »

قلت « بلا شك » .

ثم قعد بقربي ، وبينما كنت أدس يدي في جيبي لأخرج الثقاب ، كان يبحث في جيوبه عن لفائف التبغ ، ثم أخرج بعد لأي علبة صغيرة ، نظر إليها ثم عبس وقال ،

« وَيْ ، وَيْ . . ما أعيظني ، إذ لم يبق معي حتى لفافة تبغ واحدة » .

فأجبته باسماً « دعني أقدم لك واحدة » .

ثم أخرجت علبتي ليأخذ منها .

قال وهو ينقر العلبة وأنا أغلقها « ذهب ؟ أهي من ذهب ؟ ذالك شيء لا يمكنني أن أحتفظ به طويلاً . لقد كان لدى ثلاث سرقت جميعاً » .

واستقرت نظرته الحزينة على حذائه الذي كان في حاجة ماسة إلى الخصف . كان رجلاً ضَمِرًا ذا أنف طويل دقيق وعينين مَلْحَاوين وبَشَرة متغضنة شاحبة . ولم يكن بالامكان تقدير عمره ، فقد كان من الممكن تقديره بخمسة وثلاثين عاماً ، كما كان من الممكن تقديره بستين عاماً ، ولم يكن في الرجل ما يميزه سوى ضآلته . ولكنه رغم ما بدا من فقره فقد كان نظيفاً مُهَنْدَماً ، وقوراً مستمسكاً بوقاره ، لا لم يكن ذلك الرجل نواحاً كما حسبت ، بل أحسبه كاتب عام قد دفن عن قرب زوجه فأرسله رب عمله إلى إلسم شفقة منه لعله يخفف عنه وقع مصابه .

ثم سألني قائلاً « هل تطول اقامتك هنا يا سيدي ؟ » .

قلت « عشرة أيام أو أسبوعين » .

قال « أهي أول مرة تزور فيها السم يا سيدي ؟ » .

« بل جئتها من قبل أيضاً » .

« أما أنا فأعرفها حق المعرفة يا سيدي . وانه ليخيل إلي أنه قل أن يكون هناك منتجع ساحلي لم أزره في وقت من الأوقات ، ولكن السم أفضلها بلا منازع إذ تجد فيها طبقة من خيرة الناس ، ولست تجد فيها صخباً أو وضاعة ، إذا فهمت عني ما أقصد يا سيدي . ان لي في السم لذكريات سعيدة حقاً ، فلقد كنت أعرفها جيداً فيما مضى من أيام ، لقد تزوجت في كنيسة القديس مارتن يا سيدي » .

قلت بفتور « حقاً » .

قال « لقد كان زواجاً سعيداً يا سيدي » .

قلت « انه ليَسُرني أن أسمع ذلك » .

قال متفكراً « تسعة أشهر دام ذلك الزواج » .

كان في ذلك الرد شيء من غرابة ولا ريب . ولم أكن قد ترقبت بحماس سماع ما أدركت أنه سيقصه علي من أخبار زواجه ، ولكني بدأت أرقب الآن أن أسمع منه شيئاً آخر بشيء من التطلع ان لم يكن بكثير من الحماس . ولكنه

لم يقل شيئاً ، بل تنهد قليلاً . وكنت أنا الذي قطعت ما ران من صمت قائلاً ،

« ليس هناك كثير من الناس فيما يبدو » .

« اني أفضلها كذلك ، فأنا لا أحب الزحام ، وكما قلت آنفا فاني لأحسب أني أمضيت سنوات عديدة متنقلاً من منتجع ساحلي إلى آخر ، ولكني لم أكن أذهب أيام المواسم ، بل كنت أفضل الشتاء » .

« ألست تجدها كئيبة عندئذ ؟ » .

فالتفت إلي ووضع يده ذات القفاز الأسود على ذراعي هنيهة ثم قال « إنها كئيبة بلا ريب ؛ ولذلك يعدو الشعاع الصغير من الشمس مرغوباً فيه آنئذ ومطلوباً » .

كان جواباً فيما بدا لي غبياً فلم أجب بشيء . ولكنه رفع يده عن ذراعي ثم قام واقفاً وهو يقول ،

« لا ينبغي أن أشغلك يا سيدي ، ولقد سرني أن تعرفت بك » .

ثم رفع قبعته المتسخة في أدب بالغ ومضى في طريقه . كان البرد قد بدأ يشتد ، فظننت أنه يحسن بي عندئذ أن أعود إلى دلفن ، فلما وصلت درجاته العراض كانت عربة يجرها حصانان ضامران تقترب من مدخل النزل ثم تقف بجواره ، وينزل منها السيد سنت كلير . وكان يعتمر قبعة بدت وكأنها نتاج تزاوج بائس بين قبعة مُقَبَّبَة وبرطل . ثم قدم يده لزوجة فابنه أختها ،

وتبعهم البواب وهو يحمل وسائد ونمارق . وبينما كان السيد سنت كلير يفقد السائق أجره ، سمعته يأمره أن يأتي إذا كان الغد في الموعد المعتاد ، ففهمت من ذلك أن عائلة سنت كلير كانت قد ألفت أن تذهب كل رواح في عربة للنزهة . ولم يكن ليدهشني أبداً أن أعلم أن أحداً منهم لم يركب سيارة أبداً .

وقد أعلمتني القائمة على النزل أنهم كانوا يؤثرون العزلة ، وأنهم لم يحاولوا التعرف على الزوار الأخر النازلين في الفندق . وأملت لخيالي العنان . كنت أرقبهم يتناولون طعامهم ثلاث مرات في اليوم ، ورأيت لسيد سنت كلير وزوجه يجلسان في شرفة الفندق في الصباح ، فيقرأ هو (التايمز) بينما تنسج هي صوفها . وأحسب أن السيدة سنت كلير م تقرأ صحيفة أبدا . فانهما لم يكونا يأخذان إلا التايمز ، وكان السيد سنت كلير طبعاً هو الذي يأخذها معه إلى المدينة كل يوم وفي الساعة الثانية عشرة انضمت إليهما الآنسة بورنشستر . وسألتها السيدة سنت كلير قائلة « هل استمتعت بنزهتك يا إلنُوه ؟ » .

فأجابت الآنسة « لقد كانت نزهة ممتعة يا خالة » .

وفهمت من ذلك أن الآنسة بورنشستر كانت تذهب في « نزهتها » ماشية كل صباح ، كما كانت السيدة سنت كلير تذهب في « نزهتها » في العربة كل رواح .

وقال السيد سنت كلير وهو ينظر إلى نسيج زوجة « إذا أنهيت هذا الدور يا عزيزتي ، فقد نتَروَّضُ في مسيرة قبل الغداء » .

فأجابت السيدة قائلة « ما أحسن ذلك » ، ثم طوت نسيجها وأعطته الآنسة نورتشستر قائلة « إذا كنت ذاهبة إلى الطابق العلوي يا إلنور ، فهل لك أن تأخذي نسيجي معك ؟ »

قالت الآنسة « طبعاً يا خالتي كرترود » .

وقالت الخالة « لاشك أنك تعبة بعد نزهتك يا عزيزتي » .

وأجابتها قائلة « سآخذ قسطاً من الراحة قبل الغداء » .

ثم دخلت الآنسة الفندق ، بينما قام السيد سنت كلير وزوجه فتمشيا متباعثين جنباً إلى جنب على طول الشاطىء حتى بلغا مكاناً معيناً ، عادا بعده إلى الفندق متمهلين .

وقد مررت بأحدهما على درج الفندق فأحنيت رأسي ، فرد تحيتي بانحناءة مهذبة دون ابتسام . ثم أني غامرت بتحية في الصباح ، وكان ذلك غاية ما بيننا حتى ظننت أن لن تتاح لي فرصة الحديث مع أي منهم أبدا . ولكنني بدأت مع ذلك أشعر وكأن السيد سنت كلير كان ينظر إلي بين آن وآخر نظرات ذات مغزى وخيل الي أنه سمع باسمي فكنت أحسب أنه كان ينظر إلي بشيء من التطلع ، ولعلي كنت في ذلك واهماً ، ثم مضى يوم أو يومان بعد ذلك ، وكنت قاعداً في غرفتي إذ جاء البواب يحمل لي رسالة .

قال « ان السيد سنت كلير يبعث لك تحياته ، ويطلب منك أن تتكرم باعارته تقويم وتكر » .

وأدهشني ذاك حقاً .

قلت « ليت شعري ، ما الذي جعله يظن أن لدى تقويم وتكر ؟ »

قال البواب « ان القائمة على النزل قد أعلمته أنك كاتب يا سيدي » .

ولكنني لم أستطع أن أتبين علاقة ذلك بتقويم وتكر ، فقلت للبواب ،

« أبلغ السيد سنت كلير اعتذاري لأنه لا يوجد لدى تقويم وتكر ، ولو وجد لكنت أعرته اياه بكل سرور » .

تلك كانت فرصتي . وكنت قد غلبني الشوق إلى التعرف بأولئك النفر غريبي الأطوار عن قرب . لقد كنت أصادف بين حين وآخر قبيلة متوحدة في قلب آسية ، تعيش في قرية صغيرة بين قوم أغراب عنها ، دون أن يعلم أحد ما الذي أتى بهم إلى مكانهم ذاك ، أو كيف استقرت بهم النوى هناك . وهم يقضون أيامهم ويتخاطبون فيما بينهم بلغة خاصة بهم ، ثم لا يكون بينهم وبين جيرانهم اتصال أو خطاب ، ولا يعلم أحد من أمرهم شيئاً ، أكانوا أعقاب عصابة تخلفت عندما اجتاح قومهم تلك القارة بجموعهم الكثيفة ، أم البقية الباقية لأمة عظيمة كان لها السلطان في سالف الأزمان فهي جماعة لاتاريخ لها ولا مستقبل بل هي كاللغز العجيب . وقد خلت أن لتلك العائلة الصغيرة الغريبة مشابه من تلك القبيلة المنفردة . فهم جميعاً بقية عصر باد وانقضى . وانما يذكرني مرآهم أشخاص قصة من تلك القصص الرَسْلة العتيق طرازها كالتي كان يقرؤها آباؤنا فيما مضى . فهم ينتسبون إلى عشر الثمانين من القرن الماضي ، ثم لم يتغيروا مع الأيام . ما

أعجب أن يكون هؤلاء قد عاشوا حياتهم خلال أربعين سنة ، وكأن العالم من حولهم ساكن لا يتحرك . وأعادني مرآهم إلى أيام طفولتي فذكرت أناساً طال في لقبور ثواؤهم ، واني لأتسءل أحياناً عما إذا كان البعد هو الذي يخيل إلي أنهم كانوا أشد غرابة من أي امرىء تلقاه اليوم ، وانهم اذ كانوا يصفون أحدا من الناس بأنه فذ ، كانوا وأيم الله لا يقولون ذاك عبثاً .

فلما كان المساء ، وقد فرغنا من العشاء ، غدوت إلى المنتدى ثم خاطبت السيد سنت كلير بجرأة قائلاً :

« يؤسفني أني لا أجد تقويم وتكر ، ولكنه يسرني بالغ السرور أن أعيرك أي كتاب آخر قد تريده مما يتوفر لدي من الكتب » .

كان واضحاً أن ذلك رَاعَ السيد سنت كبير . أما السيدتان فقد غضتا بصريهما ناظرتين إلى ما كان بين أيديهما من عمل . وساد الجو صمت ثقيل .

« لا عليك ، ولكني فهمت مما سمعت أنك تكتب قصصاً » .

وأجهدت فكري عبثاً . لقد كان هناك ارتباط ولا ريب بين صناعة الكتابة وتقويم وتكر ، ولكنه ارتباط لم أكن أتبينه .

« فيما مضى كان السيد تْرُلُب كثيراً ما يتعشى معنا في ساحة لنسته ، وأذكر أنه كان يقول أن أكثر كتابين نفعاً لكاتب القصص هما الانجيل وتقويم وتكر » .

فقلت في قلق خشية أن يقف بنا الحديث عند ذاك الحد « يظهر أن ثاكريه قد نزل مرة في هذا الفندق » .

« لم أكن قط ممن يعجب بالسيد ثاكريه ، مع أنه تعشى مع حمي المرحوم سارجنت سوندرز أكثر من مرة . لقد كان لا يقتصد في هزئه بالناس وبما يدّعون من فضائل ومثل . ان ابنة أخت زوجتي لم تقرأ معرض الغرور حتى اليوم » .

واذ ذاك أحمر وجه الآنسة بورتشستر قليلاً بعد هذه الاشارة إلى شخصها . ثم جاء النادل بالقهوة ، والتفتت السيدة سنت كلير إلى زوجها قائلة « لعل هذا السيد أن يشرفنا بارتشاف قهوته معنا » .

ومع انها لم توجه خطابها إلي ، فقد أجبت من فوري « أشكرك شكراً جزيلاً » .

ثم قعدت . وقال السيد سنت كلير ،

« لقد كان السيد ترلب دائماً خير كاتب قصة عندي ، فلقد كان رجلاً كريماً كما ينبغي أن يكون الرجل الكريم . ومع أني أعجب بتشارلزدكنز ، إلا أن تشارلزدكنز هذا كان عاجزاً عن تصوير شخصية رجل كريم . واني لأحسب مما أسمع أن الشبان هذه لأيام يجدون في كتب السيد ترلب شيئاً من الجمود ، فان ابنة أخت زوجتي تفضل عليها قصص السيد وليم بلاك » .

قلت « ولكني لم أقرأ له شيئاً » .

قال « وَيْ ، فانك مثلي في ذلك كما يبدو ، لم تلحق بالركب . لقد أقنعتني ابنة أخت زوجتي ذات مرة أن أقرأ قصة للآنسة رودا بروّن ولكني لم أستطع أن أمضي في قراءتي بعد مئة صفحة منها » .

عند ذاك قالت الآنسة بورتشستر مدافعة عن نفسها ، وقد أحمر وجهها مرة أخرى « ولكني لم أقل إنها أعجبتني يا عماه ، بل قلت إن فيها خلاعة والجميع يذكرونها » .

« أنا واثق من أن كتابها ليس بالكتاب الذي تود خالتك كَرترود أن تقرئيه يا إلنوه » .

قلت « أذكر أن الآنسة بروّن أخبرتني ذات مرة أنها عندما كانت شابة كان الناس يقولون عن كتبها إنها خليعة ، فلما اكتهلت قالوا عنها إنها جامدة . وهذا من العجب ، فانها تكتب منذ أربعين عاماً نوعاً واحداً من الكتب لم تغيره» فسألتني الآنسة بورتشستر موجهة خطابها إلي للمرة الأولى « وَيْ ، وهل كنت تعرف الآنسة بروّن ؟ ما أجمل ذلك . وهل كنت تعرف ويدا ؟ » .

« يا عزيزتي التوه ، ماذا ستقولين بعد ؟ فأنا واثق من أنك لم تقرئي شيئاً لويدا »

« ولكني قد فعلت يا عمي إدون ، فلقد قرأت كتابها (تحت رايتين) وقد أعجبني كثيراً » .

« انك تدهشينني وتبغتينني ، لست أدري الأم صار حال الفتيات هذه الأيام » .

« لقد كنت دائماً تقول إني إذا بلغت الثلاثين فستعطيني حرية كاملة في أن أقرأ ما أشاء » .

« ولكن ، هناك فرق يا عزيزتي النوه بين الحرية والتهتك» . قال ذلك السيد سنت كلير وهو يبتسم ابتسامة خفيفة حتى يخف وقع تأنيبه ،وان كان مع ذلك قد حمّل قوله شيئاً من صرامة .

لست أدري أحالفني التوفيق في التعبير عن الأثر الذي تركه في نفسي ذلك الحوار الجذاب العتيق الطراز عن فحور عصر كان فتياً في عَشْر الثمانين من القرن التاسع عشر . كان بوسعي أن أقضي الليل بطوله أسمع لذلك الحوار . وإني لعلى استعداد لأن أدفع الكثير من أجل نظرة ألقيها على دارهم الواسعة الشاسعة في ساحة لنسته . وسوف لن أنكر فيها الطقم المغطى بالقماش المقَصَّب الأحمر وقد توطد في غرفة الاستقبال ، كل قطعة منه في مكانها المرسوم ، والخزائن المملوءة بقطع الخزف الصيني ، إن ذلك حري أن يعيد لي ذكرى طفولتي . وفي غرفة الطعام التي كانوا يتخذونها غرفة قعود لهم ويؤثرونها على غرفة الاستقبال التي لم تكن تستعمل إلا في الحفلات ، كان لابد من وجود البساط العجمي وخوان الآنية الصخم المصنوع من خشب الماهكي والمثقل بآنية الفضة . وعلى الحدران قد علقت صور كانت قد أثارت اعجاب السيدة همفري وورد وعمها ماثيو في مجمع عشر الثمانين من المئة التاسعة عشرة .

في صباح اليوم التالي كنت أتمشى في درب جميل يؤدي إلى طاهر إلسم ، عندما صادفت الآنسة بورنشستر وهي تقوم بنزهتها ماشية ،وقد وددت لو أماشيها

قليلاً لولا ثقتي بأنه سيخجل هذه العانس ذات الخمسين ربيعاً أن عاشي رجلاً حتى ولو كان في مثل سني الوقور . ولكنها حيتني بانحناءة وهي تمر واحمر وجهها. ومن عجب أن صادفت على بعد أذرع منها ذلك الرجل الصئيل الغريب مهلهل الثياب بقفازيه الأسودين ، الذي كنت حادثته لبضع دقائق على الشاطئ ، فلما مر بي لمس قبعته المُقَبَّبةِ العتيقة وقال .:

« عفواً ياسيدي ، هل يسعك أن تتكرم علي بعود ثقاب ؟ »

قلت مجيباً « بلا شك ، إلا أنني لاأحمل لفائف تبغ معي » .

قال « اسمح لي أن أقدم لك لفافة مما معي » . ثم أخرج علبته الورقية ، ولكنها كانت فارغة . « وَيْ . . وي ، ، فأنا لاأجد لفافة أيضاً ، ماأغربها مصادفة » .

ثم مضى في طريقه ، وخيل إلي أنه كان يحث الخطو شيئاً . وكان الشك قد بدأ يساورني في أمره ، فرجوت ألايعرض للآنسةبورتشستر أو يضايقها في شيء. وكدت أعود أدراجي وراءهما ، ولكني عدلت عن ذلك إذ ذكرت أنه رجل ضئيل مهذب ، لاأظن أنه يفعل مايعاب مع سيدة وحيدة .

وقد رأيته مرة أخرى عصر ذلك اليوم ، وكنت أجلس أمام الشاطئ ، عندما تقدم نحوي بخطوات قصيرة مترددة كانت ريح خفيفة تهب آنئذ ، وبدا الرجل وكأنه ورقة جافة تتقاذفها الرياح ، ولكنه لم يتلكأ هذه المرة ، بل قعد جانبي وقال « هانحن نتقابل مرة أخرى ياسيدي ، فالعالم صغير حقاً . وإذا لم يكن هنالك مايزعجك فلعلك تسمح لي بالاستراحة دقائق ، فإني أحدني متعباً » .

قلت « إنها دكة عامة ، ولك من الحق في القعود عليها كمثل حقي » .

ثم لم أنتظر أن يطلب مني عود ثقاب ، بل قدمت له لفافة من فوري .

قال « إنه لَلُطْفٌ منك ياسيدي . إني محتاج إلى أن أقصر نفسي على بضع لفافات محدودة في اليوم ، ولكني أتمتع بهذه اللفافات القليلة التي أدخنها ، فالمرء إذ يتقدم به العمر ، تقل مع تقدمه متع الحياة . وإن كنت قد أفدت من خبرتي في الحياة أن المرء يكون أكثر استمتاعاً بهذا القليل الباقي » .

قلت « إن في ذلك بعض العزاء . »

« عفواً ياسيدي ، ولكن ، ألست محقاً في أن أحسب أنك الكاتب المعروف ؟ » .

قلت « أنا كاتب ، ولكن ما الذي جعلك تظن ذلك ؟ » .

« لقد رأيت صورتك في الصحف المصورة . ولكني أحسب أنك لم تعرفني ؟ » .

فنظرت إليه ثانية . كان رجلاً ضئيلاً هزيلاً في ثيابه السوداء المرتبة المهلهلة ، وأنفه الطويل ، وعينيه الزرقاوين الدامعتين .

قلت « لا ؟ مع الأسف » .

فتنهد قائلاً « لاشك أني تغيرت . لقد غبر زمن كانت صورتي فيه في كل صحيفة من المملكة المتحدة . ولاشك أيضاً أن صور الصحف تلك لم تكن تعطي

المرء حقه . وأقسم لك ياسيدي أني لو لم أقرأ اسمي تحت بعضها ، لما أدركت أنها كانت تخصني » .

ثم صمت برهة . كان المد قد انحسر ، وبدت وراء الشاطئ الحاصب قطعة من أرض قد غطاها طين أصفر تغوص فيه حواجز الماء حتى كأنها عمود فقري لحيوان من حيوان ماقبل التاريخ .

« لاشك أنه أمر رائع وممتع أن يكون المرء كاتباً ياسيدي . وكثيراً ماكنت أحسب أن لدى ملكة للكتابة أيضاً . وكنت في وقت من الأوقات أكثر من القراءة ، ولكني أهملت ذلك فيما بعد . فعَيْناي لبستا حادتين كعهدي بهما ، وأحسب أني قادر على الكتابة لو أحاول » .

فقلت « أنه يقال أن بوسع أي امرئ أن يكتب كتاباً » .

« لست أعني كتابة قصة ، كما تعلم ، فلست من القصص في شيء ، إذ أفضل كتب التواريخ وماشابهها ، ولكني أعني كتابة المذكرات . ولو وجد من يغريني بذلك لم أكن لأرفض كتابة مذكراتي » .

« إن هذا دُرْجة العصر هذه الأيام » .

أولئك الذين لهم من التجارب مثل مالي . لقد كتبت إلى صحيفة من صحف الأحد عن ذلك منذ مدة ولكنهم لم يرسلوا لي جواباً » .

ثم نظر إلي نظرة فاحصة متمعنة . لقد كان يبدو عليه من الوقار مالا مجال معه لأن يسألني نصف درهم .

« ولكنك بالطبع لاتعلم من أنا ياسيدي ، أليس كذلك ؟ » .

قلت « لا والله » .

وبدا عليه أنه يتدبر الأمر لحظات ، ثم انه سوّى قفازيه الأسودين على أصابعه ، ونظر لحظة إلى خرق في أحدهما ، ثم التفت إلي في شيء غير قليل من الاحساس بالنفس وقال « أنا مورتمر الس المشهور » .

قلت « حقاً ؟ » .

إذ لم أدر كيف أجيب . لم أكن قد سمعت فيما أعتقد بهذا الاسم من قبل . ولاحظت خيبة تظهر على وجهه ، وأربكني ذلك قليلاً .

ولكنه كرر قوله « مورتمر الس ، لاتقل إنك لاتعرفه » .

« ولكن ذلك هو الواقع ، على أني كثيراً ماأكون خارج انكلترة » .

وتساءلت في نفسي عما يكون سر شهرته ، واستعرضت متفكراً عدة احتمالات . ولكنه لايمكن أن يكون رياضياً ، وهذا هو الشيء الذي يشتهر به المرء حقاً في انكلتره ، فلعله كان ممن يداوي مرضاه بالايحاء والايمان ، أولعله بطل من أبطال البليارد ، ولاريب أنه ماأحد مغمور كوزير سابق ، ولعله كان رئيساً لديوان التجارة والصناعة في عهد بائد ، ولكن علامة من علائم الساسة لم تكن تبدو عليه .

قال في أسى « بالضَّيْعة الشهرة . فلقد كنت حديث الناس في مجالسهم

أسابيع عدداً . ولم يكن من حديث في انكلترة يذ حديث الناس في . أنظر إلي، لابد أنك شاهدت صورة لي في الصحف مورتمرالس » .

ولكني هزرت رأسي بالنفي قائلاً « يؤسفني أني لاأذكر ذلك» .

وصمت برهة كي يزيد من وقع بيانه علي ، ثم قال« أنا المزواج المعروف» .

خيراً إن شاء الله . وماذا يسعك أن ترد على رجل غريب عنك لاتعرف عنه شيئاً عندما ينبئك بانه مزواج معروف؟ ولاأكتمك أني كنت أغر نفسي فارعم لها أنه مامن جواب مسكت أعيابه ، ولكني وجدت نفسي مع ذلك لاأحير في ذلك المقام . بينما تابع هو حديثه قائلاً « لقد تزوجت احدى عشرة زوجة ياسيدي » .

« أغلب الناس يجدون في القيام عن زوجة واحدة جهد طاقتهم » .

« بلى ، ولكنها قلة المراس ، ولو أنك تزوجت احدى عشرة زوجة لم تكن لتجهل عن النساء كثيراً أو قليلاً » .

« ولكن ، فيم اكتفاؤك باحدى عشرة ؟ » .

« أرأيت ؟ لقد علمت أنك ستقول ذلك . لقد حدثت نفسي ساعة رأيتك أن النجابة تلوح في وجهك . ألا فاعلم ياسيدي أن هذا هو مايقض دوماً مضجعي . فان الاحدى عشرة عدد منكر ، أليس كذلك ؟ إذ يوحي بالنقص . وليست كذلك الثلاثة ، فبامكان أي امرئ أن يقبل ذلك . ومثلها السبعة . ويقال أن التسعة

عدد يُمْن . والعشرة كذلك لاغبار عليها . ولكن ،احدى عشرة . . إنه هذا الذي آسف له . وماكنت آبه لشيء لو أني استطعت أن أتمهإلى اثنَي عشرة مستوفاة » .

ثم فك أزرار معطفه وأخرج من جيب فيه دفتر متسخاً منتفخاً ، أخرج منه حزمة من قصاصات الصحف البالية المتكسرة المتسخة . ثم نشرمنهاقصاصتين أو ثلاثاً ، وقال « حسبك أن تنظر إلى هذه الصور ،هل تشبهني في شيء ؟ ياللعار . إنها تجعلني أبدو للناظر مجرماً من المجرمين » .

وكان في القصاص اسهاب واطالة ، مما يحمل على الظن أن مورتمرالس وأخباره كانا حديثاً ذا قيمة في نظر مساعدي التحرير .وكانت قصاصة من تلك القصاصات تحمل هذا العنوان ، رحل مزوج . وعنونت أخرى هكذا، فاتك فظ يحاسب أمام القضاء ، وثالثة ، عيّارٌ حقير يلقى مصيره .

وتمتمت قائلاً « إنه ليس خير مايمكن أن تقوله الصُحُف» .

قال وهو يهز كتفيه النحيلين « اني ماأكترثت قط لمايقال عني في الصحف فلقد عرفت كثيراً من رجال الصحافة . . لا . . ولكني ألوم القاضي الذي أساء معاملتي ، وإن لم يعد عليه ذاك بالخير ، فقد مات من عامه ذاك » .

ونظرت في ذلك التقرير في آخره .

« لقد قضى عليك بالسجن خمسة أعوام فيما أرى » .

« ياللعار . حسبك أن تنظر إلى ماكتب هاهنا» وأشار بسبابته إلى موضع

من التقرير . « ثلاث من ضحاياه التمس تخفيف العقاب عنه ، إنهذا دليل على رأيهن في . ثم قضى علي مع ذلك بالسجن خمسة أعوام . بل انظر إلى ماقال عني ، عيّار غليظ القلب . أنا من قسه أطيب قلب . وسوس ينخر في المجتمع وخطر على العامة . بل قال إنه يتمنى لو استطاع أن يأمر بي فاجلد بالسياط جلداً ولست آبه للسنوات الخمس التي حكم بها علي ، وإن كنت على ثقةمن أنها فوق ماأستحق . ولكني أسألك بالله ، هل كان من حقه أن يقول عني ماقال ؟ كلا ، لم يكن ذلك من حقه ، وماكنت لأسامحه فيه قط ، ولو عشت حتى أبلغ مئة عام » .

واحمرت وجنتا الرجل المرواح ، بينما توهجت عيناه الدامعتان ناراً ، وبدا جلياً أن جرحه في ذاك كان غائراً غضاً .

وسألته « هل لي أن أقرأها ؟ » .

قال « قد أعطيتكها لذلك ، لأني أريدك أن تقرأها ياسيدي ، فإذا وسعك أن تقرأها ثم لاتعترف بعد أني مظلوم ، فلست بالرجل الذي ظننت ».

وإذ أخذت في قراءة تلك القصاصات ، قصاصة بعد أخرى ، أدركت سر معرفة الرجل الواسعة بمنتجعات انكلترة الساحلية ، فقد كانت تلك المنتجعات مصيده . وكانت طريقته في ذلك أن أن يقصد منتجعاً منها هادئاً بعد انقضاء الموسم فيه ، ثم يتحجر لنفسه فيه حجرات في نزل قفر . ولم يكن يحتاج فيما يبدو إلى وقت كثير بعد ذلك كي يتعرف على امرأة هناك ، أرملة أو عانس .

وقد لاحظت أن أعمارهن في تلك الأسماء تتراوح بين الخامسة والثلاثين والخمسين. وقد أدلَيْنَ في شهاداتهن أنهن قابلنه لأول مرة على شاطئ البحر . وكان يخطبهن إلى أنفسهن عادة في عضون أسبوعين من لقائه بهن ، ثم يتم الزواج بعد ذلك بقليل. ثم كان يحملهن بطريقة ما على أن يستود عنه ماادخرن من أموالهن ، حتى إذا انقضى على زواجه بهن أشهر معدودة هجرهن محتجاً بضرورة السفر إلى لندن في شؤونه ، ثم لم يرونه بعد ذلك أبداً ، إلا واحدة منهن رأته بعد أن هجرها ، حتى كان يوم أدلين بشهاداتهن ورأينه في قفص الاتهام وكن نسوة ذات مقام، فكانت إحداهن ابنة طبيب ، والأخرى ابنة قس ، كما كان بينهن قائمة على نزل ، وأرملة بائع جوّال وخياطة متقاعدة . وكانت ثرواتهن في الغالب لاتتجاوز ألف ليرة ، ولاتقل عن خمسمئة . ولكن أولئك النسوة الضالات كن يفقدن ذلك كله بالغاً مابلغ حتى آخر فلس منه . وقد قص بعضهن في ذلك قصصاً أسيفة عما آلت إليه حالهن من فقر واملاق . ولكنهن أجمعن مع ذلك على أنه كان خير الأزواج لهن، ثم لم تطلب ثلاث منهن تخفيف العقاب عنه فحسب، بل إن احداهن قالت في معرض شهادتها إنها تقبل به زوجاً مرة أخرى إذا شاء أن يعود إليها . ولاحظ أني كنت أقرأ ذلك فقال :

« ولاريب أنها كانت تحترف لي لوشئت . ولكني قلت لنفسي إن مافات قد فات . وإني أعترف بأني لست ممن يزهدون في طيبات الحياة ، ولست ممن يقنع بلحم الضأن المشوي البارد » .

وقد كان محض اتفاق أن مورتمرالس لم يتزوج زوجه الثانية عشرة ليستوفي بذلك الاثنتي عشرة كاملة ، ذلك العدد الذي كان يستهويه بتناظره وتناسقه .

فقد كان على وشك الزواج بآنسة تدعى هُبَارد . « وكانت تملك ألفين من الليرات كاملة غير منقوصة في ديون حربية » ، كما أسر لي. وكان عقد الزواج الزواج قد أوشك أن يبرم عندما رأته امرأة من نسائه السابقات فسألت عنه ، فلما علمت من أمره ماعلمت ، غدت إلى الشرطة بذلك ، فألقي القبض عليه في ذلك اليوم نفسه الذي كان سيسبق زواجه الثاني عشر .

« لقد كانت امرأة لئيمة خدعتني وغررت بي » .

قلت « كيف كان ذلك » .

قال « لقد التقيت بها في إستْبون في يوم من أيام كانون الأول عند المرسى وعلمت منها في سياق حديثها أنها تعمل قَلاسَة وقد تقاعدت . ثم قالت أنها جمعت قدراً غير قليل من المال ولكنها لم تعترف بمبلغه ،وان كنت فهمت منها أنه يقارب ألفاً وخمسمئة ليرة . ثم هل تصدقني إذا أعلمتك أني بعد أن تزوجتها تبين لي أنها لاتملك حتى ثلاثمئة ليرة ؟ ؟ ثم كانت هي التي أسلمتني من بعد . ومع اني لم ألمها حين اكتشفت خداعها ،وإن كان معظم الرجال ليجدون في أنفسهم ، ويكشرون عن أنيابهم إذا تبين لهم أنهم خدعوا أوغرر بهم . ولكني لم أفعل شيئاً سوى أني هجرتها دون أن أظهر ها شيئاً مماكان يعتمل في نفسي من خيبة أمل . . بل هجرتها ولم أنبس ببنت شفة » .

« ولكنك لم تنس ليراتها الثلاثمئة فيما أحسب » .

فأجب بلهجة المحزون « ولكن ، كن منصفاً، فإنك تعلم أن ثلاثمئة ليرة

لاتكفي أبد الدهر ، وكان قد مضى على زواجنا أربعة أشهر قبل أن تبوح لي بالحقيقة » .

قلت « هل لي أن أسألك هذا السؤال ، وإياك أن تحسب أني أعني به أي حط من قيمة ماأوتيته من حلال ولكن . . فيم كن يقبلن الزواج منك ؟ » .

قال وقد أدهشه سؤالي « لأني كنت أخطبهن ».

« ولكن ، أما كان منهن من يرفض الزواج منك ؟ » .

« كان ذلك نادراً ، بل لم يتجاوز أربع مرات أو خمسةفي فترة احترافي جميعاً . ثم إني لم أكن أتقدم بالخطبة حتى أكون واثقاً من نفسي ، ولايعني ذلك أني لم أكن أحجم أحياناً ، إذ لايعقل أن يصيب السهم دوماً ولا يطيش ، إذا فهمت ماأقصد . وقد طالما أضعت أسابيع عديدة وأنا أخطب ود امرأة قبل أن أستيقن أنه لاخير يرجى منها » .

واستسلمت زمناً لتأملاتي . ولكني لاحظت بعد هنيهة بسمة عريضة تنفرج عنها شفتا صاحبي .

قال « إني أدرك مرادك . فإنه مظهري لـلـذي يحيرك ، إذ أنت لاتعلم ماالذي يعجبهن في . أن ذلك أثر من آثار مطالعة الروايات ومشاهدة الأفلام . فأنت تحسب أن المرأة إنما تبحث عن رجل من قبيل رعاة البقر ، أوتبغي غراماً فيه مسحة أندلسية ساحرة مع عاشق براق العينين ، أسمر السحنة ، يجيد الرقص . إنك لتضحكني حقاً » .

قلت « يسرني ذلك » .

« وهل أنت متزوج ياسيدي ؟ » .

قلت « نعم ، ولكن من زوجة واحدة فقط » .

قال « إنك لاتستطيع أن تحكم على النساء . إذ كيف تحكم فتعمم من حالة واحدة ، إذا أدركت ماأرمي إليه . وإني أسألك بالله ماذا يعلم عن الكلاب رجل لم يمتلك في حياته إلا كلباً واحداً ؟ » .

كان سؤاله ذاك سؤالاً خطابياً لايتطلب جواباً . أما هو فقد صمت للحظة مؤثرة ثم تابع حديثه قائلاً ،

« إنك مخطئٌ ياسيدي ، مخطئٌ تماماً . فإنهن قد يعشقن فتى جميلاً ، ولكنهن لايرغبن في الزواج منه ، فإنهن لايأبهن للجمال في حقيقة الأمر » .

« لقد كان دوغلاس جرولد يقول ، وكان مشهوراً بفطنته ودمامته ، إنه لو سبق عشر دقائق إلى الحديث مع امرأة لاستطاع أن يغلب عليها أجمل رجل في الغرفة » .

« إنهن لايطلبن الفطنة . إنهن لايبغين الرجل المضحك ، فهن يحسبن أنه لايعدُ في شيء . وهن لايردن الرجل الجميل لأنهن يحسبنه غير جاد كذلك . تلك هي بغيتهن ، الرجل الجاد قبل كل شيء . فالطمأنينة أولاً ثم من يعنى بهن بعد ذلك . وقد لاأكون أنا جميلاً أو بارع الحديث ، ولكن صدقني إذا أقول لك

أن لدي ماتطلبه كل امرأة ، وذلك هو الاتزان . ودليلي في ذلك أني قد أسعدت نسائي جميعاً بلا استثناء » .

« إنه لمما يشهد لك بالفضل حقاً أن ثلاثاً منهن التمسن تخفيف العقاب عنك . وأن واحدة منهن رضيت أن تعيش معك مرة أخرى » .

« إنك لاتعلم كم أقلقني ذلك وأنا في السجن ، فلقد خشيت أن أجدها عند باب السجن في انتظار الافراج عني ، فقلت لمدير السجن بالله عليك ياسيدي إلا يسرت لي سبيل الخروج من السجن بحيث لايراني أحد » .

ثم مهد قفزيه مرة أخرى ، ووقعت نظراته على الحرق في الاصبع الأول ، فقال ،

« هداماتؤدي إليه سكنى الأنزال ياسيدي . أنى للمرء أن يحتفظ بلباقته وأناقته دون امرأة تعنى به . لقد تزوجت مراراً وتكراراً حتى أني لاأجدني أستطيع أن أعيش بغير زواج . إن هناك رجالاً لايحبون الزواج ، ولست أدري سر ذلك . وحقيقة الأمر أن المرء لايتقن عملاً إلاإذا أحبه ، وأنا أحب أن أتزوج. ولاأسهل علي من القيام بتلك الأمور الصغيرة لتي تحبها النساء والتي لايأبه لها بعض الرجال . وكما قلت آنفاً فإن المرأة تحب أن تجد الاهتمام بها . فلم أكن أغادر البيت إلا بعد أنأقبل زوجتي ، ولاأعود كذلك إلا وأقبلها مرة أخرى . ثم إني لم أكن أعود إلا حاملاً معي بعض أزهار أو حلوى ، دون أن آبه للنفقة في ذلك » .

فقاطعته إذ ذاك قائلاً « ولكنه مالها الذي كنت تنفق منه ، أليس كذلك ؟ »

« وما قيمة ذلك ، فإنه ليس ماتدفعه ثمناً للهدية هو المهم ، وإنما هو الدافع الذي يدفعك إلى إهدائها . ذلك ماتهتم له النساء . ومع أني لست ممن يحبون الفخر ، ولكني أستطيع أن أقول عن نفسي أني زوج صالح » .

ونظرت نظرات عابرات على أخبار المحاكمة التي كانت لاتزال في يدي ، ثم قلت :

« سأخبرك عما يدهشني في ذلك كله . فإن جميع أولئك النسوة كن سيدات مصونات قد تخطين عهد الشباب ، وكن شريفات وقورات ، ومع ذلك فقد قبلن الزواج منك دون أن يستأمرن فيك أحداً بعد تعارف قصير » .

ولكنه وضع يده في حركة مؤثرة على ذراعي وقال ،

« كذلك ، فإن هذا هو مالا تستطيع أن تفهمه إذن ياسيدي . ألا فاعلم أن النساء فيهن رغبة قاهرة إلى الزواج ، سواء منهن الشابات أو العجائز ، الطويلات الطويلات أو القصيرات ، السمراوات أو الشقراوات ، فإنهن جميعاً يتفقن في أمر واحد ، وهو أنهن يطلبن الزواج ويرغبن فيه . ثم لاتنس أني تزوجتهن جميعاً في الكنيسة ، فإن النساء لايشعرن بالطمأنينة حقاً إلا إذا كان زواجهن في الكنيسة . ولكنك قد تقول إني لست وسيماً ، فما أظن أني حسبت نفسي يوماً كذلك ، ولكني لو كنت مقطوع الساق ، أحدب الظهر ، لما أعجزني أن أجد من النساء ماأشاء ممن يقبلن الزواج بي متلهفات عليه راضيات به . فالزواج هو شغلهن الشاغل ، بل إنه داء فيهن . وما أحسب أنه كانت هناك امرأة واحدة من بين

أولئك النساء جميعاً كانت لاترضى بي زوجاً بعد لقائنا الثاني ، لولا أني كنت أحب أن أقدم على الأمر واثقاً من عواقبه ولقد كان هناك انكار واستهجان عندما ظهر أني تزوجت احدى عشرة مرة . احدى عشرة مرة فقط ! وهل هذا كثير ؟ فإنه أقل حتى من اثنتي عشرة مرة . لقد كان يسعي أن أتزوج ثلاثين مرة لو أني أردت ذلك . واني لأقسم لك ياسيدي أني عندما أفكر فيما أتيح لي من فرص لأجد نفسي معتدلاً غاية الاعتدال إذ قصرت مرات زواجي على احدى عشرة مرة » .

« لقد أخبرتني أنك كنت مغرماً بقراءة كتب التاريخ ؟ » .

« نعم ، فلقد قال ذلك ورن هاستنغ ، أليس كذلك ؟ لقد أدهشتني ذلك عندما قرأته ، فإنه لوصف يطبق على انطباق القفاز على كفها » .

« أما كنت تجد في تلك المغازلات الدائمة رتابة مملة ؟ » .

« إنني ياسيدي ذو عقل منطقي فيما أحسب ، لذلك يمتعني جداً أن أرقب النتائج المحسوبة وهي تتبع أسبابها إذا أدركت مرامي ياسيدي . ولأضرب لك مثلاً ، فمع امرأة عانس لم تتزوج كنت أزعم لها أني أرمل ، فكان ذلك له وقع السحر عليها ، إذ أن العانس تحب الرجل ذا الخبرة . أما مع الأرامل فكنت دوماً أقول أني أعزب ، فإن الأرامل يخشين من الرجل المتزوج أن يعرف أكثر مما ينبغي له » .

ورددت له قصاصاته ، فأخذها وطواها بعناية ثم أعادها إلى دفتره المتسخ .

« تعَلّمْ ياسيدي أني والله كنت مظلوماً . قد جاروا علي في الحكم . حسبك أن تقرأ ماقالوه عني ، سوس ينخر في المجتمع ، ونذل لايرعى إلاً ولاذمة ، وعيّار حقير . إني أسألك بالله ، هل تجدني كذلك حقاً ؟ أنت تعرفني ، وأنت عليم بالرجال ، وقد أعلمتك كل شيء عن نفسي ، فهل تراني رجل سوء ؟ ».

قلت وأنا أحسبه جواباً بارعاً لبقاً .

« إن معرفتي بك قليلة » .

« إني لأتساءل عما إذا كان القاضي أو المحلفون أو الجمهور قد نظروا إلى المسألة من وجهة نظري أنا . لقد صاح بي الناس منكرين عندما أخذت إلى المحكمة ، حتى اضطر رجال الشرطة لحمايتي من عنفهم . هلا فكروا فيما صنعت لأولئك النسوة ؟ » .

« لقد أخذت منهن أموالهن » .

« أخذتها طبعاً ، لأنه من حقي أن أعيش كغيري من الناس . ولكن ، ماذا أعطيتهن مقابل ماأخذت من مالهن » .

كان ذلك سؤالاً خطابياً آخر ، ومع أنه نظر إلي كما لو كان ينتظر جواباً فاني لزمت الصمت إذ لم أكن أعلم بماذا أجيب . وكان صوته قد ارتفع وهو يقوى في قوة بدا لي معها أنه جاد فيما يقول ، « إني سأخبرك عما أعطيتهن مقابل مالهن . لقد أعطيتهن الحب والغرام . انظر إلى هذا المكان » وأشار بيده اشارة شملت البحر والأفق ، « إن الكثيرة فيها مئة مكان كهذا ، انظر إلى ذلك البحر

وتلك السماء . انظر إلى تلك الأنزال ، انظر إلى هذا المرسى وذلك الشاطئ . ألا يكفي ذلك كله حتى تنقبض له نفسك انقباضاً . انه هامد ميت كلحم الضأن . إنك قد لاتحس ذلك لأنك لاتمضي هنا سوى أسبوعاً أو أسبوعين وأنت متوعك، ولكن مابالك بأولئك النسوة اللواتي ينزلن هنا من أول العام إلى آخره بلا شعاع من أمل يضيء حياتهن ، لايعرفن أحداً ولايعرفهن أحد ، وكل مالديهن هو هذا المال الذي جمعنه ليكفيهن في معاشهن ، وهذا كل ماهنالك . إني لأتساءل عما إذا كنت تعرف قسوة حياتهن . فما حياتهن إلا كهذا الشاطئ تماماً ، ممشى طويل مستقيم مرصوف ممتد من منتجع إلى آخر بلا نهاية . بل انهن لاأمل لهن حتى في المواسم ، وهن لسن منها في شيء ، أموات في الحياة أو كدن . ثم كنت أقبل عليهن . ولاتنس أني كنت لاأخطب ود امرأة منهن لم تكن تقر راضية بتجاوزها الخامسة والثلاثين ، فكنت أعطيهن الحب . وأكثرهن لم يكن يعرفن كيف يزرُّ لهن رجل ثوبهن من الخلف ، وكثيرات منهن لم يكن يعرفن كيف يجالسن رجلاً في دكة الظلام ويده حول خصرهن . فكنت أقبل عليهن فأجدد لهن حياتهن وأملؤهن أملا وحماساً ، وكنت أعطيهن ثقة بأنفسهن لم يكن لهن بها عهد . كن ملقيات على قارعة الطريق مهملات حتى كنت أرفعهن وأدنيهن من نور الشمس فأضيء لهن حياتهن الكئيبة . ذاك ماكنت أعطيهن ، لذلك كن يولعن بي ويعشقنني . ولاعجب أن يردن عودتي . كانت القلاّسة هي الوحيدة التي أسلمتني من بينهن . لقد قالت إنها أرملة ، ولكني أظن أنها لم تتزوج قط . انك تقول اني خدعتهن . . كلا ، بل اني أسعدتهن وأدخلت البهجة في حياة احدى عشرة امرأة ممن يئسن من حياتهن ، وفقدن كل أمل فيها ، فلم يكن يرقبن الا تصيبا كتصيب الكلب منها . انك تقول اني عيار نذل ، ولكنك مخطئ

يا سيدي ، فاني بار محسن . لقد حكموا علي بالسجن خمس سنوات ، وكان حقهم أن يمنحوني وسام الجمعية الملكية للاحسان » .

ثم أخرج من جيبه علبة لفافاته ونظر إليها حزيناً واجماً وهو يهز رأسه . فناولته علبة لفافاتي ، فأخذ لفافة منها ولم ينبس . وأخذت أرقب مشهد رجل كريم يغالب مشاعره . بيد أنه تابع حديثه بعد قليل ،

« قل لي بالله ماذا تراني جنيت من هذا كله ؟ طعاما ومأوى وشيئاً قليلاً يسد حاجتي من لفافات التبغ . ثم اني لم أوفر درهماً واحداً ، ودونك الدليل على ذلك فلقد جاورت الآن عهد الشباب وليس معي عقد ولا نقد » .

ثم نظر إلي شزراً وقال « انها لضعة أن أجد نفسي في هذا الموقف ، فلقد كنت دوماً أنفق عن سعة ، وما سألت صديقا قط شيئاً واني لأتساءل يا سيدي عما إذا كان يسعك أن تتفضل علي بمبلغ تافه.انه لعار علي أن أسأل ذلك ، ولكنك إذا تكرمت علي بليرة واحدة فانه يكون فضلاً علي كبيراً » .

وقد خيل إلي أني نلت من المتعة من حديث هذا الرجل المزواج ما يساوي الليرة ، فأخرجت محفظة نقودي وقلت « يسرني ذلك » .

ورأيته يلقي نظرة على الليرات ويقول « لا أحسب أنك تستطيع أن تجعلهما ليرتين يا سيدي ؟ » .

قلت « بل أظن » أني أستطيع » .

وأعطيته ليرتين ، تنهد عندما أخذهما وقال ،

« انك لا تعلم كم يعني ذلك لرجل اعتاد حياة البيت الوادعة ، أن لا يعرف أين يقضي ليلته » .

قلت « ولكن هناك أمراً و احداً أحب لو تخبرني به ، واياك أن تحسب أني ممن يهزأ بالمثل والفضائل ، ولكنه كان يخيل إلي أن النساء في عمومهن يحسبن المثل القائل أن الخير في العطاء لا في الأخذ ، لا ينطبق إلا علينا معاشر الرجل ، فكيف استطعت أن تقنع أولئك النسوة الوقورات ، والمقتصدات بلاريب ، أن يعهدن إليك بكل ما أدخرنه وهن آمنات ؟ » .

ولاحت على محياه غير النبيل ابتسامة لعوب .

« نعم يا سيدي ، ولكنك تعلم ما قال شكسبير عن الطموح إذا جاوز حده . فان هذا هو تفسير سؤالك ، إذ حسبك أن تعلم امرأة منهن أنك قادر على أن تضاعف لها رأس مالها في ستة أشهر إذا عهدت به إليك ، حتى لا يسعها أن تصبر لحظة عن اعطائك المال . أنه الطمع لا سواه ، الطمع فحسب » .

. . . .

كان احساسي عندما تحولت عن ذلك الفاتك المُسْكتي إلى وقار البنطال الأرجواني وأطواق الحراطات عند آل سنت كلير ، أحساساً حاداً مثيراً للشهية ، أشبه ما يكون بطعم المرق الحار إذا أضيف إليه ثلج بارد . وكنت قد ألفت أن

أسهر معهم كل مساء فما تكاد السيدتان تتركان السيد سنت كلير ، حتى كان يبعث لي بتحيته ويدعوني إلى شرب قدح من الخمر البرتغالي معه . وكنا إذا فرغنا من الشراب ذهبنا إلى المنتدى وشربنا القهوة . وكان السيد سنت كلير يستمتع بقدحه من البراندي المعتقة ، فكانت تلك الساعة التي أقضيها معهم مملة بحيث كان لها في نفسي سحر خاص . وكانت ربة النزل قد أعلمتهم أني قد كتبت بعض مسرحيات .

قال السيد سنت كلير « لقد كنا نذهب إلى المسرح كثيراً عندما كان السير هنري أرفنغ لا يزال في الليسيوم ولقد استمتعت بمقابلته ذات مرة عندما دعيت إلى العشاء في ددي كارك ، دعاني السيد افرارد مليز ، فقدمني إلى السيد أرفنغ كما كان عندئذ » .

قالت السيدة سنت كلير « دون ، حدثه عما قال لك » .

وهنا اتخذ السيد سنت كلير وضعية مسرحية ، ثم حاول أن يحاكي هنري أرفنغ محاكاة لا بأس بها .

« لقد قال لي ، ان لك وجه ممثل يا سيد سنت كلير . وإذا خطر لك يوماً أن تمثل فاقصدني ، وأنا أختار لك دوراً تمثله » ، ثم عاد السيد سنت كلير إلى طريقته المعتادة في الحديث ، مضيفاً « لقد كان ذلك كفيلاً بأن يطيش له عقل أي فتى » .

« ولكنه لم يطش له عقلك » .

« لا أكتمك أني لو لم أجد نفسي في المقام الذي كنت فيه ، فلعلي كنت أسمح لنفسي أن يثيرها الاغراء . ولكني فكرت في أمر أسرتي وعلمت أنني ان لم أتعهد عملا ، لقد كان ذلك خليقاً أن يَتَنَهّدَ له أبي خيبة وأسى » .

قلت « فأي عمل ذاك » .

قال « انني تاجر شاي يا سيدي ، وشركتي أقدم شركه في مدينة لندن . لقد قضيت أربعين عاماً من عمري أحاول فيها جهد طاقتي أن أغلب رغبة نزلائي في الوطن فيشربوا شاي سيلان بدلاً من الشاي الصيني الذي كان شائعاً أيام شبابي » .

وخيل إلي ان ذاك كان فيه سليقة مميزة . وأن يقضي عمره ليحاول أن يقنع الناس بشراء شيء لم يكونوا يريدونه بدلاً من شيء يريدونه .

قالت السيدة سنت كلير « ولكن زوجي قد قام بتمثيل عدد من الأدوار هواية في أيام شبابه الأول ، وكانت تُظَنّ فيه موهبة ومهارة » .

« كنت أمثل مسرحيات شكسبير ، وقد مثلت أحياناً (مدرسة الفضيحة) ، ولم أكن أقبل أبداً أن أمثل في مسرحيات تافهة . إلا أن هذا كله عهد قد مضى وانقضى . لقد كانت لدي الموهبة ، ولعله من الأسف أنني أضعتها عبثاً ، ولكن فات أوان ذلك الآن . ون كنت أحياناً أقبل أن تحملني لسيدات في حفلات العشاء على انشاد نجوى هاملت ، وهذا كل ما أقوم به الآن » .

آه ثم آه . وتخيلت في افتتان راعش حفلات الشاي تلك . وتساءلت في نفسي

عما إذا كنت سأدعي إلى أحداها قط . أما السيدة سنت كلير فقد ابتسمت في شيء من الخشية والاشفاق وهي تقول « لقد كان زوجي مُسْتَهْتَراً بالفن في شبابه » .

« لقد كنت ماجنا آنئذ . وكنت أعرف عدداً من الرسامين والكتاب ، فكمت أعرف ولكي كولر مثلاً ، بل عرفت بعض من كانوا يكتبون للصحف . ورسم واطس صورة لزوجي ، وابتعت صورة لميليز ، وكنت أعرف عدداً من الرسامين السابقين لرافائيل » .

وسألته « ألديك شيء من رسوم روزتي ؟ » .

قال « لا لقد كنت أعجب بموهبته ، ولكني كنت أنكر سلوكه في حياته الخصة . ولم أكن لأبتاع صورة لفنان لم أكن أرضى أن أدعوه إلى العشاء في بيتي » .

كان رأسي في دوار عندما قالت الآنسة بورتشستر وهي تنظر إلى ساعة يدها « ألن تقرأ لنا الليلة يا عماه ؟ » .

وودعتهم وانصرفت .

وذات مساء ، وكنت أشرب مع السيد سنت كلير كأساً من الخمر البرتغالي عندما حدثني عن قصة الآنسة بورتشستر الحزينة . فقد كانت مخطوبة لابن أخ للسيدة سنت كلير ، وكان محامياً ، عندما افتضحت علاقته مع ابنة غسالة .

قال السيد سنت كلير « لقد كان ذلك مريعاً مروعاً ، ولكن ابنة أخت زوجتي فعلت ما ينبغي لمثلها ، فأعادت له فتّحة الخطبة مع رسائله وصورته ، وأعلمته أنها لن تستطيع الزواج به بعد ذلك ، ثم رجته أن يتزوج من تلك الفتاة التي ظلمها، وأنها ستكون لها أختاً . ولكن ذلك هدّها حزناً . ولم تأبه لشخص آخر بعد ذلك » .

« وهل تزوج هو من تلك الفتاة ؟ » .

ولكن السيد سنت كير هز رأسه وتنهد وهو يقول ،

« لا . لقد خدعنا به كثيراً . لقد كان يحزن زوجتي ويقض مضجعها أن تعلم أن ابن أخ لها قد سلك ذلك السلوك الشائن . وقد علمنا بعد ذلك أنه خطب فتاة شابة ذات مقام مرموق ، وتملك عشرة آلاف ليرة . وقد حسبت أنه من واجبي أن أكتب لوالدها فألفت نظره إلى القضية ، ولكنه أجابني على رسالتي جواباً وقحاً ، فقال انه يفضل أن يكون لصهره خدْن قبل زواجه من أن يتخذ له خدنا بعده » .

« فماذا حدث بعد ؟ » .

« لقد تزوجا ، وأصبح ابن أخ زوجتي اليوم قاضياً من قضاة المملكة في المحكمة العليا ، وأصبحت زوجة سيدة (١) . ولكنا لم نقبل مع ذلك أن نستقبلها في بيتنا وقد اقترحت إلنوه أن ندعوهما عندما منح ابن أخ زوجتي رتبة الفروسية ، ولكن زوجتي أصرت أنهما لا ينبغي أن يطآ عتبة دارنا . وقد أيدتها في ذلك » .

---

(١) Mglady زوجة الفارس Sir

« فماذا فعلت ابنة الغسالة ؟ » .

« لقد تزوجت من رجل من طبقتها ، ولها الآن حانوت خمر في كانتربرى. وقد أعانتها ابنة أخت زوجتي من مالها الخاص ، حتى انها عرّابة بكرها » .

يا لبؤس الآنسة بورتشستر . لقد ضحت بنفسها على مذبح المثل الفكتورية . ثم لم تجن من ذلك إلا شعورها بنبل مسلكها ذاك .

قلت « ان الآنسة بورتشستر ذات طلعة تلفت النظر ولعلها كانت بارعة الحسن في صباها ، فمن المدهش إذ ذاك أنها لم تتزوج من بعد » .

« كانت الآنسة بورتشستر تحسب . من الجميلات . ولقد أعجب بها ألما تادما حتى انه سألها أن تجلس له ليرسم صورة على مثالها . ولكننا لم نكن لنقبل ذلك بطبيعة الحال » . قال السيد سنت كلير ذلك بصوت أوحى معه أنه أنكر ذلك الاقتراح ووجد فيه مهانة وعاراً . « لا . لم تحب الآنسة بورتشستر أحداً بعد ابن خالها ، ومع انها لا تذكره أبداً ، فأنا واثق من أنها لا تزال تحبه ، اليوم وقد مضى على فراقهما ثلاثون عاماً . انها امرأة مخلصة يا سيدي العزيز ، حياة واحدة وحب واحد . ومع اني آسف لها أحياناً أن حرمت متع الزواج ومباهج الأمومة ، فاني لا أملك إلا أن أعجب بإخلاصها » .

• • •

ولكن قلب المرأة قُلّب ، وقد اعتر من حسب أنها تصير في مقام واحد ، وتعجل في حكمة ذاك إذا حكم . نعم يا عم ادون . لقد عرفت إلنوه سنوات

عديدة ، فبعد أن ساءت صحة أمها وتوفيت ، فانك جئت بالطفلة اليتيمة إلى بيتك المريح ن المترف في ساحة لستة . كانت طفلة آنذاك . ولكن إذا جدّ الجد فهل تعرف كثيراً عن النوه يا عم ادون ؟

إذ لم يكد ينقضي يومان عى هذا الحديث الدي أسر لي فيه السيد ست كلير قصة الآنسة بورتشستر المؤسية وسر بقائها عانساً ، وكنت قد عدت إلى الفندق عصراً بعد جولة كلف ، اذ أتتني ربة النزل مهتاجة وهي تقول ،

« ان السيد ست كلير يبعث لك بتحيته ، ويسأل أن تتفضل بالصعود إلى الغرفة رقم ٢٧ فور قدومك » .

« فوراً . ولكن فيم ذاك ؟ » .

« انه خطب منكر ، ولكنهم سيعلمونك » .

وطرقت الباب ، فاجابني صوت يقول « ادخل . . ادخل » مما جعلني أذكر أن السيد سنت كلير قد مثل بعض الأدوار في مسرحيات شكسبير مع خير شركات تمثيل الهواة في لندن . ودخلت فوجدت السيد سنت كلير مستلقية على أريكة وقد وضعت منديلاً مبللاً بماء معطر على جبينها ، وبيدها زجاجة نشوق . وكان السيد سنت كلير واقفاً أمام المصطلى في وضع يمتنع معه لأي شخص آخر أن ينتفع بالدفء ؛

« ينبغي أن أعتذر إليك عن دعوتك إلى الصعود ها هنا بهذه الطريقة غير

اللبقة ، ولكنه قد ألمت بنا هذه النازلة ، وقد حسبنا أنه قد يكون بوسعك أن تساعدنا في تفسير ما حدث » .

كان اضطرابه ظاهراً .

« ولكن ، ما الذي حدث ؟ » .

« لقد هربت ابنة أختنا الآنسة بورتشستر . فلقد أرسلت هذا الصباح رقعة إلى زوجتي تعلمها أنها تشعر بصداع في رأسها . وكان من مألوف عادتها عندما تشعر بصداعها أن تترك بمفردها . لذلك فان زوجتي لم تذهب إليها إلا بعد العصر ، لتفعل ما بوسعها أن تفعل . ولكنها وجدت غرفتها خالية . وكان صندوقها قد حزم ، وحقيبة ثيابها ذات الركب الفضية قد اختفت وعلى المخدة رسالة تخبرنا فيها عن سلوكها الطائش » .

قلت « يؤسفني ذلك . ولكني لا أعلم ماذا يسعني أن أفعل »

« لقد حسبنا لأول وهلة أنك الرجل الكريم الوحيد في السم الذي كانت على معرفة به » .

وومض في ذهني مراده . قلت « ولكني لم أهرب معها . فأنا متزوج » .

قال « أعلم الآن أنك لم تهرب معها . . لقد خيل إلينا . . ولكن إذا لم تكن أنت فمن يكون ؟ » .

قلت « أنىَّ لي أن أعلم ذلك ؟ » .

عندئذ قالت السيدة سنت كلير من مكانها على الأريكة « أره الرسالة يا ادون » .

« لا تتحركي يا كرترود ، فقد يحرك ذلك وجع الزُّلحة عليك » .

كان للآنسة بورتشستر صداعها ، وللسيدة سنت كلير زُلحتها ، فماذا عن السيد سنت كلير ؟ لقد كنت على ستعداد لأن أراهن على خمس ليرات أنه كان له نقرسة . أعطاني السيد سنت كلير الرسالة فاخذت أقرؤها قراءة مؤاساة لائقة.

عمي ادون وخالتي كَرترود العزيزين

عندما تصكما رسالتي هذه فسوف أكون بعيدة جداً . إذ أني سأتزوج هذا الصباح من رجل كريم عزيز علي . وأنا أعلم أني أرتكب خطأ بفرري هكذا ، ولكني خشيت أن تحاولا وضع العراقيل في طريق زواجي . وما من شيء يحملني على تغيير رأيي فيه . لذلك فقد حسبت أنه خير لنا جميعاً أن أفعل ما فعلت دون علمكما . ان خطيبي رجل خجول جداً ، وليست صحته على خير ما يرام بفضل اقامته الطويلة في بلاد استوائية . لذلك فقد ظن أنه من الخير لنا أن نتزوج دون حفل أو اعلان . ولعلكما إذا علمتما مبلغ سعادتي أن تسامحاني . وأرجو أن ترسلا صندوقي إلى مكتب الودائع في محطة فكتورية .

ابنتكما المحبة : النوه

وقال السيد سنت كلير وأنا أعيد إليه الرسالة « لن أسامحها أبداً ، وسوف لن تطأ عتبة بيتي أبداً . اني أمنعك يا كَرترود أن تذكري اسمها على مسمعي » .

وبدأت السيدة سنت كلير تنتحب بصوت خافت .

قلت « ألست تقسو عليها قليلاً ، فهل هناك من سبب يدعو الآنسة بورتشستر ألا تتزوج ؟ » .

ولكنه أجاب غاضباً « في مثل عمرها ؟ ! انها سخافة . اننا سنكون هزء الجميع في ساحة لنسته . هل تدري كم عمرها ؟ انها واحد وخمسون عاماً » .

ولكن السيدة سنت كلير قالت وهي تنتحب « بل أربعة وخمسون » .

« لقد كانت قرة عيني دهراً طويلاً . لقد كانت لنا ابنة . وقد مضت عليها أعوام عديدة وهي عانس . اني أظنه عاراً عليها أن تفكر بعد ذلك بالزواج » .

واستعطفت السيدة سنت كلير قائلة « ولكنها كانت دائماً صبية بالنسبة لنا يا ادون » .

« ثم من هو ذاك الرجل الذي تزوجته ؟ انه الخداع الذي يغيظ . لابد أنها كانت تخادنه على مرأى منا ومسمع . وهي لا تذكر حتى اسمه . اني أخشى شر ما نتوقع » .

وفجأة ومضت في ذهني اشراقة إلهام . فلقد ذهبت في ذلك الصباح بعد الافطار لأبتاع لمصي لفافات ، فصادفت مورتمر الس عند بائع الدخان . ولم أكن قد رأيته منذ أيام .

قلت « أناك تبدو أنيقاً اليوم » .

فقد كان حذاؤه قد حصف ومسح ، وقبعته قد نظفت ، وكانت قبته نظيفة

وقفازاه جديدين . وفكرت إذ ذاك في أنه استفاد من ليرتّيّ فأحسن الاستفادة .

قال « علي أن أذهب إلى لندن هذا الصباح في شأن ي » .

فأومأت برأسي ثم غادرت المحل .

وذكرت أني عندما كنت أمشي في ظاهر البلد منذ أسبوعين ، فقد قابلت الآنسة بورتشستر ، وخلفها على بعد أذرع منه ، مورتمر الس . أمن الممكن أنهما كانا يمشيان معاً ، ثم افترقا عندما أبصراني قادماً نحوهما ؟ ورب الكعبة لقد بان كل شيء .

قلت « أظن أنك ذكرت أن الآنسة بورتشستر لها مال خاص » .

قال « نعم ، مبلغ زهيد ، فهي تملك ثلاثة آلاف ليرة » .

فزادني جوابه يقيناً . فنظرت إليهما مشدوهاً . وفجأة هبت السيدة ستت كلير من مقعدها وصاحت « ادون ، ادون . . ماذا لو لم يتزوجها ؟ »

فوضع السيد ست كلير عندئذ يده على رأسه ، ثم رمى بنفسه في اعياء تام على كرسي ، وأنّ وهو يقول « فإن العار يقتلني عندئذ » .

قلت لاتخشيا شيئاً ، أنه سيتزوجها دون شك ، فهو يفعل ذلك دائماً . سوف يتزوجها في كنيسة » .

ولكنهما لم يأبها لما قلت . ولعلهما حسبا أني جننت . ولكني كنت إذ ذاك واثقاً . فلقد حقق مورتمرالسن مطمحه أخيراً ،وأتم بالآنسةبورتشستر الاثنتي العشرة واستوفاها .

كاتبان من بلغاريا في دمشق

في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٨ حل وفد من اتحاد الكتاب البلغار ضيفاً على اتحاد الكتاب العرب في الجمهورية العربية السورية وقد ضم الكاتبين كوستادين كيوليوموف وميتكوبافورسكي .

ولد كوستادين كيوليوموف عام ١٩٢٥ في قرية غابتا نيوفو من منطقة غابروفو . وهو ممن ساهموا في حرب الانتصار ضد الفاشية . درس علوم اللغات السلافية . من مؤلفاته سيناريو فيلم « السن الذهبي » عم ١٩٥٨ وفيلم « الطيران الخطر » ١٩٦٥ وفيسم « لتلميذ » ١٩٦٦ وفيلم « الشمس فوق بيرين » ١٩٧٣ وسيناريو الفلم التلفزيوني متعدد الحلقات « بنطافات الشيطان » ١٩٦٦ وفيلم « في كل كيلو متر » ١٩٧٦ . ومن مسرحياته : « ضيف المساء » ١٩٦٦ والفرصة الأخيرة ١٩٦٨ وقد عرضتا على العديد من المسارح في بلغاريا . نشر العديد من القصص والأقاصيص في مختلف الصحف والمجلات . وقد صدرت له الروايات التالية : « الفتى والخائن » ١٩٦٥ و « الفتى والجبل » ١٩٧٤ و « لغروب » ١٩٧٥ و « ليالي الأرق » ١٩٧٦ و « الصعود ١٩٧٨ وله كتاب يضم قصصاً وحكايات هو « صخور الربيع » ١٩٧٧ وغيرها .

نال جائزة ديمتروف عام ١٩٧١ اضافة إلى جوائز أدبية عديدة من اتحاد الكتاب البلغار ومن الصحف والمجلات .

أما ميتكو يافورسكي واسمه الحقيقي غاتيو بيلكوف غاتيف فمن مواليد ١٩٢٥ . . وقد ولد في قرية يافورسكي من منطقة عابروفو . أتم دراسته الثانوية في قريته ثم أكمل دراسته الجامعية في صوفيا . شارك في حرب الانتصار ضد الفاشية وقد نال عدة جوائز أدبية . له أكثر من ١٥ كتاباً مابين رواية وقصة وحكاية . تمتزج في أسلوبه الحكاية بالأسطورة بالشعر بالواقع في جو ملحمي يفوح منه عبير الأرض وتثيره أحلام الانسان .

وقد زار وفد الكتاب البلغار عدداً من محافظات القطر وأجرى لقاءات أدبية مع الكتاب والصحفيين . وكان آخر لقاء له مع كتاب قطرنا في مقر الاتحاد بدمشق عشية مغدرة الوفد إلى صوفيا وقد حضره عدد كبير من الكتاب والشعراء والصحفيين ودارت خلاله أحاديث مفيدة . وقد أعرب الوفد عن اعجابه بقطرنا وعن شكره لما لاقاه من مودة وإكرام .

والآداب الأجنبية تقدم لقرائها قصة من قصص كيوليوموف القصيرة وحكاية من حكايات يافورسكي ليسهم ابداعهما بالتعريف بهما .

زيارة

للكاتب البلغاري كوستادين كيوليموف

ترجمة ميخائيل عيد

نزلت من سيارة الباص ومشت وحيدة . ثمة أناس حولها ، ولكنها لم تلتفت. هي لاتعرف أحداً ، ولم تأتِ لرؤية أقرباء أو أهل في هذه القرية النائية المنزوية بين الجبال . كانت تسير ناظرة إلى الأرض . أرض كما هي الأرض في كل مكان ! ولكن ثمة هنا الكثير من الحجارة ! ماالفائدة من وجودها ؟ هي تعرف أن الحجر يستقبل الإنسان ببرود وصمت . أليست البرودة دفء الحجر ، والصمت صوته ؟ وحيث ثمة ممر في الغابة غير المطروقة تنتصب شاهدة قبر أو مقبرة دون أسماء لشجعان وقادة . كل شاهدة تتكلم ، وحسب الانسان أن يفهم لغتها . وهي قد خبرت العذاب والنار ، النار تشتعل ، واشتعالها يعني أنها تحرق فما يبقى سوى الرماد فوق ذلك الذي كان دنيا ، الذي كان أملاً أو فرحاً ونشوة . . ولكنها تعرف أيضاً أن الزمن يسلي ويداوي الجراح ويمسح آلامها. ولكنها تحس فجأة أن الزمن لم يمسس حزنها ولاعذابها . انهما لايزالان كما كانا في تلك اللحظة ، حين أتوا وجلين متألمين ليبلغوها ماحل بابنها .

إنها أم ويجب أن تقدر على كل شيء ، يجب أن تكون لديها القوى لاحتمال العذاب والفرح ، ويجب أن يكون لها قلب لا يتفتت وعينان تبصران خلل الآلام والقنوط . . وهاهي تسير عبر القرية ، حيث سبق لها أن أتت لسماع أداء ابنها القسم العسكري . ومنذ ذلك الحين عرفت هذه القرية الحدودية ذات البيوت

القرميدية الجديدة التي حجبت القديمة ، ومدرستها البيضاء الجديدة التي تذكرها كثيراً بالمدرسة القرية من مرلها في قريتهم . . سيارة الباص التي أوصلتها إلى هنا تهدر هديراً ملوياً عند المعطفات على الصدر الصخري للجبل ، فتستيقظ الأودية ويترجع الصدى من ربوة إلى ربوة وينتثر من تنهيدات الصخور الصخمة ضباب أبيض شفاف . ستنهض الشمس ، إنها الآن جاثية على حوافي الذرى تشد خيوط كاسيتي ساقيها ، فالنهار طويل ويجب أن تسير حتى الغروب . القرية مستيقظة ، ولكن الوقت مازال باكراً ، والناس لم يخرجوا بعد ، وهذا أفضل لأن أفراح الناس ينبغي أن تحيا دون أن يمسها الألم وأن يلقي العذاب عليها ظلاً .

كانت الأم تسير متمهلة ، وقد وصلت الجسر الأول الذي فوق النهر حيث تذكرت أنه كان يجب أن يقف هنا فتى ببزة حارس حدود مثل ابنها ليتأكد من هويات العابرين . ولكن ما من أحد . أيكون قد خيل لها ؟ ومرت غير ملحوظة ، وأحس قلبهاوقع خطى وضجيجاً ، وطبوقاً ، وحديثاً تشارك فيه مئات الأصوات . . فكأنما قد احتشد الناس . إنه يوم واحد فهل ستقام أعراس ؟ ليكن مايكون ! انها أم تذهب لزيارة ابنها . هو جندي يحرس الحدود ، وستضع كفها على جبينه ، وستبتسم وتطمئن باله . إنها تحمل الشيء الذي يحبه ابنها أكثر مايحب ، مذ كان طفلاً .

كان يمد يديه أمام الفرن في الحوش ويقول :

– أعطني من خبز العيد ياأماه !

إن ابنها الذي ماعاد يمر إلا في ذكرياتها وذكريات بعض الذين عرفوه لن

يمد يديه بعد الآن . ماعاد موجوداً ولن يعود . لقد بدا لها ذلك بليداً ومهيناً — فتى في العشرين من عمره ، لم يكمل ألعابه ، ولم يمشي دربه ، ولم يبح بحبه ، يسقط صريعاً فيجره كلب الحراسة الوفي الذي يرافقه على الأرض إلى الموقع حيث جماعته . لا ، هي لاتلومه لأنه فضل المواجهة المصيرية على الالتواء والاختباء . لقد قابل قاتليه وجهاً لوجه . . ولكن قلبها يتساءل : صارخاً . « ولكن لماذا تحتم أن تصيب الرصاصة قلبه الذي لم يعشق بعد ؟ » . . . في ضباب الأيام التي التي لم تحصها ، وفي ظلام الليالي التي لاتحس تحولها إلى نهار ، كانت تتمثل على مهل ماحصل هنا في هذه الأماكن — على بعد خطوة من القرية ومن خط العالم الآخر .

وتسير الأم ، تغوص قدماها في عشب المروج المزهرة . يداها تمتدان تلقائياً إلى الزهور ، ويستعاد في ذاكرتها الطريق الاسفلتي المعروف والدرب الذي يتفرع عنه يساراً . هناك الموقع ، وعلى الجهة اليمنى درب آخر ، وعلى النهر يتقنطر فوق الهاوية الجسر الروماني المحدب الذي يقوم هناك منذ قرون ، لتمر عليه الأزمنة مقرقعة . وتحس فجأة ، فيضان شوقها ، ثم يليه ألم يمزقها . فهو لن لن يظهر . . لن يعود فرحيل إليها ولن يعانقها . لقد ركض ابنها في مكان ما هنا ، ركض تحت مطر الرصاص ، ليوقف بصدره أولئك القادمين في العالم الآخر .

« لقد أوقف الموت عنده ولم يسمح له باجتياز الحد باتجاه جماعته » ذلك ماقالوه لها حينذاك وهي ستتذكر هذه الكلمات إلى الأبد ، ولقد تذكرت أغنية منسية حول فرجيل القائد — الذي وقف على ذروة البيتوش وكان يمسك الرصاصات حفنات ويرمي بها الباش بزق .

وتسير الأم صعداً ، فهناك الجسر الروماني الذي سقط ابنها قربه . ويعلو وقع خطوات ، ويحس قلبها حضوراً حولها . . الابن يعود للقائها :

ــ هل أتيت يا أماه ؟ لقد انتظرتك طويلاً !

تتوقف الأم وتتلفت . الانحدار غير شديد . الطريق تمضي صعداً ، على الجسر المحدب . لقد عبره أناس ولم يترك أحد منهم علامة .

ــ لاتجذعن أيتها الأمهات . فمن الواجب أن يقف أحد ما على هذا الجسر اليتيم ليترك أثراً ! . . .

ولقد وقف ابنها وتلقى حفنة من الرصاصات كي لاتصل إلى الآخرين من جميع الأجيال .

ذاك هو قدر الأكثر شجاعة . يستكين غيظ البحر تجاههم وتتلوى قربهم الزوابع وتذعن وتهدأ العواصف الثلجية ، وتتحول العواصف المرعدة إلى مياه ربيعية . وتخطو الأم بضع خطوات ، يلتمع أمام ناظريها مرمر أبيض عليه نجمة خماسية واسم محفور إلى الأبد في الحجر الصلب . ذاك هو اسم ابنها . .

يقف الاسم الآن بدلاً منه وسيبقى هناك بعدها حزنها . أجل . كل واحد يحفر اسمه ، أما على الجسر الذي فوق الأزمنة فلا يحفره إلا أولئك الذين ولدوا لمصير فريد ، الذين يحملون على كواهلهم آمال الناس فوق المياه العكرة ، فوق الجروف والمهاوي التي عمقها الزمن .

دوت في الأجواء ضربة مرعدة ، تليها أخرى رجعها الصدى من الأودية

المواجهة . خشعت أم حارس لحدود وارتمت أمام انصب التذكاري المقام من الحجر الأبيض . وضعت الزهر عند قاعدته ، ثم احتضنته . وبغرابة تشبه الحلم حاولت أن تمسك سهام البروق بكلتا يديها . . ألبست هي رصاصات الذين يأتون ليقتلوا ؟ والابن وحيد ، وكلب الحراسة يستلقي وقد صرعه الرصاص .أولئك يسكبون الرصاص وأما هو فصامت لحظة واحدةويقع بين أيديهم .

- لماذا لم تهرب يابني ؟ — سألته الأم وجلى ، وكأنه قد سمع عبر هشاشة السهم صوتها . فتمتم ثم وثب ، ولكنه لم يهرب بل اندفع عبر الجسر في مواجهة الرصاصات .

وبعد ذلك وخزت حراب الجنود الأرض فانفتحت واحتضنت الجندي ثم نما النصب التذكاري فوقه .

— بني يابني العزيز ، نم ! عبر العصور سوف تقاس الأزمان بك ، وستبقى قطع المرمر شارة لقوة عصرنا وبطولته . . .

أغمضت الأم عينيها وأصاخت السمع . . إنه صوت الغابة . وحين باعدت مابين أهدابها رأت قادمين من القرية ، ومن الموقع ليتقاسموا معها عذابها ويواسونها .

وفاض الأفق بصوت فتاة رعش تغني مرافقة شبابة :

شجرة وحيدة في الغابة — ياحبيبي

لاتتبرعم ولاتزهر — ياحبيبي

تحت الشجرة يستلقي فرجيل – ياحبيبي

فرجيل يستلقي وجرحه بليغ – ياحبيبي

لقد جرحـــه الأعداء – ياحبيبي

من أين أتى هذا الصقر – ياحبيبي

ليظللـــه بجناحيـــه – ياحبيبي

ويحمل له الماء بمنقاره – ياحبيبي

انسالت الأغنية عذبة انثوية . . حملها الصدى المستيقظ من واد إلى واد ومن ربوة إلى ربوة ورجعها أكثر سحراً وأوفر كلاماً وأعادها للأم وللكثيرين من القادمين لتقديم الاحترام لحارس الحدود :



الأعجوبة

للكاتب البلغاري ميتكو بافورسكي

ترجمة ميخائيل عيد

يهبط كل ربيع من الجبال شيخ أبيض الشعر كالقمم التي يعيش تحتها .

تغرد الطيور ويغني الناس في الأودية ويبدو وكأنه لايسمعهم .

– مهما ازدادت معرفتنا بالعالم تبقى هناك عجائب نعجب بها وننحني دهشة أمامها . والعالم غير مكونٍ من المرئيات فحسب ، ولهذا ستبقى عجائب كثيرة حتى لو اكتشفوا كل يوم أعجوبة .

إذا لم تكن الأعجوبة بلاداً بأكملها فقد تكون زاوية منها . . . كأن تكون الزاوية مغارة تظهر يوماً أمام عيوننا المندهشة قصورها تحت الأرضية .

وإذا لم تكن الأعجوبة مغارة فقد تكون نبعاً ينبثق على غير انتظار من صخور صلبة . . . وإذا لم تكن نبعاً فقد تكون زهرة . . . وإذا لم تكن زهرة فقد تكون حسناءرائعة أو خطوة انسانية تسري في قلوبنا مثل شعاع ربيعي دافئ .

هكذا كان الشيخ يخاطب كل من يلقاه ثم يروح يحدثه حول شيء لم يره من قبل :

– في بلاد كبيرة غنية ثمة العديد من العجائب . يرتفع في وسطها من سهل مستوٍ جبل شاهق ، ثم يمتد مرج مستو محاط بصخور حادة وتلك أعجوبة دون

ريب . ولئن قال أحد أنها الأعجوبة الوحيدة فهو مخطئٌ . . ففي وسط الوادي المتفرع تدفع ستة ينابيع مثل نافورات ثلاثة منها باردة والأخرى ساخنة .

أحد الينابيع الحارة ملون بالأخضر وآخر بالأحمر . أما الباردة فأحدها أبيض كالثلوج على قمم الجبال والآخر أبيض أيضاً ولكنه معطر . فكأنه يحمل غبار طلع الأزهار التي تتفتح في المروج الفسيحة . . والينبيع الأخرى ترسل خريراً أشبه بتغريد جوقة من العصافير .

الينابيع الستة المتنوعة ألواناً وروائح تنطلق في اتجاهات متعددة مذ تقع مياهها على الأرض .

وهذا في حد ذاته أعجوبة ! فكم من الأماكن تستطيع أن تتباهى بجبل وبواد فيه ينابيع متنوعة الألوان وجداول ثرة ؟

ويبدو أن الأعجوبة تجر وراءها أعجوبة .

ففي الوهدة العليا ذات الينابيع الستة تنتصب قلعة من المرمر الأبيض . ولكنها غير محظوظة على ميبدو إذ يغطي جمال صاحبتها جمالها فالسحر والدفء المغري يفيضان من وجهها . ومن المحتمل أنه لم يوجد مثيل لجمالها . يراها المرء مرة واحدة فيشهد أنها فريدة في جمالها . تتمنى الطيور والزهور والناس لمسها ويرغبون في تسليتها . وما ان تطل من النافذة حتّى تقطع البلابل أغانيها وتغادر النحلات كؤوس الأزهار وتكف الأعشاب عن التهامس وحتّى الرياح تستكين .

ويسأل الناس الذين يستمعون إلى الشيخ :

ـ وأية أعجوبة تفوق هذا الجمال ؟

ويجيب :

ـ توجدأعاجيب أكبر ، توجد .

ويسألونه :

ـ ماهي ؟

ولايستعجل في الرد عليهم بل يدعهم يفكرون

يقول أحدهم :

ـ العينان

ويقول آخر :

ـ الطيبة

ويقاطعه ثالث وهو واثق من أنه حزر :

ـ القلب

ويقاطعهم الشيخ قائلاً :

ـ في قلبها سرموهبتها

ويفكر المستمعون ويجهدون أذهانهم دون أن يعرفوا موهبتها فيبقل العجوز حينئذ نظره بينهم ، واحداً فواحداً ، ويحكي لهم جميعاً :

– موهبتها تكمن في أنها إذا محت قلبها لأي كان فسوف يصير خالداً أبداً ويبقى شاباً أبداً .

ويتأوه السامعون :

– هذه أعجوبة الأعاجيب التي لاوجود لاعجوبة أكبر منها

ويقاطعهم العجوز قائلاً بهدوء :

– بل يوجد ، يوجد .

فالفريدة ، كما اقترح أن ندعوها ، كانت سعيدة وترى أن لاأحد يستطيع ازعاجها . ولكنها كانت مخطئة .

لقد تعبت موهتها من البقاء حبيسة على الرغم من أنها في أجمل مكان : في القلب . وإذا لم تهب الخلود لأحد فسوف تموت هي الأخرى ولهذا سألتها :

– لماذا تسجنين قلبك ؟

– ومن أنت حتى تسمحي لنفسك بازعاجي ؟

– أنا موهبتك .

– يجب أن تخضعي لي مادمت خاصتي . ثم اني أرجو ألا تعكري صفوتي !
وصممت الموهبة على مضض ولكن صمتها لم يطل . فما أن وقفت الفريدة أمام المرآة لتتسلى بجمالها حتى صاحت بها :

– أنا . . .

صاحت بها الفريدة مخاصمة :

– انصرفي

– انصرف ان أطعتني .

– كيف ؟

– أعطي قلبك لأحدهم وسأجعله يخلد ، سأمنحه الشباب الدائم .وقاطعتها الفريدة :

– لاأريد . أنا سعيدة وأمتع ذاتي بذاتي . لن أعطي قلبي لأحد

– إذا منحت الخلود لأحدهم فإن الناس سيسمونه إليك وسيحبون تلك الأغاني. نحن المواهب نعيش من أجل الآخرين .

قالت الفريدة شبه موافقة :

– هذا ممكن

ثم سألت عن الذي تختاره

– حسب مشيئتك . ليس مهماً أن يكون قبيحاً أو جميلاً . فلاحاً أو شاعراً . المهم ألا يكون من أولئك الذين لايفكرون إلا بأنفسهم . أنا أكره هؤلاء، ولن أمنح الخلود أبداً لأحدهم !

– لاأستطيع

– وصمتت الموهبة مكرهة .

ولكن ، هل كان بإمكانها أن تستكين طويلاً ؟ فالموهبة ، سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، ستسعى بكل الوسائل كي تظهر . . ولهذا أفعمت قلب الفريدة ولم تدعه ترتاح. صارت تستلقي لتنام فلا تغفو...وراحت تلاحقها رؤى يصعب التخلص منها وبدا لها فراشها الوثير صلباً. . .وكثيراً ما صارت تعاجأ بدموع في عينيها.

وصاحت بها الموهبة

– سأجعلك أكثر حزناً .

ولم تصمد الفريدة فأعلنت أنها ستبحث عمن تمنحه قلبها .
طاف الخبر أرجاء الأرض بمثل سرعة الضوء . . واتجه الناس من أقصى الأقاصي نحو القصر المرمري الأبيض وكلهم في طمأ إلى الخلود .

كان بينهم الأباطرة والأغنياء المشهورون والتجار ، والصناع ، والموسيقيون والحكماء والشعراء والمغنون والشحاذون والتعساء . أباطرة ترتعد الممالك خوفاً منهم راحوا يمشون مع الشحاذين والمجرمين ليظهروا أن لهم الحق في أن يظلوا شباناً قائلين : إذا لم يظلوا كذلك فسوف تعم الفوضى ولن يوجد من يفرض النظام ويقاطعهم الحكماء واثقين من أنهم جديرون بالخلود . فالحكمة هي الأكثر أهمية ولن تتم خطوة رشيدة من دونها ولن يشاد حجر فوق حجر بل سيعم الخراب في كل مكان .

ولكن أحداً لم يكن يصغي إليهم على الرغم من أنهم يقولون الحقيقة .

أعلن الشعراء أن الحياة ، حتى مع الخلود ، فتكون موحشة من دون شعر ، ستفقد أريجها وسيهمد الفرح في القلوب مثل طيور صرعى .

روح الانسان من دون الشعر أشبه بصحراء رملية تمر فوقها الغيوم ولاتسقط الأمطار أبداً . سيمر الناس تحت السماء دون أن يروها ، سيبذرون بذور الأزهار دون أن يفرحوا بالأريج . سيصغون إلى الأغنيات وتظل قلوبهم مغلقة دونها ، سيغتسلون بالضوء وسيظل الظلام في عيونهم . . قد يشبع الناس إذا فقد الشعر ولكنهم لن يتساموا .

ولم يصغ أحد إلى الشعراء . لقد قاطعهم المغنون قائلين : ستبدو الحياة مثل ليلة حالكة الظلام من دون الأغنية . . وسيسير الناس على درب دون نهاية . سيتعبون ولن يكون ثمة مايلهمهم . فالأغنيات للجميع وليست كغيرها مما يملكه صاحبه وحده .

الأغنية لاتحبس ولاتتجزأ . الأغنية تعلي الأكفاء ويرتعد لها كبار المستبدين . تسير دون دروب ، عابرة المدائن والقصور ، والمغنون جديرون بالخلود .

وهتف الحراث والزارعون :

– لنقل إن ذلك صحيح فهل ستوجد أغنية أو حكمة مالم نحرث الأرض ونزرعها ؟ من سيحكم الأباطرة ، ومن سيعلم الحكماء ، ولمن سيغني المغنون أغانيهم إذا لم نكن نحن ؟ يجب أن نبقى شباناً أبداً .

ونهض المرضى قليلاً من حمالاتهم ، فهم يريدون الخلود ليشفوا وينالوا

الفرح وكل ماحرموا منه . تلك هي العدالة المثلى . فهل يساوي شيئاً هذا العالم الذي فيه الخبز والأغاني والشعر والحكمة وليس فيه عدالة ؟ وهل يستحق الانسان الحياة من دون عدالة ! وهكذا يجب أن ينال الخلود أولئك الذين بحاجة إليه ، يجب أن يعطى الخلود للعدالة .

وهتف قطاع الطرق : لولانا لكان العالم ساكنا ، لولانا لاصبح كالمستنقع الراكد إننا نطالب بحقنا في الخلود .

وعلت الضوضاء والصخب . . وفكرت الفريدة : « وماذا سأنال إن أنا أعطيت موهبتي ؟ سأظل أتعذب . ثم قررت أن تعذب هؤلاء الناس فوقفت على السلم . وبعد أن خمدت كل ضوضاء قالت وهي مؤمنة سلطان جمالها الفتان :

ــ انظروا إليّ !

رأى الناس عظمتها الباردة فزأروا ضدها :

اذهبي ! أنت سبب قدومنا طلباً للخلود . سنتقاتل من أجله لأننا لن نناله كلنا .

خافت الفريدة وأعلنت أن نجمة لامعة تأتي كل مساء إلى فوق الذروة التي يغطيها الثلج . . هناك . . وسيحصل على موهبتها الذي يجلب لها تلك النجمة .

ارتبك الناس الذين كانوا حانقين . . . راودهم ، مجدداً ، الامل بالخلود فمضوا صامتين مفكرين بطريقة يصلون بها إلى نجمة المساء المضيئة ، نظرت

الفريدة إليهم وهم يسرعون هابطين المنحدرات فشعرت أنها قوية لا تطال كما كانت من قبل .

أوت مساء إلى غرفة نومها فماذا دهاها ؟ لقد أرسلتهم ليشقوا في تحقيق مهمة لا تتحقق كي تطمئن وتسعد ، ولكنها استلفت مؤرقة . وثارت في صدرها رغبة مسكرة وراح قلبها يدق سريعاً وكأنها توشك ان تختنق .

وأدركت مشقة أن تكون فريدة . . . انطلقت في صباح اليوم التالي عبر المروج . أسرعت الزهور التي داستها أرجل الناس بالانتصاب كي تنحني لها حين تمر بها . وعادت الطيور التي اختبأت بالاشجار والاجفان لتستقبلها بالاغاني وكأن شيئاً لم يتبدل . فلماذا لم يروح ذلك عنها ؟ ولم تجد جواباً على سؤاها .

وأطلقت رغبتها إلى النجمة الكبيرة . وكانت تظن انها تطير نهاراً حتى تصل مساء إلى فوق الجبل من أجلها . فهل سيوصلها أحدهم إلى هذه النجمة ؟

دق أحدهم على نافذتها ليلاً فسألت الفريدة :

ــ من أنت ؟ لماذا لا تقرع الباب كما يفعل المهذبون ؟

ــ أدق لا علمك بوجودي لا لتفتحي . فأنا هنا .

ــ هل أنت في الغرفة ؟

ــ وأكثر من ذلك .

ــ أأنت في غرفة نومي ؟

ـ وأكثر من ذلك . أنا في دخيلتك

قالت الفريدة وهي تتلمس شعرها ووجهها :

ـ لا أصدق .

ـ لا تبحثي عني فأنا لا أرى .

ـ ما أنت اذن حتى تكون موجوداً ولا تمكن رؤيتك ؟

ـ أنا الخيال

ـ لماذا أتيت ؟

ـ لاقودك إلى النجمة الأجمل . سأزينها دائماً حسب رغبتك

ـ وهل سأعطيك قلبي لقاء ذلك ؟

ـ أنا خالد من دون موهبته .

ـ ولماذا تريد أن تقودني إلى النجمة اذن ؟

ـ سأرسمها لك فقط . التذكر وحده الفريد .

ـ ألست فريدة ؟

قال الخيال مؤكداً :

ـ ما دمت ترغبين في شيء فلست كذلك . ولكن فلنكف عن الجدل .

ـ أريد أن أذهب إلى النجمة التي أتحدث ليلاً إليها وأدعوها نجمتي .

ـ تذهبين اليوم ويذهب غيرك غداً

– فليكن . لا أرسل رغباتي ليلاً إلا إليها .

قال الخيال ملاطفاً :

– سأختفي إلى حين . وسيأتي زمن تحتاجين فيه إليّ . فاذا وصلت إلى النجمة ووجدت مالا يرضيك فسوف أتصل بك . . كل شيء يتكرر من دوني .

لست بحاجة إلى موهبة قلبك . انها تستطيع منح الخلود للكائن الحي . . المعنوي لا يموت . . ومهما ملكت ستظلين بحاجة إليّ . فالرغبة التي لا تخمد تمدني بالحياة وتؤكد خلودي .

صمتت الفريدة دون أن تعرف كيف سكن الخيال في صدرها . وقفت إلى النافذة ورأت نجمتها تتوهج فوق ذروة الجبل الشاهقة . حيتها قائلة :

– مساء الخير ! أريد أن أذهب إليك .

– وماذا تبتغين ؟

فرحت الفريدة وقالت .

– كم أنت محببة . . . لم تتحدثي إليّ فيما مضى .

– النجوم تصمت

قالت الفريدة خائفة :

– مع من تتكلم اذن ؟

ـ تستطيعين أن تحوكي أجمل نجمة بالاحلام .

سألت الفريدة :

ـ ومن أنت ؟

ـ ألا تعرفين ! أنا حلم .

ـ أريد أن أنال لا أن أحلم وحسب .

ـ أنا لا أخلط الامور . نالي ما تشائين . يقولون أنني غير ضروري . أنهم يكذبون . لا شيء يذكر من دوني .

كيف ؟

ـ كل انسان يريد أن يكون أكثر مما هو عليه ـ أكبر ، أقوى ، أكثر حماسة ، أكثر فرحاً ، أسعد وأكثر حكمة . صلي إلى النجمة ، تحدثي إليها ، نالي الجنة ، فسوف تحتاجين إليَّ ذات حين . ولئن كنت فريدة فسوف تكونين وحيدة من دوني .

قالت الفريدة بقوة :

ـ حتى لو كنت على صواب فانني أريد أن أصل إلى نجمتي . أريد أن أراها وأن أسألها عما إذا كانت قد تلقت امنياتي !

قال الحلم وهو يضيع :

– ليكن ما قلت . . وأنا ، ولا أقولها متباهياً ، موهبة كبيرة للناس .

وبعد بضعة أيام بدأ العديد من الناس يتوافدون . . كانوا يحملون آلات وأعتدة . كان بعضها غريباً ومثيراً للفضول . دارت الآلات مثل لعب الاطفال ارتفع بعضها فوق الارض قليلاً . فرد بعضهم أجنحة ضخمة ولكنهم لم يقدروا على الطيران .

قالت الفريدة لنفسها :

– لن تصلي إلى نجمتك .

ثم رفعت يدها لتمسح دمعة طفرت من عينها

رجتها الدمعة قائلة :

– اتركيني . أنا أبنة عذابك . ساساعدك .

لم يستطيع الناس بأكثر اختراعاتهم تعقيداً ايصالي إلى النجمة . . فهل أنت . . .

أرادت الدمعة أن تجيب فلم تستطع . خطفتها الريح وطارت بها صعداً نحو الجبل ، حيث يعيش أحد الشبان . انه يصنع مزامير ذات شكل واحد ولكنها ترسل أصواتاً مختلفة . وهو يشد دائماً إلى ركبته عصاً محدبة كالنير . يبدو انها عزيزة جداً عليه وانها ضرورية جداً له . لا تحيد نظراته عنها حتى وهو يعلق بالمزامير عقوداً من الفريز البري . هل تتصورون انه ما أن يمتطي تلك العصا حتى يهبط إلى أسفل الوادي في لحظة . هناك يعطي المزامير إلى الاطفال ثم تحمله العصا

سريعاً إلى الذرى الشاهقة حيث يجلس من جديد أمام بيته ويروح يبدع في صنع المزامير . ومن ثم يضع لها عقود القرير الاحمر ويهبط من جديد إلى الوادي .

رأت الدمعة هذا الفتى الشجاع فاندفعت وسقطت في قلبه . كان قلبه مضاء وبراقاً ، فكأنها وقعت في قصر حيالي . وتأوهت اعجاباً . .

سألها الفتى وقد فوجيء بقدومها :

ـ لم يدعك أحد ، فمن أنت ؟

ـ أنا دمعة

. أنا أكتشف مكانك حتى لو كنت شيطاناً . لدي عصا سحرية استطيع بها الوصول إلى النجوم وإلى حيث أشاء .

ـ أنا أبنة عذاب أحدى الفتيات . انها تريد أن تصل إلى تلك النجمة الكبيرة التي تلمع فوق ظهر الجبل المعتم .

قال الفتى :

ـ ما دمت أبنة العذاب فأنت دمعة حقيقية .

ولم يشأ أن يطردها .

لا يعرف سواهما ما دار بينهما من همس . . ولكنهما قررا يوماً أن يوصلا القريدة إلى نجمتها .

امتطى الفتى عصاه الحدباء فوصل بسرعة أشعة الشمس إلى الوادي العجيب الذي فيه القلعة العجيبة ، حيث الجميلة ذات الموهبة العجيبة .

استقبله الحراس مغتاظين وسألوه :

ـ عم تبحث هنا ؟

ـ أريد أن أوصل الآنسة إلى نجمتها .

وضحكوا منه ساخرين :

ـ ها ، ها ، ها !

كانوا على حق فهو لا يملك ما يميزه عن سواه . على أحد كتفيه حقيبة فيها زادة وعلى الاخر ضرف فيه ماء وفي يديه العصا الحدباء . . . ولا أحد يستطيع التفكير بالوصول إلى النجوم بهذه الاشياء . . ولكنهم استغربوا وصوله إلى القلعة .

خاطبهم الفتى قائلاً :

ـ أن ما ينبع من القلب يصنع أعاجيب حقيقية .

ظنه الحراس مكاراً فابتسم . هددوه وتوعدوه فابتسم أيضاً . وكان هذا أعجوبة .

تشاوروا مع الفريدة ثم سمحوا له بالدخول . وامتطى الفتى والفريدة العصا الحدباء سريعاً ومعهما حقيبة الزاد وضرف الماء . تعالى ما يشبه طنين النحلة ثم انفصلا عن سلم القلعة المرمري .

كان طيرانهما معاً على العصا من أكبر الاعاجيب . ولقد ظن الناس ان ليس ثمة أعجوبة أكبر من هذه .

فاقت الموهبة الجميع فرحاً فسألت الفتى عما سيفعل بعد أن تمنحه الخلود فقال :

ـ سأصنع المزامير للاطفال كما كنت أفعل سابقاً

همست الموهبة :

ـ شكراً لك ، أنت جدير بأن تظل نشيطاً وشاباً وخالداً .

أصغت إليهما الفريدة ولكنها لم تفهم ما قالاه . . . فالشاب سينال الخلود وسيظل يصنع المزامير . . . وسألت عن أمر آخر :

ـ هل أستطيع أن أطير بالعصا وحدي ؟

أجابها :

ـ كلا !

فكرت الفريدة :

ـ ما دمت لا أستطيع الطيران وحدي إلى النجم فهذا يعني انني لست فريدة .

ونظرت إلى الشاب بمزيد من التودد .

أما هو فكف عن الابتسام .

سألته الفريدة :

ـ ما بك ؟

ـ يجب أن نتوقف . يجب أن تستريح العصا السحرية

ـ أليست سحرية فلا تتعب ؟

ـ أن أكبر سحر يجب أن يدعم ، وان يغذى .

قالت الفريدة مضطربة :

ـ وكيف ندعم عصانا السحرية ؟

ـ ستتوقف على الذروة وسنقول لها أننا نثق بها واننا متأكدان من أنها ستوصلنا إلى نجمك . سحرها يتغذى بالايمان ويجب أن نثق بالاشياء العجيبة لكي تخدمنا .

ـ حسناً .

اتجه الفتى والفريدة طائرين نحو أعلى ذروة في الجبل الذي لاح مثل جزيرة وسط الضباب ، مضاء بنور الشمس ولكنه بارد وموحش . اندفعا نحوه ، ولكن المكان الذي يمكن أن يهبطا عليه فيه عش نسر يضم فرخين صغيرين جداً .

قال الجبل راجياً :

ـ لا ، لا ! لا تهبطا ! فأنا لا تزورني سوى الرياح والغيوم . والنسور وحدها تجلني . . . . تبني أعشاشها هنا وتتقف فراخها فتمنحني الحياة .

صاحت الفريدة مغتاظة :

ـ أسرع ! الوقت لا ينتظر .

ـ سنسحق فرخي النسر إذا هبطنا

قاطعته الفريدة قائلة :

ـ ستخسر الخلود ان لم تهبط .

فكر الفتى قليلاً ثم قرر الا يهبط على الذروة الكبيرة ويسحق فرخي النسر .

هتفت الذروة :

ـ شكراً لك .

وطارت العصا سعيدة نحو الوادي . . وخلال لحظة أعاد الفتى الفريدة إلى المكان الذي أخذها منه فوق سلم قصرها المرمري وطار نحو بيته سعيداً لان الخلود لم يغوه بسحق فرخي النسر . . . لقد عاد ليصنع المزامير للاطفال .

وقد تكون هذه أكبر أعجوبة حدثت على الجبل الرائع وفي الوادي العجيب .

